التاريخ الإسلامي
مواقف وعبر

تأليف
دكتور عبد العزيز بن عبد الله الحميدي
الأستاذ بكلية الدعوة وأصول الدين بجامعة أم القرى

الجزء الثاني

دار الأندلس الخضراء
للنشر والتوزيع

السيرة النبوية ﷺ

(٣)

الطبعة الأولى

١٤١٨ هـ - ١٩٩٧م

رقم الإيداع	٥٦٣٢ / ٩٧
الترقيم الدولى 977 - 253 - 151 - 8	

دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع

١ شارع منشا - محرم بك - الإسكندرية

ت : ٤٩٠١٩١٤ فاكس : ٥٩٥١٦٩٥

مكتب توزيع القاهرة ت : ٣٨٣٢٧٤٧

التاريخ الإسلامي

مواقف وعبر

السيرة النبوية

٣

تأليف

دكتور عبد العزيز بن عبد الله الحميدي
الأستاذ بكلية الدعوة وأصول الدين بجامعة أم القرى

دار الدعوة
للطبع والنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

١ - تفوق النبي صلى الله عليه وسلم في الدعوة
(شكوى قريش لأبي طالب في مرضه)

إن المبادئ السامية تظل مُثُلاً عالية في عالم الذهن ، حتى يوجد من يمثلها في عالم الواقع ، وكم من إنسان يتصور هذه المباديء في ذهنه ويتحمس للدفاع عنها في تخيله ، ويراها هي الحقَّ كلَّ الحق حتى إذا تحول إلى عالم الواقع جبن عن الدفاع عنها وضعف عن تمثيلها بنفسه ، وفضَّل مداراة الناس بما هم عليه من باطل على مجابهتهم بما هو عليه من الحق .

أما رسول الله ﷺ فهو الإمام الأعظم والمثل العالي في تمثيل الحق والدفاع عنه ومجابهة الباطل وأهله وإن اغتروا بكثرتهم وقوتهم المادية .

يبين ذلك ما رواه الإمام الطبري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال : « لما مرض أبو طالب دخل عليه رهط من قريش فيهم أبو جهل بن هشام فقالوا : إن ابن أخيك يشتم آلهتنا ويفعل ويفعل ويقول ويقول ، فلو بعثت إليه فنهيته » .

ومن هذا نعرف تفاني أهل الباطل في الدفاع عن باطلهم واغتنامهم الفرص المناسبة للهجوم على المعتقدات التي يرون أنها تهدد وجود باطلهم ، الذي يتوقف وجودهم عليه ، وتتمثل زعامتهم في علو رايته وقيام أمره ، فقد اغتنم هؤلاء الكفار فرصة مرض أبي طالب الذي كان يقف سداً منيعاً بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم .

والإنسان حال المرض يكون ضعيف الجسم فتضعف إرادته وتقل مقاومته ، فأرادوا أن يحصلوا منه على موقف يَهُون فيه عن نصرة ابن أخيه ﷺ فيعتزَّ جانبهم ويكسبوا الجولة الأخيرة لصالحهم .

« قال : فبعث إليه فجاء النبي ﷺ فدخل البيت وبينهم وبين أبي طالب قدر مجلس رجل ، قال : فخشي أبو جهل إن جلس إلى جنب أبي طالب أن يكون أرقَّ له عليه ، فوثب فجلس في ذلك المجلس ، ولم يجد رسول الله ﷺ مجلسًا قرب عمه فجلس عند الباب » .

وهكذا يبدو أهل الباطل شَرسين في منافسة أهل الحق ومحادَّتهم ، ومحاولة الحيلولة بينهم وبين منابر الهداية ووسائل البلاغ التي يستطيعون منها أن يبلِّغوا دعوتهم بشكل مؤثر ، كما أنهم يحاولون جاهدين أن يضعفوا من شخصية أهل الحق بأي شكل من الأشكال حتى ينزووا بأنفسهم بعيداً عن الأنظار ويجبنوا عن تمثيل الحق والدفاع عنه .

« قال : فقال له أبو طالب : أي ابن أخي ما بال قومك يشكونك ويزعمون أنك تشتم آلهتهم وتقول وتقول ؟ قال : فأكثروا عليه القول » .

وهذا موقف ما كانوا ليظفروا به من أبي طالب لولا ضعفه حال المرض ، فقد كان قبل ذلك يجابههم ، ولا يخفى عليه ما كان يصدر من رسول الله ﷺ من التنديد بآلهتهم وانتقاد ماهم عليه من مظاهر الشرك المختلفة .

« قـال : وتكلـم رسـول الله ﷺ فـقـال : ياعـم إني أريدهم على كلمة واحـدة يقولونها تدين لهم بها العرب ، وتؤدي إليهم بها العجم الجزية » .

وهنا تبدو الحكمة العالية في الدعوة ، والأسلوب البارع في إثارة السامعين للاهتمام ، وذلك في جمع المقاصد العظيمة التي بها قوام الحياة وما بعـد الممات في كلمة واحدة ، وترتيب الهيمنة في الأرض على قولها .

وهل كان زعماء قريش يحلمون في يوم من الأيام بأن يكونوا سادة العرب وأن تخضع لهم دول العجم بأجمعها فتدفع لهم الجزية ؟ .

إنه لحلم بعيد المنال يفزع الإنسان من مجرد تصوره في الذهن إذا كان خالياً من الإيمان بالله تعالى واليقين بوعده الذي لايتخلف ، ولذلك فزع زعماء قريش .

« قال : ففزعوا لكلمته ولقوله : فقال القوم : كلمة واحدة ؟ نعم وأبيك عشراً ، فقالوا : وما هي ؟ وقال أبو طالب : وأي كلمة هي ياابن أخي ؟ » .

لقد ظن القوم أن حصر النبي ﷺ دعوته في كلمة واحدة يعني أنه بدأ بالتنازل لهم عن بعض ما كان يدعو إليه وأنه سيوافقهم في بعض مطالبهم ، فاستخفُّوا بطلبه وأبدوا استعدادهم لأكثر مما طلب منهم .

« قال : قال ﷺ : لا إله إلا الله » .

إنها كلمة واحدة ، ولكنها تعني مجمل منهج كامل يرسم للمسلم طريق الاستقامة في هذه الحياة ، الذي يتضمن التخلي الكامل عن جميع المقدسات التي تعارف عليها البشر على غير هداية الله وما يترتب على ذلك من تشريعات ونظم ، ثم التحلي بعبادة الله تعالى وحده وما يترتب على ذلك من إخضاع جميع شئون الحياة لهذه العبادة .

ولقد كان المشركون يفهمون جيداً مدلول كلمة التوحيد ، ويقدِّرون مسئولية النطق بها ، ولذلك فزعوا منها .

« قال : فقاموا فزعين ينفضون ثيابهم وهم يقولون ﴿ **أجَعَلَ الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عُجَاب** ﴾ قال : ونزلت من هذا الموضع إلى قوله ﴿ **بل لمَّا يذوقوا عذاب** ﴾ (١) (٢) .

---

(١) يعني قوله تعالى : ﴿ وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد . ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق ، أَؤُنزل عليه الذكر من بيننا بل هم في شك من ذكري بل لمّا يذوقوا عذاب ﴾ .

(٢) تفسير الطبري ٢٣/ ١٢٥ .

وأخرجه الإمام أحمد ، وصحح إسناده الشيخ أحمد شاكر - مسند أحمد بتحقيق أحمد شاكر ٣/ ٣١٤ رقم ٢٠٠٨ .

وأخرجه الإمام الترمذي وقال : هذا حديث حسن صحيح - جامع الترمذي ، كتاب التفسير (تحفة الأحوذي ٨/ ٩٩) .

وأخرجه الحاكم وصححه وأقره الذهبي - المستدرك ٢/ ٤٣٢ - .

لقد كان زعماء المشركين يفهمون أن هذه الكلمة هدم لموروثاتهم التي سادوا الناس بها ، ولقد كانوا يفهمون أن آلهتهم التي يقدسونها لاتُحل لهم ولاتحرم عليهم شيئًا ، وإنما هم الذي يحلون للناس ويحرمون عليهم بأهوائهم باسم هذه الآلهة . فهذه الكلمة تحول بينهم وبين تقديس ميراث آبائهم ، وتحول بينهم وبين اتباع اهوائهم وتحول بينهم وبين استعباد المستضعفين من البشر الذين يرونهم دونهم في الحياة .

ولقد كان النبي ﷺ صريحًا معهم قوياً في مجابهتهم فلم يداهنهم رغم محاولاتهم المتكررة ، ولم تَلنْ له معهم قناة رغم محاولتهم إضعاف موقفه وتكالبهم عليه وهو يحضر ندواتهم وحده .

وإنه ﷺ ليضرب المثل عالياً لأمته في معاملة الكافرين في مختلف الأحوال حسب ما تقتضيه مصلحة الدعوة ، وإنه لمن الواجب على الدعاة أن يدرسوا سيرته بتعمق وفقه حتى يتأسوا به في تعامله مع الناس، وفي دعوته حتى لايسيروا في دعوتهم على جهالة وانحراف .

وهكذا رأينا أن النبي ﷺ قد وعد قومه إذا هم أسلموا بالسيادة على العرب والعجم ، إضافة إلى سعادة الآخرة التي تتمثل بالفوز برضوان الله تعالى والظفر بالجنة والنجاة من النار ، ومع ذلك فإنهم ظلوا متمسكين بخرافات وأوهام تتيح لهم السيادة على مكة وحدها ، ولا يضمنون بها سعادة بعد الموت .

فما أنقص عقولهم ، وما أضعف تفكيرهم حينما قصروا اهتمامهم

على الحياة الدنيا ولم يقبلوا دعوة الإصلاح التي تتيح لهم مجد الدنيا والآخرة !! .

هذا وإن الذين ورثوا هذا الدين جيلاً عن جيل وأصبحت أنظارهم مقصورة على السيادة على بلدانهم وليس في حِسِّهم نقلُ هذا الدين إلى العالم والسيادة به على الأرض ، وليس حاضراً في وجدانهم مستقبلهم الأخروي ، وقد عُمرت أفكارهم بالحفاظ على المستوى الأعلى من متاع الدنيا ولو في ظل هيمنة الأعداء عليهم . . إن هؤلاء لا يختلفون كثيراً عن الذين حاورهم رسول الله ﷺ في هذا الخبر وأمثاله من ناحية الاقتصار على الأهداف القريبة التي تشغل بالهم ، وقصور تفكيرهم عن الأهداف السامية التي نقلهم إليها الإسلام ، وإن كانوا يختلفون عنهم بالإيمان بالإسلام ، ومعاداة أولئك لهذا الدين الحنيف .

* * *

٢ - صبر جميل وعزيمة نافذة

(وفاة الحاميَين : خديجة وأبي طالب)

تقدم لنا خبر مرض أبي طالب وما كان من زعماء قريش من محاولة استمالته إلى صفهم ليتخذ موقفًا يوهن فيه من دعوة الإسلام وما كان من موقف النبي ﷺ في الثبات والحكمة في الدعوة .

وقد توفي أبو طالب في مرضه ذلك ، وذلك في العام العاشر للبعثة ففقد النبي ﷺ بموته ناصراً مخلصًا وحاميًا قويًا .

ويشاء الله تعالى أن تموت في نفس هذا العام خديجة بنت خويلد أم المؤمنين الوفية الصابرة رضي الله عنها فيجتمع على رسول الله ﷺ بموتهما مصيبتان كبيرتان ، فلقد كان كل واحد منهما يقدم له جانبًا من الحماية والتأييد ، كان أبو طالب يحميه من الأعادي ، ويهددهم أحياناً بخوض معامع القتال دونه إذا لزم الأمر ، وكانت خديجة تحوطه بعطفها وحنانها إذا عاد إلى البيت وتمْسح من نفسه آثار الصدام والصراع الذي يجري بينه وبين المناوئين لدعوته ، وتُبثُّ له سمعة واسعة في مجتمع النساء ، ببيان أخلاقه العالية ومعاملته الكريمة ، وصدق دعوته وسمو أهدافه .

ولاشك أن النساء لهن تأثير كبير على الرجال ، فإذا وجد الواحد

منهم في بيته من يلومه على عداوة الرسول ﷺ ويدافع عنه فإن ذلك يكسر مما في نفسه من تحديه ومحاولة إيذائه .

يقول محمد بن إسحاق رحمه الله في بيان وفاة الحاميين ، خديجة وأبي طالب وما حصل على النبي ﷺ من المصائب بفقدهما :

ثم إن خديجة بنت خويلد وأبا طالب هلكا في عام واحد ، فتتابعت على رسول الله ﷺ المصائب : بهُلْك خديجة ، وكانت له وزير صدق على الإسلام يشكو إليها ، وبِهُلْك عمه أبي طالب وكان له عضداً وحرزاً في أمره ، ومنعة وناصراً على قومه ، وذلك قبل مُهَاجَره إلى المدينة بثلاث سنين . فلما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله ﷺ من الأذى ما لم تكن تطمع به في حياة أبي طالب حتى اعترضه سفيه من سفهاء قريش ، فنثر على رأسه تراباً .

قال ابن إسحاق : فحدثني هشام بن عروة عن أبيه عروة بن الزبير ، قال : لما نثر ذلك السفيه على رأس رسول الله ﷺ ذلك التراب ، دخل رسول الله ﷺ بيته والتراب على رأسه فقامت إليه إحدى بناته فجعلت تغسل عنه التراب وهي تبكي ورسول الله ﷺ يقول لها : لاتبكي يابنية . فإن الله مانع أباك . قال : ويقول بين ذلك : ما نالت مني قريش شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب(١) .

ولكن مع فقد رُكْنَي الحماية القويين فإن النبي ﷺ لم يضعف أمام

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/٢٩ .

أعدائه الذين كشَّروا له عن أنيابهم ، ولم يتراجع عن دعوته قيد أنملة ، بل استمر في دعوته داخل مكة وخارجها .

ولقد ركز دعوته ﷺ خارج مكة حيث كان يبحث في قبائل العرب عن ناصر قوي يتكفل بحماية الدعوة والمؤمنين بها ، وسيأتي في المواقف التالية بيان ما قام به ﷺ من جهود مكثفة في اللقاء بزعماء القبائل .

* * *

٣ - مواقف وعبر في دعوة أهل الطائف

بعدما نصر الله تعالى رسوله ﷺ والمؤمنين على أعدائهم من زعماء مكة ، واضطر هؤلاء الأعداء إلى فك الحصار الاقتصادي والاجتماعي الذي فرضوه على المسلمين حصل شيء من الانفراج للدعوة حيث كسب المسلمون أنصاراً من الكفار غير بني هاشم وبني المطلب ، ولكن ما أن تم ذلك حتى قدر الله تعالى وقوع مصيبتين كبيرتين على رسول الله ﷺ والمؤمنين ، وهما وفاة عمه أبي طالب وخديجة أم المؤمنين رضي الله عنها ، وذلك في العام العاشر من البعثة ، فقوي بذلك موقف الأعداء من المشركين ، وبدؤوا في تدبير المكائد والتخطيط للقضاء على وجود الإسلام في مكة .

عند ذلك فكر النبي ﷺ في البحث عن قبيلة قوية تقوم بحمايته وأتباعه حتى يبلغ رسالة ربه جل وعلا ، ووقع اختياره على قبيلة ثقيف في الطائف .

قال ابن إسحاق رحمه الله : ولما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله ﷺ من الأذى ما لم تكن تنال منه في حياة عمه أبي طالب ، فخرج رسول الله ﷺ إلى الطائف يلتمس النصرة من ثقيف ، والمنعة بهم من قومه ، ورجا أن يقبلوا منه ما جاءهم به من الله عز وجل ، فخرج إليهم وحده (١) .

---

(١) يعني لم يكن في جماعة من أصحابه ولكن ثبت في روايات أخرى أنه كان معه مولاه زيد بن حارثة ، (وكان ذلك في ليال بقين من شوال سنة عشر من البعثة - طبقات ابن سعد ١/ ٢١١) .

قال : فحدثني يزيد بنُ زياد عن محمد بن كعب القرظي قال : لما انتهى رسول الله ﷺ إلى الطائف عَمَدَ إلى نفر من ثقيف هم يومئذ سادة ثقيف وأشرافُهم وهم إخوة ثلاثة : عبدياليلْ بن عمرو بن عمير ، وحبيب بن عمرو بن عمير ، وذكر نسبه .

ولم يذكر الثالث وهو مسعود بن عمرو كما جاء في روايات أخرى (١) .

قال : فجلس إليهم رسول الله ﷺ فدعاهم إلى الله تعالى وكلمهم بما جاءهم له من نصرته على الإسلام والقيام معه على من خالفه من قومه ، فقال أحدهم : هو يمرط(٢) ثياب الكعبة إن كان الله قد أرسلك .

وقال آخر : أما وجد الله أحدًا يرسله غيرك !

وقال الثالث : والله لا أكلمك أبدًا ، لئن كنت رسولاً من الله كما تقول لأنت أعظم خطرًا من أن أرد عليك الكلام ، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي لي أن أكلمك .

فقام رسول الله ﷺ من عندهم وقد يئس من خير ثقيف ، وقد قال لهم - فيما ذُكِر لي - : إذ فعلتم ما فعلتم فاكتموا عني ، وكره رسول الله ﷺ أن يبلغ قومه عنه فَيُذْئرهم (٣) ذلك عليه ، فلم يفعلوا ، بل أغروا به

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٤١٥ .

(٢) يعني يمزق .

(٣) يعني يهيجهم .

سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به ، حتى اجتمع عليه الناس ، وألجؤوه إلى حائط لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة ، وهما فيه .

ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه ، فعمد إلى ظل حبلة من عنب ، فجلس فيه ، وابنا ربيعة ينظران إليه ، ويريان ما لقي من سفهاء أهل الطائف [١] .

وقد جاء في بعض الروايات أن زيد بن حارثة كان معه ، وكان يصد بعض الحجارة عنه حتى أصيب ببعض الشجاج رضي الله عنه [٢] .

في هذا الخبر بيان واضح لاهتمام النبي ﷺ بأمر دعوته فهو لم يقتصر على الدعوة داخل مكة وإنما خرج بها خارج حدودها .

وقد جاء في هذه الرواية أن خروج النبي ﷺ إلى الطائف كان بعد موت عمه أبي طالب واشتداد أذى الكفار عليه وعلى أتباعه ، فكان يرجو بذلك أن يجد متنفساً للدعوة فتقوى وتنتشر .

ولكن زعماء ثقيف ردوا عليه رداً سيئاً كما جاء في الخبر وآذَوه في بدنه حتى احتمى بأحد البساتين وكان لعتبة وشيبة ابني ربيعة وهما من زعماء المشركين في مكة .

وكون رسول الله ﷺ يتعرض لمثل هذا النوع من البلاء دليل على علو مكانته عند الله تعالى كما جاء في حديث سعد بن أبي وقاص رضي

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٣٣

(٢) طبقات ابن سعد ١/ ٢١١

الله عنه قال : « قلت : يارسول الله أي الناس أشد بلاء ؟ قال : الأنبياء ، ثم الأمثل فالأمثل ، يبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان في دينه صلبًا اشتد بلاؤه ، وإن كان في دينه رقة ابتلي على حسب دينه »(١) .

والرسول ﷺ هو القدوة العليا لهذه الأمة ، فإذا تصور الدعاة إلى الله تعالى ما أصابه من الأذى وقوة صبره وتصميمه على مواصلة الدعوة فإنه يهون عليهم ما يصيبهم من الأذى والمكروه في هذه الحياة .

وكون زيد بن حارثة يقي رسول الله ﷺ بنفسه من الحجارة حتى أصيب ببعض الشجاج يدل على أنه قد بذل جهدًا كبيراً في حماية رسول الله ﷺ حيث كان يتلقى الحجارة ببدنه ولم يصل منها إلى رسول الله ﷺ إلا التي وجهوها إلى قدميه .

وهذا موقف من مواقف زيد الكثيرة التي كان جُلُّها في خدمة رسول الله ﷺ وحمايته ، فلا غرابة بعد ذلك في أن يكون هو وابنه أسامةُ من أحب الناس إليه ﷺ وآثرهم عنده .

وكون هؤلاء الزعماء الثلاثة يردون بهذه الردود القاسية دليل على قسوة قلوب الكفار ، واعتزازهم بما يعتقدون من الباطل ، وتكبرهم عن سماع الحق ، وما يحدثه الكفر في قلب صاحبه من إغلاق الفكر عن النظر فيما يدعو إليه الآخرون بعقل رشيد وفكر سديد .

---

(١) سنن ابن ماجه رقم ٤٠٢٣ كتاب الفتن ، سنن الدارمي رقم ٢٧٨٣ ، كتاب الرقائق

كما أن هذا دليل على ما يتصف به الكفار من الإسفاف في القول في تعاملهم مع دعاة الحق ، وتعمد المبالغة في التحدي لتحطيم معنوية هؤلاء الدعاة .

وإذا كان هذا شأن السادة الذين كانوا في الجاهلية يختارهم قومهم لكمال صفاتهم التي تؤهلهم للسيادة ، فكيف يكون شأن عامة الناس في مجتمعات الجاهلية ؟! .

على أنه مما يجب التنويه به أن تلك القبيلة التي كانت متصلبة في الكفر حتى تأخر إسلامها بعد فتح مكة كانت بعد ذلك من أشد القبائل التزاماً بالإسلام والدفاع عنه ، فقد كانوا من القلائل الذين ثبتوا على إسلامهم وولائهم لدولة الإسلام يوم الردة ، وأمدوا الجهاد الإسلامي بقادة وجنود أكفاء ، ولعل تصلُّبهم في التمسك بعقيدتهم الباطلة في الجاهلية تحوّل إلى تصلب في التمسك بعقيدة الإسلام بعدما هداهم الله تعالى .

قال ابن إسحاق في سياق هذا الخبر : فلما اطمأنَّ رسول الله ﷺ قال - فيما ذُكر لي - : اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين وأنت ربي ، إلى من تكلني ، إلى بعيد يتجهمني أم إلى عدو ملّكته أمري ؟ إن لم يكن بك عليّ غضب فلا أبالي ، ولكن عافيتك هي أوسع لي ، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة

من أن تُنزل بي غضبك أو يَحلّ عليّ سخطك ، لك العُتْبَى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك [1] .

لقد كان النبي ﷺ شديد الحزن على واقع أمته عظيم الأسى على واقع خلّفه وراء ظهره في الطائف وواقع أليم ينتظره وهو قادم إلى مكة ، ولقد أخذ به الهمُّ المتكاثف من ذلك الصدود المتواصل من قومه ومن القبائل التي عرض عليها الإسلام ، وإنا لنلمح ذلك في هذا الدعاء المشهور الذي دعا الله به مُنْصَرفه من الطائف ، حيث اشتكى إلى ربه جل وعلا ضعف قوته ، فهو لايملك القوة التي يجابه بها المعاندين ويزيل بها الطغاة الذين فرضوا الحجر الفكري على الناس وضيقوا مجال الاستجابة للدعوة .

« اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي » حيث لايستطيع الخروج بواقع الدعوة من المأزق الذي وضعها فيه أعداؤه .

« وهواني على الناس » حيث يتجرأ أعداء الله على السخرية منه والاعتداء على جسده الشريف ، وإنه لعجب أن يوجد في وقت واحد من يسيل دمه ومن يتبرك بدمه ، فليس على وجه الأرض من يعظمه أتباعه ويتبركون به مثله ، ومع ذلك ينتهك أعداؤه من حرماته ما لايُقْدمون عليه مع خدمهم ومماليكهم .

ثم يستجدي رحمة الله تعالى التي وسعت كل شيء ويعلن ضعفه

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٣٤ .

واضطراره إلى ربه جل وعلا الذي يملك أمره وأمر كل شيء : « يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربي » ، فهو سبحانه سند أوليائه المؤمنين ، وتكرار ذكر ربوبية الله تعالى بالتخصيص بعد التعميم لتأكيد أمر اللجوء إلى الله جل وعلا .

ثم يسأل ربه أن يكون معه وأن لايتخلى عنه وأن لايكل أمره إلى بعيد يعبس بوجهه له ويترفع عليه كما حصل من أهل الطائف ولا إلى قريب له السيطرة والنفوذ في بلده كالملأ من أهل مكة : « إلى من تكلني ؟ إلى بعيد يتجهمني أم إلى قريب ملَّكته أمري » .

ثم يبين ﷺ أن الشيء الذي امتلك عليه لبَّه وأخذ عليه مشاعره هو أن يحوز على رضوان الله تعالى ، وأن يكون بعيداً عن سخطه وغضبه . . إذا تم له ذلك فلْيُعَاده من شاء أن يعاديه من البشر ، وليعملوا ما شاؤوا في أذيته والكيد له .

غير أن الجمع بين الظفر برضوان الله تعالى والتمتع بعافيته من أذى الناس هو أرفق بالعباد الذين من شأنهم الضعف والافتقار : « إن لم يكن بك غضب عليَّ فلا أبالي ، غير أن عافيتك هي أوسع لي » .

وفي هذه الفقرة يتبين عمق توحيد النبي ﷺ ، ومبلغُ تجرده لله جل وعلا ، فهو لم يشعر بهذا الحزن المضني والهمِّ المتواصل ليدرأ عن نفسه الأذى أو ليجلب لنفسه شيئاً من حياة الهدوء والنعيم ، بل هو يستعذب كل هذا الأذى من أجل الله تعالى ، غير أنه مشفق من غضب ربه سبحانه أن يكون قصَّر في أمر من أمور الدعوة من غير أن يشعر فيتعرض لشيء

من غضب مولاه جل وعلا ، فإذا لم يكن صدود الناس وأذيتهم إياه بسبب تقصير حصل منه فإنه لايبالي بما حصل له من الأذى على يد أعدائه لأنه إنما يحتسب ذلك عند ربه جل وعلا .

ويؤكد النبي ﷺ رجاءه بنيل البراءة من سخط الله تعالى وغضبه بهذا التوسل العظيم والالتجاء البليغ « أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن تُنزل بي غضبك ، أو يَحلَّ عليَّ سخطك لك العتبى حتى ترضى » .

فرضوان الله تعالى إذاً هو الهدف الأعلى عند رسول الله ﷺ ، وهو المطلوب الأعظم الذي تُسَخَّر له كل المطالب ، وإذا كان البلاء من الله تعالى من أجل أن يحل رضاه وينجلي سخطه فحيهلاً بالبلاء ، وهو ساعتئذ نعمة ورخاء .

ثم يختم رسول الله ﷺ دعاءه بالكلمة العظيمة التي يقولها وعلَّم أصحابه أن يقولوها عند حلول المكاره « ولاحول ولا قوة إلا بك » فلا تحوُّل للمؤمن من حال الشدة إلى حال الرخاء ، ولا من الخوف إلى الأمن إلا بالله تعالى ، ولا قوة له على مواجهة الشدائد وتحمُّل المكاره إلا بالله جل وعلا .

قال ابن اسحاق رحمه الله في سياق روايته : « فلما رآه ابنا ربيعة عتبة وشيبة ومالقي تحركت له رحمهما فدعوا غلاما لهما نصرانياً يقال له : عداس ، فقالا له : خذ قطفا من هذا العنب فضعه في هذا الطبق ، ثم اذهب به إلى ذلك الرجل فقل له يأكلْ منه .

ففعل عداس ، ثم أقبل به حتى وضعه بين يدي رسول الله ﷺ ، ثم قال له : كل ، فلما وضع رسول الله ﷺ فيه يده قال : بسم الله ، ثم أكل ، فنظر عداس في وجهه ، ثم قال : والله إن هذا الكلام مايقوله أهل هذه البلاد .

فقال رسول الله ﷺ : ومن أهل أي البلاد أنت ياعداسُ ومادينك ؟ قال : أنا رجل نصراني وأنا رجل من أهل نينوى .

فقال رسول الله ﷺ : من قرية الرجل الصالح يونس بن مَتَّى ، فقال له عداس : وما يدريك مايونس بن متى ؟

فقال رسول الله ﷺ : ذاك أخي كان نبيا وأنا نبي ، فأكبَّ عداس على رسول الله يقبل رأسه ويديه وقدميه .

قال : يقول ابنا ربيعة أحدهما لصاحبه : أما غلامك فقد أفسده عليك ، فلما جاءهما عداس قالا له : ويلك ياعداس مالك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه ؟

قال : ياسيدي مافي الأرض شيء خير من هذا ، لقد أخبرني بأمر ما يعلمه إلا نبي ، قالا له : ويحك لايصرفَنَّك عن دينك فإن دينك خير من دينه (١) .

هذا وإن تسمية النبي ﷺ قبل الأكل تطبيق لسنة من سنن الإسلام الظاهرة ، وقد كان من بركة ذلك انجذاب رجل نصراني إلى الإسلام .

---

(١) سيرة ابن هشام / ٢/ ٣٥ .

فما أن ذكر رسول الله ﷺ اسم الله تعالى قبل الأكل حتى اهتز كيان ذلك المولى النصراني وجاشت مشاعره فأخبر النبيَّ ﷺ بعجبه من ذلك حيث لا يعرف أهلُ تلك البلاد ذكرَ اسم الله تعالى .

والتسمية قبل الأكل كسائر السنن الظاهرة من أسباب تميز المسلمين على من حولهم من الوثنيين ، وهذا التميز يلفت أنظار الكفار ويدفعهم إلى السؤال عن سبب ذلك ، ثم يقودهم ذلك إلى فهم الدين الإسلامي والانجذاب إليه .

وإن لنا في رسول الله ﷺ أسوة حسنة حيث جهر بتطبيق الإسلام بكل تكاليفه ولم يخش في ذلك لومة لائم .

أما محاولة الاندماج في المجتمعات الوثنية والاستخفاء بمعالم الإسلام الظاهرة ، فإن هذا يحصر انتشار هذا الدين ، إلى جانب أنه يضعف شخصية المسلمين .

وبينما كان رسول الله ﷺ يعاني من ذلك الأذى النفسي والجسماني من صدود الأعداء وإهانتهم إياه إذا به يفاجأ برجل يُقبِّل رأسه ويديه وقدميه ، لقد شاء الله تعالى أن يحتجب هذا النور الإلهي عن سادة ثقيف وأن يبصره مولى من الموالي كان محل الاحتقار وموئل الذلة والمهانة لدى عِلْيَتهم .

ولاشك أن عثور النبي ﷺ على رجل يحفظ له حق النبوة ويعظمه بعدما واجهه الأعداء بأشد أنواع القسوة والعنف يعتبر مواسياً له وباعثاً

على الشعور بعدم خلو البلاد ممن يقدرون دعاة الحق ويحفظون لهم كرامتهم .

ولقد كان يقين عداس بنبوة رسول الله ﷺ قوياً ، حيث كان في اعتقاده أنه سينتصر على اعدائه وأنه لايقف له أحد ، يدل على ذلك موقفه من سيّديه عتبة وشيبة بني ربيعة لما أرادا الخروج إلى بدر وأمراه بالخروج معهما حيث قال لهما : قتالَ ذلك الرجل الذي رأيت في حائطكما تريدان ؟ فو الله ماتقوم له الجبال ، فقالا : ويحك ياعداس قد سحرك بلسانه (١) .

وهكذا كانت شفافية تفكير ذلك الغلام المملوك وعمق إدراكه لكونه على علم بالكتب السماوية ، في مقابل قساوة قلوب سيديه وأمثالهما من الكفار الذين يحملون كل أثر للنبي ﷺ في قلوب الناس على السحر .

وخرج سيداه فما رجعا بل قتلا وسحبا مع من سحب من قتلى الكفار إلى قليب بدر ، وكان عداس المحتقر عندهما أعلم منهما بالله تعالى وبسنَنه في خلقه ، وأدرى منهما بعوامل انتصار الأمم وعوامل اندحارها (٢) .

---

(١) سبل الهدى والرشاد ٢/ ٥٧٨ .

(٢) هذا الخبر والخبر السابق يدلان على أن عداسا قد أيقن بنبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكن هل دخل في الإسلام ؟ ذكر الحافظ ابن حجر في ترجمته أن سليمان التيمي ذكر في سيرنه أنه قال للنبي ﷺ : « أشهد أنك عبد الله ورسوله » - الإصابة ٢/ ٤٥٩ - وإن ثبت هذا فإنه لم يعلن إسلامه قطعا وإلا لحصل له الإيذاء والتعذيب كما تعرض لذلك الموالي في مكة وقد كان في مكة في العهد المكي ، فربما كان من الأفراد الذين كانوا يكتمون إيمانهم .

وأبلغ من خبر عداس مع النبي ﷺ أن الله جل وعلا صرف نفراً من الجن إلى رسول الله ﷺ وهو في وادي نخلة مرجعه من الطائف فسمعوا قراءته فأسلموا ، كما جاء في رواية ابن إسحاق أنه قال : ثم إن رسول الله ﷺ انصرف من الطائف راجعا إلى مكة حين يئس من خير ثقيف ، حتى إذا كان بنخلة (١) قام من جوف الليل يصلي ، فمر به النفر من الجن الذين ذكرهم الله تبارك وتعالى وهم - فيما ذكر لي - سبعة نفر من جنِّ أهل نصيبين(٢) ، فاستمعوا له فلما فرغ من صلاته ولّوا إلى قومهم منذرين ، قد آمنوا وأجابوا إلى ماسمعوا ، فقص الله تعالى خبرهم عليه ﷺ ، قال الله عز وجل ﴿ **وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قُضِيَ ولّوا إلى قومهم منذرين ، قالوا ياقومنا إننا سمعنا كتاباً أُنزِلَ من بعد موسى ، مصدقاً لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم ، ياقومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويُجِرْكم من عذاب أليم** ﴾ (٣) .

وقال تبارك وتعالى ﴿ **قل أُوحِي إليَّ أنه استمع نفر من الجن** ﴾ إلى آخر القصة من خبرهم في هذه السورة (٤) .

---

(١) هو واد بين مكة والطائف ، قال البكري : موضع على ليلة من مكة وهي التي ينسب إليها بطن نخلة وهي التي ورد فيها الحديث ليلة الجن - معجم معالم الحجاز ٩/ ٤٢ - .

(٢) نصيبين بفتح النون وكسر الباء مدينة في شمال العراق الذي كان يسمى الجزيرة وتقع على الطريق بين الموصل والشام - معجم البلدان ٥/ ٢٨٨ - .

(٣) سورة الأحقاف ٢٩ - ٣١ .

(٤) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣٦ .

وأخرجه الإمام الطبري من طريق ابن حميد عن سلمة بن الفضل الأبرش عن ابن إسحاق به وذكر مثله (١) .

وأخرج نحوه الإمام البيهقي من حديث الإمام الزهري مرسلاً (٢) .

وأخرج الإمام أحمد خبر خروج النبي ﷺ إلى الطائف مختصرا من حديث خالد العدواني رضي الله عنه (٣) .

وأخرجه الطبراني مختصرا من حديث عبد الله بن جعفر وذكر دعاء النبي ﷺ كاملاً ، ذكره الهيثمي وقال : وفيه ابن إسحاق مدلس ثقة وبقية رجاله ثقات (٤) .

وماجاء في آخر هذا الخبر من سماع الجن يعتبر تبكيتا لقساة القلوب من الإنس الذين يتكرر عليهم سماع كلام الله تعالى ولايتأثرون به ، بينما سمعه الجن مرةواحدة فأسلموا .

هذا ومن العرض السابق في رواية ابن إسحاق تبين لنا كيف عانى رسول الله ﷺ من المشاقّ في رحلة الطائف الدعوية ، إضافة إلى أن خروجه ﷺ إلى الطائف ماشياً على قدميه ذهاباً وإياباً يعتبر بحد ذاته مجهوداً ضخماً وتضحية كبيرة ، حتى لو قوبل مقابلة حسنة ، فكيف

---

(١) تاريخ الطبري ٢/ ٣٤٤ .

(٢) دلائل النبوة ٢/ ٤١٤

(٣) المسند ٤/ ٣٣٥ .

(٤) مجمع الزوائد ٦/ ٣٥ .

إذا اجتمع مع هـذا الجهد الكبير والعناء البالـغ سـوء المقابلة والتعرض للأذى ؟! .

ومما يصور هذه المعاناة ما أخرجه الإمام البخاري من حديث عروة بن الزبير أن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ حدثته أنها قالت للنبي ﷺ : هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد ؟

قال : لقد لقيت من قومك ما لقيت وكان أشدَّ مالقيت منهم يوم العَقَبة إذ عرضْتُ نفسي على ابن عبدياليل بن عبد كُلال فلم يجبني إلى ما أردت ، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب (١) ، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلَّتني فنظرت فإذا فيها جبريل فناداني فقال : إن الله قد سمع قول قومك لك وماردُّوا عليك ، وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت ، فناداني ملك الجبال ، فسلَّم علَّي ثم قال : يامحمد فقال : ذلك فيما شئت إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين .

فقال النبي ﷺ : بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لايشرك به شيئاً (٢) .

وقوله ﷺ « وكان أشدَّ مالقيت منهم يومُ العقبة » يعني أن إصابته على يد أعدائه يوم الطائف أشد من إصابته يوم أحد .

---

(١) هو قرن المنازل ميقات أهل نجد (المواهب اللدنيه ١/ ٢٩٩) ويسمى الآن « السيل الكبير » .

(٢) صحيح البخاري رقم ٣٢٣١ ، كتاب بدء الخلق (٦/ ٣١٢) .

وإننا إذا نظرنا إلى الموضوع من ناحية الإصابة الجسمية فإن إصابته في أحد أبلغ ، ولكننا إذا نظرنا من الناحية النفسية فإن إصابته يوم الطائف أبلغ وأشد لأن فيها إرهاقاً كبيراً لنفسه ومعاناةً فكرية شديدة جعلته يستغرق في التفكير من الطائف إلى السيل الكبير كما جاء في الرواية ، ولاشك أن المعاناة النفسية أشدُّ وأقسى من الإصابة الجسمية .

وقوله ﷺ « فانطلقت وأنا مهموم فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب » يدل على مبلغ الهمِّ الذي أخذ بفكر النبي ﷺ وهو نازل من الطائف ، وإذا نظرنا إلى المسافة بين الطائف وبين قرن الثعالب نجد أنها مسافة طويلة نسبيًا خاصة وأن النبي ﷺ كان يمشي على قدميه كما جاء في رواية الطبراني (١) .

فبأي شيء كان يفكر رسول الله ﷺ ؟ وعلام يدل هذا الاستغراق الطويل في التفكير ؟ .

لعل رسول الله ﷺ كان يفكر في أمر الدعوة إلى هذا الدين .

كيف مر عليه عشر سنوات ولم يستطع نشر الإسلام في مكة بالحجم الذي يتمناه ، ولم يستطع نقل الإسلام إلى القبائل الأخرى رغم ما حاول من عرض هذا الدين في المواسم ! .

وكيف كانت مواجهة أهل الطائف له بهذا الأسلوب من الجفاء !

---

(١) انظر إلى مجمع الزوائد ٦/ ٣٥ .

وكيف سيدخل مكة وقد خرج منها وهي تغلي حقداً عليه وتربصاً به ! فهو بين عدوين : عدوّ قد خلفه وراء ظهره قد أساء معاملته ولم يسمح له بالدعوة في بلده ، وعدو مقبل عليه ينتظره ليوقع به الأذى ، ولقد عبر عن ذلك بقوله في دعائه المشهور « إلى من تكلني ؟ إلى بعيد يتجهّمني أم إلى قريب ملّكته أمري » .

هذا التفكير المتواصل يدل على أن النبي ﷺ يعيش قضيته بكل مشاعره وأحاسيسه ، والذي يعيش قضيته بهذه القوة من الحماس والاهتمام لابد أن يصل إلى النجاح بتوفيق الله تعالى ، وهو إن أخفق مرات فسينجح مرات أخرى .

ولذلك نجد أن النبي ﷺ نجح بتسديد من الله تعالى في اجتذاب أفضل العناصر البشرية في مكة المكرمة .

وإذا كان لم ينجح هذه المرة مع أهل الطائف فقد نجح بعدها في موسم ذلك العام في اجتذاب نفر من الخزرج اعتنقوا الإسلام لما عرضه عليهم ، ثم كانوا سببا في انتشار الإسلام في المدينة كما سيأتي .

هذا وإن للمسلمين أسوةً حسنة برسول الله ﷺ في أن يجعلوا الإسلام هو قضيتهم الكبرى في الحياة ، يطبقونه كما جاء من عند الله تعالى ، ويدعون إليه باهتمام وحماس ، ويدافعون عنه بقوة وحكمة ، ويجاهدون في سبيله بجد وإخلاص .

ولقد كان رسول الله ﷺ رحيما بقومه إذ عرض عليه ملك الجبال أن يُطْبق عليهم الأخشبين وهما جبلا مكة أبو قبيس وقعيقعان فلم

يستجب لذلك بالرغم من المعاملة القاسية التي عاملوه بها ، بل رجا الله تعالى أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله جل وعلا ولا يشرك به شيئاً ، وقد استجاب دعاءه فأسلم قليل منهم قبل فتح مكة وأسلم بقيتهم بعد الفتح .

كما كان رسول الله ﷺ عظيم الأمل في هداية قومه وإن قَدَّر الله تعالى أن تحقيقة بعيدُ الأجل ، فهو قد رجا أن يُخرج الله من أصلابهم من يعبد الله تعالى إن كان في قدر الله تعالى أن أولئك لن يدخلوا في الإسلام .

وان هذا الأفق البعيد في الأمل يدلنا على مقدار اهتمام النبي ﷺ بدعوته حتى أصبح الأمل في هداية الناس يفوق في إحساسه الشعور بالرغبة في الانتقام من اعدائه واغتنام ذلك العرض الكبير للتشفي من قومه الذين أنزلوا به وبأتباعه صنوف الأذى وأحاطوا دعوته بالأغلال والقيود .

هذا وقد ذكر الأموي في مغازيه أن رسول الله ﷺ بعث « أريقطَ » إلى الأخنس بن شريق فطلب منه أن يجيره بمكة فقال : إن حليف قريش لايجير على صميمها .

ثم بعثه إلى سهيل بن عمرو ليجيره فقال : إن بني عامر بن لؤي لاتجير علي بني كعب بن لؤي .

فبعثه إلى المطعم بن عدي ليجيره فقال : نعم قل له فليأت ، فذهب

إليه رسول الله ﷺ فبات عنده تلك الليلة ، فلما أصبح خرج معه هو وبنوه ستة - أو سبعة - مُتقَلّدي السيوف جميعاً ، فدخلوا المسجد ، وقال لرسول الله ﷺ : طف ، واحتبوا بحمائل سيوفهم في المطاف .

فأقبل أبو سفيان إلى مطعم فقال : أمجير أو تابع ؟ قال : لا بل مجير ، قال : إذاً لاتُخْفَر ، فجلس معه حتى قضى رسول الله ﷺ طوافه ، فلما انصرف انصرفوا معه ، وذهب أبو سفيان إلى مجلسه .

ثم ذكر أبياتًا لحسان بن ثابت رضي الله عنه في مدح مطعم بن عدي لهذا الموقف حيث قال :

فلو كان مجدٌ مُخْلد اليومَ واحدا ... من الناس نَجَّى مجدُه اليوم مطعما
أجرتَ رسول الله منهم فأصبحوا ... عبادك ما لبَّى مُحلٌّ وأحرَما
فلو سُئلتْ عنه معَدٌّ بأسرها ... وقحطان أو باقي بقية جرهما
لقالوا هو المُوفي بخُفْرة جاره ... وذمته يوما إذا ما تجشّما
وما تطلع الشمس المنيرة فوقهم ... على مثله فيهم أعزّ وأكرما
إباءٌ إذا يأبى وألينُ شيمة ... وأنومُ عن جار إذا الليل أظلما

ذكره الحافظ ابن كثير (١).

وذكر الحافظ ابن حجر أن الفاكهي أورد هذه القصة بإسناد حسن مرسل (٢).

(١) البداية والنهاية ٣/ ١٣٥ .

(٢) فتح الباري ٧/ ٣٢٤ .

وأخرج الإمام البخاري من حديث الزهري عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه « أن النبي ﷺ قال في أسارى بدر : لو كان المطعم بن عدي حيا ثم كلمني في هؤلاء النَّتْنَى لتركتهم له » (١) .

يعني لتركهم له بغير فداء مكافأة له على ذلك الموقف النبيل .

وهكذا رأينا رسول الله ﷺ - بأبي هو وأمي - يدخل مكة في جوار رجل من أشرافها وهو القادر على أن يسأل الله تعالى أن يحميه بملائكته أو بأي أمر آخر خارق للعادة .

لقد عرض عليه في هذه الرحلة ملك الجبال ماهو أكبر من ذلك حيث عرض عليه أن يُطبق على أهل مكة جبليها ، ولكن رسول الله ﷺ أبى رجاء أن يُخرج الله تعالى من أصلابهم من يعبد الله جل وعلا .

ولقد حماه الله سبحانه قبل ذلك بملائكته ولكن بدون طلب منه ، ونراه يدخل مكة كما يدخل البشر العاديون فيحتاط لنفسه بطلب الجوار .

إنه ﷺ قدوة عليا لأمته ، وإذا كان الله تعالى قد منَّ عليه بالعصمة والحماية فليس ذلك مما يتحقق لأفراد أمته ، وهو قدوتهم في تطبيق شريعة الله تعالى ، فهو لذلك يقوم بالتصرفات المطلوبة من أي مسلم عاديٍّ حيث يعمل بالأسباب الممكنة للوصول للنتائج المطلوبة ، ثم يَدَع مافوق قدرته وطاقته لله تعالى .

(١) صحيح البخاري رقم ٤٠٢٤ ، المغازي (فتح الباري ٧/ ٣٢٣) .

والنتنى جمع نَتِن أي كريه الرائحة ، والمقصود الرائحة المعنوية لاتصافهم بالكفر .

وكونه ﷺ دخل في جوار المطعم بن عدي لايتنافى مع التوكل على الله تعالى ، بل إن ذلك من الأسباب التي كان يفعلها تلافياً لوقوع حرب بينه وبين الكفار ، والله سبحانه لم يأذن له بالقتال في ذلك الوقت .

هذا وكون النبي ﷺ أقرَّ حسان بن ثابت رضي الله عنه في ثنائه البالغ على المطعم بن عدي ، وكونه ﷺ أثنى عليه أيضاً إلى حدِّ أنه أبدى استعداده لأن يتنازل عن الأسرى لو كان المطعم حياً وكلمه فيهم . . دليل واضح على أن من شريعة الإسلام الاعتراف بفضل أهل الفضل والثناء عليهم بمالَهم من معروف وإن كانوا غير مسلمين .

وإن هذا الموقف الكريم من رسول الله ﷺ يعتبر أكبر مشجع لعقلاء الكفار على مناصرة المسلمين وحمايتهم والدفاع عنهم .

وكم يحتاج المسلمون إلى مثل هؤلاء ليقفوا في صفهم في مثل العصر الحاضر الذي تكالب فيه الأعداء على المسلمين الصادقين في إسلامهم ، وحاربوهم بالمواجهة أحياناً ، وبالمكر في الخفاء أحايين كثيرة ، بينما قل وجود المناصرين لهؤلاء الصادقين حتى من إخوانهم المسلمين .

هذا ومنْ طلب النبي ﷺ لهذه الحماية والاستفادة منها في حماية الدعوة وتثبيتها نستفيد جواز قبول حماية المعتدلين من الكفار بشرط وجود التمثيل الكامل لدعوة الإسلام من غير نقص ولا انحراف .

هذا في حال ضعف المسلمين وعدم وجود قوة لهم يستغنون بها عن حماية الكفار أما في حال وجود هذه القوة فيجب على المسلمين أن

يقوموا بحماية الدعاة إلى الله تعالى حتى يتمكنوا من القيام بمهمتهم في الدعوة .

وإذا نكل المسلمون عن القيام بحماية الدعاة بالدرجة الكافية أو ضعفوا عن ذلك فإنه يجوز للدعاة أن يبحثوا عن مصادر أخرى للحماية وإن كانت من الكفار المعتدلين في نظرتهم إلى الإسلام والذين يقدِّرون عادةً قيام العدل وينصبون أنفسهم للانتصار للمظلومين .

* * *

٤ - مثل أعلى للشجاعة في قول الحق

(خبر الإسراء برسول الله ﷺ إلى بيت المقدس)

حينما يكون القلب معمورا بالإيمان بالله تعالى واليوم الآخر ، وممتلأ يقينا بالحقائق الكبرى المنبثقة عن ذلك فإن هذا الإيمان لايبقى حبيسا في نفس صاحبه ، بل لابد أن يظهر أمام الناس وإن قاموا بمجابهته وإنكاره ، لأن الإيمان القوي يولّد الشجاعة العالية في قول الحق والدفاع عنه ، وكلما كان الإيمان أقوى كانت الشجاعة أبلغ وأوسع مجالاً .

وإن أصدق مثال على ذلك ما قام به رسول الله ﷺ صبيحة ليلة الإسراء من إعلان الإسراء به من المسجد الحرام إلى بيت المقدس .

ومن أكمل الروايات التي رويت في حادث الإسراء ما أخرجه الحافظ أبو يعلى بإسناده إلى أم هانيء رضي الله عنها قالت : دخل عليَّ رسول الله ﷺ بغلس ، فجلس ، وأنا على فراشي ، فقال : شَعُرْتِ أني بتُّ الليلة في المسجد الحرام [1] ، فأتاني جبريل ، فذهب بي إلى باب المسجد ، فإذا بدابة أبيض ، فوق الحمار ، ودون البغل ، مضطرب الأذنين ، فركبت وكان يضع حافره مد بصره ، إذا أخذني في هبوط طالت يداه وقصرت رجلاه ، وإذا أخذني في صعود طالت رجلاه وقصرت يداه ، وجبريل لايفوتني ، حتى انتهينا إلى بيت المقدس ، فأوثقته بالحلقة التي كانت الانبياء توثق بها ، فَنُشر لي رهط من الأنبياء ، منهم إبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، فصليت بهم ، وكلمتهم .

---

(١) يعني هل علمتِ ؟ أراد إخبارها بذلك .

وأُتيتُ بإناءين أحمر وأبيض ، فشربت الأبيض ، فقال لي جبريل : شربت اللبن ، وتركت الخمر ، لو شربت الخمر لارتدت أمتك . ثم ركبته ، فأتيت المسجد الحرام وصليت به الغداة .

قالت : فعلقتُ بردائه : أنشدك الله يا ابن عمي ! أن تحدّث بهذا قريشاً ، فيكذبك من صدّقك . فضرب بيده على ردائه ، فانتزعه من يدي ، فارتفع عن بطنه فنظرت إلى عُكَنه (١) ، فوق إزاره كأنها طيُّ القراطيس ، فإذا نور ساطعٌ عند فؤاده ، كاد يخطف بصري ، فخررت ساجدةً ، فلما رفعت رأسي إذا هو قد خرج ، فقلت لجاريتي نبعة : ويحك اتبعيه ، فانظري ماذا يقول ، وماذا يقال له .

فلما رجعت نبعة ، أخبرتني أن رسول الله ﷺ انتهى إلى نفر من قريش ، في الحطيم ، فيهم المطعم بن عدي ، وعمرو بن هشام والوليد بن المغيرة ، فقال : « إني صليت الليلة العشاء في هذا المسجد ، وصليت به الغداة ، وأتيت فيما دون ذلك بيت المقدس ، فَنُشر لي رهط من الأنبياء منهم إبراهيم ، وموسى وعيسى ، وصليت بهم وكلمتهم » .

فقال عمرو بن هشام كالمستهزيء به : صفهم لي ، فقال : أما عيسى ، ففوق الربعة ، ودون الطول ، عريض الصدر ، ظاهر الدم ، جعد ، أشعر تعلوه صهبة (٢) ، كأنه عروة بن مسعود الثقفي . وأما

---

(١) جمع عُكْنة وهي ما انطوى وتثنّى من لحم البطن .

(٢) أي بياض بحمره .

موسى ، فضخم آدم ، طوالٌ ، كأنه من رجال شنوءة متراكب الأسنان ، مقلص الشفة ، خارج اللثة ، عابس . وأما إبراهيم فو الله إنه لأشبه الناس بي ، خلْقًا ، وخُلقًا .

قال : فضجوا ، وأعظموا ذلك ، فقال المطعم بن عدي : كل أمرك قبل اليوم كان أمَمًا (١) غير قولك اليوم ، أما أنا ، فأشهد أنك كاذب ، نحن نضرب أكباد الإبل إلى بيت المقدس ، نصعد شهراً ، ونحدر شهراً ، تزعم أنك أتيته في ليلة ، واللات والعُزى لاأصدقك ، وما كان الذي تقول قط .

وكان للمطعم بن عدي حوض على زمزم أعطاه إياه عبد المطلب فهدمه وأقسم باللات والعزى لايسقي قطرة أبداً ، فقال أبو بكر : يامطعم ، بئس ما قلت لابن أخيك جبهته وكذبته ، أنا أشهد أنه صادق .

فقالوا : يامحمد ! فصف لنا بيت المقدس ، قال : « دخلت ليلاً وخرجت منه ليلاً » فأتاه جبريل بصورته في جناحه ، فجعل يقول : «باب منه كذا ، في موضع كذا ، وباب منه كذا ، في موضع كذا » ، وأبو بكر يقول : صدقت ، قالت نبعة : فسمعت رسول الله ﷺ يقول يومئذ : « يا أبا بكر ! إني قد سميتك الصديق » .

قالوا : يامطعم ! دعنا نسأله عما هو أغنى لنا من بيت المقدس ، يامحمد ! أخبرنا عن عيرنا ، فقال : « أتيت على عير بني فلان

---

(١) أي قريبا .

بالرّوحاء، قد أضلوا ناقةً لهم، فانطلقوا في طلبها، فانتهيت إلى رحالهم، ليس بها منهم أحد، وإذا قدح ماء فشربت منه، فأسألوهم عن ذلك» - قالوا: هذه والإله آية - «ثم انتهيت إلى عير بني فلان، فنفرت مني الإبلُ، وبرك منها جمل أحمر، عليه جُوالق[1] مخطط ببياض، لا أدري أكسر البعير، أم لا، فاسألوهم عن ذلك» - قالوا: هذه والإله آية - «ثم انتهيت إلى عير بني فلان في التنعيم، يقدُمها جمل أورق[2]، وها هي ذه تطلع عليكم من الثنية[3]» فقال الوليد بن المغيرة: ساحر.

فانطلقوا فنظروا، فوجدوا الأمر كما قال: فرموه بالسحر، وقالوا: صدق الوليد بن المغيرة فيما قال[4].

وأخرجه الحافظ ابن سيد الناس من طريق الحافظ أبي يعلى وذكر مثله[5].

وأخرجه بنحوه الإمام ابن إسحاق بلاغا عن أم هانيء رضي الله عنها[6].

---

(١) هو العِدْل الذي يوضع فيه المتاع.

(٢) أي لونه أبيض وفيه سواء.

(٣) أي الطريق الجبلي.

(٤) المطالب العالية للحافظ ابن حجر ٤/ ٢٠١ - ٢٠٤.

(٥) عيون الأثر ١/ ١٤٠ - ١٤٢.

(٦) سيرة ابن هشام ٢/ ١١.

ورواه الإمامان أحمد ومسلم مختصرا من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه [١] .

وذكره الحافظ الهيثمي مختصرا من حديث ابن عباس رضي الله عنهما وقال : رواه أحمد والبزار والطبراني في الكبير والأوسط ورجال أحمد رجال الصحيح [٢] .

وأخرج الحاكم من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : لما أسرى بالنبي صلى الله عليه وسلم إلى المسجد الأقصى أصبح يتحدث الناس بذلك فارتد ناس ممن كانوا آمنوا به وصدقوه ، وسعوا بذلك إلى أبي بكر رضي الله عنه فقالوا : هل لك إلى صاحبك يزعم أنه أسري به الليلة إلى بيت المقدس .

قال : أو قال ذلك ؟ قالوا : نعم ، قال : لئن كان قال ذلك لقد صدق ، قالوا : أو تصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح ؟

قال : نعم إني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك ، أصدقه بخبر السماء في غدوة أو روحة ، فلذلك سُمِّي أبو بكر الصديق .

---

(١) الفتح الرباني ٢٠/ ٢٥١ ، صحيح مسلم رقم ١٦٢ .
كتاب الإيمان ، باب الإسراء (ص ١٤٥) .

(٢) مجمع الزوائد ١/ ٦٤ .

قال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه وأقره الذهبي[1] .

وأخرج الإمام البخاري من حديث أبي سلمة بن عبد الرحمن قال : سمعت جابر بن عبد الله رضي الله عنهما : أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « لما كذّبني قريش قمت في الحجْر فجلا الله لي بيت المقدس ، فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه »[2] .

ولم يَرد في رواية أم هانيء السابقة ذكر المعراج ولكنه ورد في روايات أخرى أخرجها الإمام البخاري وغيره[3] ، ولم نذكرها لطولها ولأن المقصود هو الإشادة بالمواقف المترتبة على الإسراء ، لأن النبي ﷺ أعلنه أمام الكفار متحديا إنكارهم وجحودهم لما يخبرهم به من خبر السماء ، وطوى رسول الله ﷺ خبر المعراج عن المشركين لمّا أخبرهم بخبر الإسراء لأنهم باعتبار أنهم لم يكونوا يصدقونه في خبر السماء مع وضوح الفرق الشاسع بين كلام الله تعالى المنزل وكلامهم فكيف يصدقونه في خبر العروج إلى السماء ، وليس هناك دلائل مشاهدة تلزمهم بالتصديق كما هو الحال في الإسراء .

أما الإسراء إلى بيت المقدس فقد أظهر الله تعالى علامات مشاهدة تلزم الكفار بالتصديق وهذه العلامات هي :

---

(١) المستدرك ٣/ ٦٢ .

(٢) صحيح البخاري كتاب مناقب الأنصار حديث رقم ٣٨٨٦ (الفتح ٧/ ١٩٦) .

(٣) انظر صحيح البخاري رقم ٣٨٨٧ ومسلم رقم ٢٥٩ .

أولاً : وصف النبي ﷺ بيت المقدس ، وبعضهم قد سافر إلى الشام ورأى المسجد الأقصى ، وقد سبق في رواية البخاري أن الله تعالى كشف لنبيه ﷺ المسجد الأقصى حتى وصفه للمشركين ، وقد أقروا بصدق الوصف ومطابقته للواقع الذي يعرفونه .

ثانياً : إخباره عن العير التي بالروحاء ، والبعير الذي أضلوه ، وما قام به من شرب الماء الذي في القدح .

ثالثاً : إخباره عن العير الثانية التي نفرت فيها الإبل ووصفه الدقيق لأحد جمالهم .

رابعاً : إخباره عن العير الثالثة التي بالأبواء ، ووصفه الجمل الذي يقدمها ، وإخباره بأنها تطلع ذلك الوقت من ثنية التنعيم .

وقد جاء في رواية ابن عباس والرواية التي أخرجها ابن إسحاق أن المشركين ذهبوا إلى ثنية التنعيم فوجدوا العير كما وصفها الرسول ﷺ .

وجاء في رواية ابن إسحاق أن المشركين سألوا أصحاب العير الأخرى الذين أضلوا بعيرهم وفقدوا ماءهم ، فكان جوابهم كما أخبر النبي ﷺ .

فكانت هذه الأدلة الظاهرة مفحمة لهم ولا يستطيعون معها أن يتهموه بالكذب .

وبعد عرض حادث الإسراء تبين لنا مثل فريد من شجاعة النبي ﷺ العالية فقد واجه المشركين بأمر تنكره عقولهم ولاتدركه في أول الأمر

تصوراتهم ، ولم يمنعه من الجهر به الخوف من مواجهتهم وتلقي نكيرهم واستهزائهم ، فضرب بذلك لأمته أروع الأمثلة في الجهر بالحق أمام أهل الباطل وإن تحزبوا ضد الحق وجندوا لحربه كل ما في وسعهم .

لقد قام سريعاً حال عودته من هذه الرحلة العلوية المباركة وأخبر بها أعداءه قبل أكثر المؤمنين به ، ولم يستأن بالأمر حتى يخبر المؤمنين ويتقوى بموقفهم ، بل جابه الكفار بهذا الخبر وهو يعلم ما سيترتب عليه من الإنكار والسخرية ، وذلك أن من مرَّ بهذه الرحلة العظمى سيرى الأرض كلها بما فيها من مخلوقات نقطةً صغيرة في ذلك الكون الفسيح .

ثم ما مقام كفار مكة في هذه النقطة ؟ إنهم لايمثّلون إلا جزءًا يسيرا جداً من هذا الكون ، فما الذي سيفعلونه تجاه من اصطفاه الله تعالى من خلقه وخصه بتلك الرحلة العُلوية الميمونة وجمعه بالملائكة والأنبياء عليهم السلام وأراه السموات السبع وسدرة المنتهى والبيت المعمور وكلمه جل وعلا ؟ .

لقد عاد النبي ﷺ بقوة عظمى لايقاومها بأس الكفار الضعيف ، فكانت المواجهة والمجابهة ثم التفوق والانتصار للحق على الباطل .

ومن هنا وبصورة مصغرة جدا نتصور قوة المؤمن الحق الذي يمتليء قلبه بالإيمان ، وتُشحَن مشاعره بتصور عظمة مخلوقات الله جل وعلا من السماوات والأرض ومابينهن ، وما أخبر الله تعالى به عن يوم القيامة

ومافيه من أهوال ونعيم أو جحيم ، وما بين الدنيا والآخرة من الحياة البرزخية ، ثم مقارنة مقام المرء في هذه الحياة الدنيا بالنسبة لما بعدها من حياة الخلود ومابين ذلك .

لاشك أن من عُمر قلبه بهذه المشاعر سيحتقر كل ما في الدنيا من مظاهر العظمة وأسباب القوة التي ينخدع بها قصار النظر ، الخاويةُ قلوبهم من نفحات الإيمان الحية التي تهز المشاعر وتتحكم في السلوك .

كما يتبين لنا بجلاء في هذا الخبر إيمان أبي بكر رضي الله عنه الراسخ ، فقد بلغه هذا الخبر من الكفار ، حيث سارع النبي ﷺ بإخبارهم ، فلما أخبروه قال لهم بلسان الواثق الموقن : لئن كان قال ذلك لقد صدق ، ثم قال : إني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك أصدقه بخبر السماء في غدوة أو روحة .

وبهذا استحق لقب الصديق رضي الله عنه .

وهذا منتهى الفقه واليقين حيث وازن بين هذا الخبر ونزول الوحي من السماء ، فبين لهم أنه إذا كان غريبا على الإنسان العادي فإنه في غاية الإمكان بالنسبة للنبي ﷺ .

* * *

٥ - نماذج من الانطلاق بالدعوة خارج مكة

بدأ رسول الله ﷺ بدعوة عشيرته الأقربين فاستجاب منهم من استجاب ، وسالمه بعضهم وعاداه آخرون .

ثم دعا قومه فاستجاب بعضهم وعاداه أكثر قومه ، وخاصة كبراؤهم ، وجرى منهم له ولأتباعه ماسبق بيان بعضه من الأذى والعداء .

ثم قام رسول الله ﷺ بدعوة قبائل العرب ، وقد مكنه من ذلك كون مكة المكرمة مقصد العرب في المواسم ، فكان ﷺ يدور على القبائل يدعوهم إلى الإسلام .

فمن ذلك ما أخرجه الإمام أحمد رحمه الله من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : كان رسول الله ﷺ يعرض نفسه على الناس بالموقف [١] ، فيقول : هل من رجل يحملني إلى قومه فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ كلام ربي عز وجل ، فأتاه رجل من همدان ، فقال : ممن أنت ؟ فقال الرجل من همدان ، قال : فهل عند قومك من منعة[٢] ؟ قال : نعم ، ثم إن الرجل خشي أن يخفره قومه فأتى رسول الله ﷺ فقال : آتيهم فأخبرهم ثم آتيك من عام قابل ، قال : نعم ، فانطلق وجاء وفد الأنصار في رجب [٣] .

---

(١) يعني موقف الحجاج في عرفة .

(٢) يعني قوة يمنعون بها من لجأ إليهم .

(٣) الفتح الرباني ٢٠/ ٢٦٧ ، وذكره الهيثمي وقال : رواه أحمد ورجاله ثقات - مجمع الزوائد ٦/ ٣٥ .

ومن أمثلة ذلك ما أخرجه الإمام أحمد من حديث أبي الزناد عن ربيعة بين عباد الدؤلي قال : رأيت رسول الله ﷺ بَصَرَ عيني بسوق ذي المجاز يقول : يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا ، ويدخل في فجاجها والناس مُتقصِّفون عليه فما رأيت أحدًا يقول شيئاً ، وهو لايسكت يقول : أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا ، إلا أن وراءه رجلاً أحول وضيء الوجه ذا غديرتين يقول : إنه صابيء كاذب ، فقلت: من هذا ؟ قالوا : محمد بن عبد الله وهو يذكر النبوة ، قلت : من هذا الذي يكذبه ؟ قالوا : عمه أبو لهب .

قلت : إنك كنت يومئذ صغيراً ، قال : لا والله إني يومئذ لأعقل(١) .

وأخرج الحاكم بإسناده عن محمد بن المنكدر سمع ربيعة بن عباد الدؤلي يقول : رأيت رسول الله ﷺ بمنى في منازلهم قبل أن يهاجر إلى المدينة يقول : يا أيها الناس إن الله يأمركم أن تعبدوه ولاتشركوا به شيئاً قال : ووراءه رجل يقول : يا أيها الناس إن هذا يأمركم أن تتركوا دين آبائكم ، فسألت عن هذا الرجل ، قيل : أبو لهب .

---

(١) مسند أحمد ٣/ ٤٩٢ ، وقوله : « قلت » يعني قال ابن أبي الزناد عبد الله بن ذكوان لربيعة هذا الكلام ، وذكره الهيثمي من رواية الإمام أحمد وابنه ووثق رجال إحدى الروايات التي رواها عبد الله بن الإمام أحمد - مجمع الزوائد ٦/ ٢٢ - .

واخرجه الإمام أبو بكر بن أبي شيبة ، وصححه البوصيري - المطالب العالية ٤/ ١٩١ رقم ٤٢٧٧ - .

قال الحاكم : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ورواته عن آخرهم ثقات أثبات وأقره الذهبي (١) .

وأخرجه ابن سيد الناس (٢) .

وأخرج الإمام أحمد وابن حبان والحاكم واللفظ له من حديث جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ لبث عشر سنين يتبع الناس في منازلهم في الموسم ومجنة وعكاظ ومنازلهم من منى : من يؤويني ، من ينصرني حتى أبلغ رسالات ربي فله الجنة ، فلا يجد أحداً ينصره ولا يؤويه ، حتى إن الرجل ليرحل من مضر أو من اليمن إلى ذي رحمه فيأتيه قومه فيقولون له : احذر غلام قريش لا يفتنك ويمشي بين رحالهم يدعوهم إلى الله عز وجل ، يشيرون إليه بالأصابع (٣) .

وأخرج الطبراني من حديث الحارث بن الحارث الغامدي قال : قلت لأبي ماهذه الجماعة ؟ قال : هؤلاء القوم قد اجتمعوا على صابىء لهم ، قال : فنزلنا فإذا رسول الله ﷺ يدعو الناس إلى توحيد الله عز وجل والإيمان به ، وهم يردون عليه ويؤذونه ، حتى انتصف النهار وانصدع الناس عنه وأقبلت امرأة قد بدا نحرها تحمل قدحاً ومنديلاً ، فتناوله منها وشرب وتوضأ ثم رفع رأسه وقال : يابنية خَمِّري عليك

---

(١) المستدرك ١/ ١٥ .

(٢) عيون الأثر ١/ ١٠٠ .

(٣) مسند أحمد ٣/ ٣٢٢ ، موارد الظمآن / ٤٠٨ رقم ١٦٨٦ ، المستدرك ٢/ ٦٢٤ .

نحرك ولاتخافي على أبيك ، قلنا : من هذه ؟ قالوا : زينب بنته (١) .

ذكره الهيثمي وقال : ورجاله ثقات (٢) .

وأخرج الحافظ أبو بكر بن أبي شيبة من حديث طارق بن عبد الله المحاربي قال : رأيت رسول الله ﷺ مرتين : مرة بسوق ذي المجاز ، في بياعة (٣) لي أبيعها ، ومرة وعليه جبة له حمراء ، وهو ينادي بأعلى صوته : أيها الناس ، قولوا لا إله إلا الله تفلحوا ، ورجل يتبعه بالحجارة ، وقد أدمى كعبه وعرقوبه ، ويقول : يا أيها الناس ، لاتطيعوه، فإنه كذاب ، قلت : من هذا ؟ قالوا غلام من بني عبد المطلب قلت : فمن هذا الذي يتبعه يرميه ؟ قالوا عمه عبد العُزى ، وهو أبو لهب، قال : فلما ظهر الإسلام قِبَلَ المدينة ، أقبلنا في ركب من الرَّبَذَة حتى نزلنا قريباً من المدينة . . فذكر الحديث (٤) .

وروى أبو نعيم عن عبد الله بن وابصة العبسي عن أبيه عن جده : جاءنا رسول الله ﷺ بمنى فدعانا فاستجبنا له ، وكان معنا ميسرة بن مسروق العبسي فقال لنا : أحلفُ بالله لو صدَّقنا هذا الرجل وحملناه

---

(١) معجم الطبراني الكبير ٣/ ٣٠٤ رقم ٣٣٧٣ .

(٢) مجمع الزوائد ٦/ ٢١ .

(٣) أي سلعة يبيعها .

(٤) المطالب العاليه بزوائد المسانيد الثمانية للحافظ ابن حجر ٤/ ١٩١ رقم ٤٢٧٧ .

وقال المحقق الشيخ حبيب الرحمن الأعظمي : قال البوصيري : رواه ابن أبي شيبة بسند صحيح وأبو يعلى وابن حبان والحاكم ، ورواه النسائي وابن ماجه مختصرا .

حتى نحلَّ به وسط رحالنا لكان الرأي ، فأحلف بالله ليظهرنَّ أمره حتى يبلغ كل مبلغ فأبى القوم وانصرفوا .

فقال لهم ميسرة : ميلوا بنا إلى فَدَك فإن بها يهود نسألهم عن هذا الرجل ، فمالوا إلى يهود فأخرجوا سِفْرَهم (١) فوضعوه ثم درسوا ذكر رسول الله ﷺ النبي الأمي العربي يركب الحمار ويجتزئ بالكِسْرة ، وليس بالطويل ولا بالقصير ولا بالجعد ولا بالسبط في عينيه حمرة مشرب اللون ، قالوا : فإن كان هو الذي دعاكم فأجيبوه وادخلوا في دينه فإنا نحسده ولانتبعه ولنا منه في مواطن بلاء عظيم ، ولا يبقى أحد من العرب إلا اتبعه أو قتله ، فقال ميسرة : ياقوم إن هذا الأمر بيِّن فَأَسْلَم ميسرة (٢) .

وذكر الإمام الذهبي عن شعبة عن الأشعث بن سليم عن رجل من كنانة قال : رأيت رسول الله ﷺ بسوق ذي المجاز وهو يقول : « قولوا لا إله إلا الله تفلحوا » وإذا خلفه رجل يسفي عليه التراب فإذا هو أبو جهل ، ويقول : لايغرنكم هذا عن دينكم فإنما يريد أن تتركوا عبادة اللات والعزى .

قال الذهبي : إسناده قوي (٣) .

---

(١) بكسر السين وسكون الفاء أي كتاب دينهم .

(٢) سبل الهدى والرشاد ٢/ ٤٥٦ .

(٣) تاريخ الإسلام / السيرة / ١٥١ .

هذه نماذج من أمثلة كثيرة تدل على اهتمام النبي ﷺ البالغ بدعوته ، حيث لم يجلس في بيته أو في المسجد الحرام فقط ينتظر الناس أن يأتوا إليه ،بل خرج إلى القبائل في منازلهم ، وغشيهم في مجالسهم ونواديهم يدعوهم إلى الله تعالى .

وفي هذه الأخبار مثل من التسابق القائم بين دعاة الحق ودعاة الباطل ، فرسول الله ﷺ الذي هو إمام الدعاة وهاديهم يتنقل بين أحياء العرب يدعوهم إلى الإسلام ، ولايمنعه صدودهم وجفاؤهم ومنطق بعضهم الساخر من أن يواصل دعوته إياهم كل عام .

وبينما نجد رسول الله ﷺ يشيد بهدفه الأعلى في هذه الدعوة فيركز على توحيد الله تعالى وإفراده بالعبادة نجد المشركين يركزون على الدعوة إلى ألهتهم التي يقدسونها ويشفقون على رموز باطلهم ، فالأصنام عندهم هي معالم دينهم فهم يدافعون عنها ولو ماتوا في سبيل ذلك ، لأنهم يعتبرون وجودهم من وجود هذه المعالم ، وسيادتهم منوطة باستمرار هيمنتها على النفوس .

وهكذا أغلب دعاة الباطل يتفَانَونَ في الدفاع عن باطلهم ، وقد تكون معالم الباطل أصناماً من الأشجار والأحجار ، وقد تكون أوثاناً من البشر الذين طغوا في البلاد إما بدافع من قوتهم المادية وتمكنهم في الأرض ، أو بدافع من بروزهم في المجال الفكري ، فيجتمع إليهم كل من قصر همه وطموحه على منافع الحياة الدنيا وغفل عن نعيم الآخرة

وأهوالها ، فقد ينخدع المسئول بمالَه من سلطة وهيمنة ويرى أنه أعلى ممن هم تحت إدارته فيطغى ويتجبر ، وقد يوصله طغيانه إلى رد شريعة الله تعالى واختيار القوانين البشرية التي تلائم هواه .

وقد ينخدع المفكر بفكره إذا لم يحجزه إيمان صادق أو عقل راسخ فيتطاول على خالقه وخالق كل شيء جل جلاله ،أو على من هم فوق البشر العاديين وهم الأنبياء عليهم السلام ، أو على ما دعوا إليه من الهدى ، فيجتمع على الإعجاب بهؤلاء المفكرين صرعى الشبهات الذين يتخبطون ههنا وهناك بحثاً عن الحق ، والحق أقرب شيء إليهم ، ولكنهم يريدون أيَّ فكرة بشرية جديدة ليستغنوا بها عن الدين الإلهي العظيم الذي ورثوه فأصبح مألوفاً لديهم ، وأصبحوا به في نظرهم مغمورين ، لأنهم لم يكونوا فيه من الرؤوس ولا من البارزين فهم يضربون في الأرض يبحثون عن كل فكرة تقاوم هذا الدين وإن كانوا ممن يجهل حقيقتها وأهدافها .

* * *

٦ - (منهج حكيم في الدعوة)

كان رسول الله ﷺ حليماً في معاملته ، حكيماً في دعوته فكان يحاول الدخول إلى قلوب الناس من الجوانب التي يرى أنها تؤثر عليهم، من غير أن يتفوه بباطل ولا أن يمارس سلوكاً منحرفاً .

وإن من أمثلة منهجه ﷺ الحكيم في دعوته ماذكره ابن إسحاق رحمه الله في سياق روايته عن دعوة النبي ﷺ من حديث محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن حصين : أن رسول الله ﷺ أتى قبيلة كلب في منازلهم - يعني في الحج والمواسم الأخرى - إلى بطن منهم يقال لهم بنو عبد الله فدعاهم إلى الله تعالى وعرض عليهم نفسه حتى إنه ليقول لهم : يابني عبد الله إن الله قد أحسن اسم أبيكم (١) .

وأخرجه الإمام الطبري من طريق ابن إسحاق به وذكر مثله (٢) .

ومن ذلك ما أخرجه البيهقي من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال : إن أول يوم عرفت رسول الله ﷺ أني كنت أمشي أنا وأبو جهل بن هشام في بعض أزقة مكة ، إذ لقينا رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ لأبي جهل ، يا أبا الحكم هلمَّ إلى الله عز وجل وإلى رسوله أدعوك إلى الله ، قال أبو جهل : يا محمد هل أنت مُنْتَه عن سب آلهتنا ؟ هل تريد إلا أن نشهد أن قد بلغت ؟ فنحن نشهد أن قد بلغت فو الله لو أني أعلم أن ما تقول حقاً ما اتبعتك .

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٣٨ .

(٢) تاريخ الطبري ٢/ ٣٤٩ .

فانصرف رسول الله ﷺ . قال : وأقبل عليّ فقال : فو الله إني لأعلم أن ما يقول حق ولكنّ بني قصي قالوا : فينا الحجابة فقلنا : نعم ، فقالوا : فينا الندوة ، فقلنا : نعم ، ثم قالوا : فينا اللواء ، فقلنا : نعم ، قالوا : فينا السقاية ، فقلنا : نعم ، ثم أطعموا وأطعمنا حتى إذا تحاكّت الركب قالوا منا نبي . والله لا أفعل (١) .

ففي هذين الخبرين مثل مما كان يتمتع به رسول الله ﷺ من حسن العرض والحكمة في الدعوة حيث يخاطب الناس بما يحبون ، ففي الخبر الأول أثنى على بني عبد الله ببيان أن الله تعالى قد أحسن اسم أبيهم ، وهذا أسلوب من أساليب التودد للدخول إلى قلوب الناس والتأثير عليهم .

وفي الخبر الثاني يخاطب أبا جهل بكنيته « يا أبا الحكم » والنداء بالكنية تكريم عند العرب ، وقد تناسى النبي ﷺ بذلك مواقفه السيئة في سبيل الدعوة .

وهذا درس مهمٌّ يستفيد منه الدعاة إلى الله تعالى في ضبط النفس ، ومحاولة التودد إلى الناس من أجل الإسلام وإن سبقت منهم مواقف مؤلمة .

ويشبه هذا السلوكَ العاليَ من رسول الله ﷺ في الدعوة إلى الله

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٢٠٧ ، وذكره الحافظان الذهبي وابن كثير وسكتا عنه . - تاريخ الإسلام / السيرة / ١٦١ ، سيرة ابن كثير ١/ ٤٠٦ - .

تعالى خبر إسلام خالد بن الوليد رضي الله عنه ، حيث كان ذلك بسبب ثناء النبي ﷺ كما سيأتي في خبر إسلامه .

وفي هذا الخبر شهادة للإسلام بأنه دين الحق صدرت من رجل من ألدِّ أعداء هذا الدين وهو أبو جهل ، ثم بيان للمانع الذي منعه من الدخول في الإسلام وهو التنافس على الشرف الوهمي الذي ورثه وقومُه في الجاهلية .

لقد ساء أبا جهل أن دوحة بني هاشم قد اخضرت وأينعت ثمراتها ، بينما ظلت دوحة بني مخزوم على جفافها وذبولها كسائر فروع قبيلة قريش فحسد بني هاشم على ذلك الشرف العظيم الذي ليس باستطاعة قومه أن يصلوا إليه ، ولو عقل وأدرك لعرف أن بإمكانه انقاذَ نفسه وقبيلته ، والرفعَ من شأنها بالإيمان برسول الله ﷺ واتِّباعه .

* * *

٧ - وضوح دعوة الحق في غبش الجاهلية

(موقفان لرسول الله ﷺ مع بني عامر ومع عمه أبي لهب)

لقد كان رسول الله ﷺ واضحاً في دعوته ، يسير على منهج الله تعالى ، لايتقدم عليه بشيء ، ولايقبل المساومة في دين الله تعالى وإن كان الثمن هو التقدم لنصرته وحماية دعوته .

وإن من أمثلة وضوحه في دعوته وتسليمه لأمر الله تعالى ما جاء في حواره مع بني عامر .

ذكر ابن إسحاق رحمه الله أن رسول الله ﷺ أتى بني عامر بن صعصعة ، فدعاهم إلى الله عز وجل وعرض عليهم نفسه ، فقال له رجل منهم يقال له « بَيْحرة بن فراس » : والله لو أني أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب ، ثم قال له : أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك ثم أظهرك الله على من خالفك أيكون لنا الأمر من بعدك ؟ قال : «الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء » فقال : أفَنُهدف نحورنا للعرب دونك فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا ؟ لاحاجة لنا بأمرك .

وذكر أن شيخاً لهم كبيراً لامَهُم بعدما رجعوا على رد هذه الدعوة، وقال : والذي نفس فلان بيده ماتَقَوَّلها إسماعيلي قط ، وإنها لحق فأين رأيكم كان عنكم؟(١) .

هذا وإن قول أولئك القوم حينما دعاهم النبي ﷺ : أيكون لنا الأمر

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٣٨ - ٣٩ ، تاريخ الطبري ٢/ ٣٥٠ ، البداية والنهاية ٣/ ١٣٩ .

من بعدك مشهد يبين لنا كيف كان أهل الجاهلية يفكرون حينما كانوا ينظرون إلى دنياهم ولايفقهون شيئاً عن ا لحياة الآخرة .

وهذه الروح الجاهلية التي يغلب عليها هذا التساؤل عند الإقدام على أي عمل : ماذا لنا في هذه الحياة ؟ هي صورة تتكرر مع الأسى والحسرة في واقع المسلمين ، فتجد بعضهم حينما يُعرض عليه أمر المشاركة في الدعوة إلى الله تعالى يتصور أولاً ما الذي سيستفيد من ذلك في دنياه ، وما هو الخطر الذي سيواجهه في هذه الحياة من الإقدام على الدعوة ، والشيطان في هذه الحال حريص على أن يضخم في عين المسلم مستقبله الدنيوي سواء في جلب الخير أواتقاء الشر ، وأن يقلل في عينه مستقبله الأخروي ، ويشغله عن التفكير فيه بما يزدحم على فكره من التصورات الدنيوية .

فَحَمَلَهُ هذا الشعور وأصحاب هذا الإتجاه يشبهون أهل الجاهلية الذين يقدِّمون لخطوهم أمرَ مستقبلهم الدنيوي وهم عن الآخرة غافلون .

وإذا كان أولئك لايؤمنون بالآخرة فإن عدم عملهم لها مترتب على هذا الاعتقاد الجاهلي ، ولكن كيف الحال بمن يعلمون أحوال الآخرة ويؤمنون بها ثم يعملون لدنياهم كثيراً ولايعملون لآخرتهم إلا قليلاً ؟

لاشك أن هؤلاء فيهم جاهلية في سلوكهم وإن كانوا مسلمين .

هذا وإن في رد النبي ﷺ على عرضهم ذلك بيانا لعظمة توحيده ،

وقوة استسلامه لله تعالى حيث فوض الأمر إليه وحده ، ولم يتقدم عليه بأمر يختص به جل وعلا .

كما أنه فيه بياناً لوضوح دعوته وصلابته في الثبات عليها رغم قلة أتباعه واحتياجه لتأليف قلوب العرب نحوه ، فإن احتياج الداعية إلى الأنصار مطلب مهم ، ولكن أهم منه أن يلزم الطريق المستقيم الذي شرعه الله تعالى وإن قل أنصاره .

هذا وقد جرت مساومة أخرى لرسول الله ﷺ من عمه أبي لهب بتحريض من أبي جهل وعقبة بن أبي معيط ، وقد روى الخبر في ذلك الحافظ أبو الفرج ابن الجوزي بسنده عن ثعلبة بن صغير وحكيم بن حزام أنهما قالا : لما توفي أبو طالب وخديجة - وكان بينهما خمسة أيام - اجتمع على رسول الله ﷺ مصيبتان ولزم بيته وأقلّ الخروج ، ونالت منه قريش ما لم تكن تنال ولا تطمع فيه ، فبلغ ذلك أبا لهب فجاءه فقال : يا محمد امض لما أردت وما كنت صانعاً إذ كان أبو طالب حياً فاصنعه ، لا واللات والعزى لايوصَل إليك حتى أموت .

وسبّ ابن الغيطلة رسول الله ﷺ فأقبل إليه أبو لهب فنال منه ، فولّى يصيح يامعشر قريش صبأ أبو عتبة . فأقبلت قريش حتى وقفوا على أبي لهب فقال : مافارقت دين عبد المطلب ، ولكني أمنع ابن أخي أن يضام حتى يمضي لما يريد . فقالوا لقد أحسنت وأجملت ووصلت الرحم .

فمكث رسول الله ﷺ كذلك أياماً يأتي ويذهب لايعرض له أحد من قريش ، وهابوا أبا لهب إذ جاء عقبة بن أبي معيط وأبوجهل إلى أبي لهب فقالا له : أخبرك ابن أخيك أين مدخل أبيك ؟ فقال له أبو لهب يامحمد أين مدخل عبد المطلب ؟ قال مع قومه . فخرج إليهما فقال قد سألته فقال مع قومه ، فقالا : يزعم أنه في النار .

فقال يامحمد أيدخل عبد المطلب النار ؟ فقال رسول الله ﷺ : ومن مات على ما مات عليه عبد المطلب دخل النار ، فقال أبو لهب - لعنه الله - والله لابرحْتُ لك إلا عدوا وأنت تزعم أن عبد المطلب في النار . واشتد عند ذلك أبو لهب وسائر قريش عليه .

ذكره الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى وسكت عنه [(١)] .

وهكذا تفتقت أذهان هذين الشيطانين أبي جهل وعقبة عن هذا المكر الخبيث الذي استطاعا به أن يستخرجا من قلب أبي لهب العصبية الجاهلية من أصولها ، فقد كان أقدس شيء عندهم ماورثوه عن الآباء والاجداد ، وهذه العصبية هي التي منعت أبا طالب من الإسلام مع يقينه بالإسلام واعترافه في أشعاره وكلامه برسالة رسول الله ﷺ وأن دينه هو الحق ، ولكن هذه العصبية جعلت آخر كلمة يقولها قبل موته « على ملة عبد المطلب ، على ملة الأشياخ » .

فمن أجل هذه العصبية الجاهلية غيَّر أبو لهب رأيه وأعلن عن عداوته الأبدية لرسول الله ﷺ .

---

(١) البداية والنهاية ٣/ ١٣٢ .

ولقد كان موقفا عظيما من رسول الله ﷺ أن حافظ على كمال دينه وصفاء دعوته مع ما كلفه ذلك من خسارة أقوى نصير له كان قد استعد لحمايته بدلا من عمه أبي طالب ، في الوقت الذي كان أحوج مايكون فيه إلى النصرة ، ولكنه كان يعتبر في الدرجة الأولى صفاء الهدف السامي الذي يدعو إليه وهو ابتغاء رضوان الله تعالى والجنة ، وسلامة المنهج الموصل إلى ذلك وهو الاستقامة على هذا الدين العظيم ، ويعتبر قضية الحماية والنصرة أمرا ثانويا ، إن حصل مع سلامة الهدف والمنهج فهو من الأسباب المطلوبة لتحقيق هذا المطلب ، وإن لم يحصل إلا بتشويه ذلك المطلب والانتقاص منه فليذهب غير مأسوف عليه .

* * *

٨ - من صفات حملة الرسالة

(دعوة قبيلة ربيعة)

مازال رسول الله ﷺ يدعو القبائل إلى الإسلام منذ أن أمره الله تعالى بتبليغ هذا الدين ، وقد تقدمت بعض الأخبار عن هذه الدعوة .

والآن نورد خبرا عن دعوة النبي ﷺ لقبيلة ربيعة التي اختارت منازلها بين بلاد فارس وجزيرة العرب ، وقد كانت هذه الدعوة في العام العاشر من البعثة حيث كان للنبي ﷺ جولة بين القبائل في موسم الحج بعدما كان ما كان من رد أهل الطائف دعوته كما سبق .

أخرج أبو نعيم رحمه الله بإسناده عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : لما أمر الله عز وجل نبيه ﷺ أن يعرض نفسه على قبائل العرب خرج وأنا معه وأبو بكر إلى منى حتى دفعنا إلى مجلس من مجالس العرب . . ثم ذكر خبراً طويلاً في حوار أبي بكر مع قبيلة ربيعة في بيان أنسابها وأنساب قريش إلى أن قال في ذكر حوار « مفروق » زعيم من زعمائهم : « لعلك أخو قريش » .

قال أبو بكر : إن كان بلغكم أنه رسول الله ﷺ فها هو ذا ، فقال مفروق : قد بلغنا أنه يذكر ذلك ، ثم التفت إلى رسول الله ﷺ فقال : إلامَ تدعو يا أخا قريش ؟ فتقدم رسول الله ﷺ فجلس ، وقام أبو بكر يُظَلِّلُه بثوبه .

فقال رسول الله ﷺ : أدعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده

لاشريك له وإلى رسول الله أن تُؤوُوني وتمنعوني وتنصروني حتى أؤدي عن الله تعالى ما أمرني به ، فإن قريشاً قد تظاهرت على أمر الله وكذبت رسوله واستغنت بالباطل عن الحق ، والله هو الغني الحميد .

قال له : وإلامَ تدعو أيضاً يا أخا قريش ؟ فتلا رسول الله ﷺ ﴿ **قل تعالوا أتْلُ ما حرم ربكم عليكم أن لاتشركوا به شيئاً وبالوالدين إحسانا ولاتقتلوا أولادكم من إمْلاق نحن نرزقكم وإياهم ولاتقربوا الفواحش ماظهر منها ومابطن ولاتقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون . ولاتقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشدّه وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لانُكَلِّفُ نفسا إلا وسعها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكّرون . وأن هذا صراطي مستقيماً فاتّبعوه ولاتّتّبعوا السُّبُلَ فَتَفَرّق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون** ﴾ (١) .

وقال له مفروق : وإلامَ تدعو أيضاً يا أخا قريش ؟ فو الله ماهذا من كلام أهل الأرض ولو كان من كلامهم لعرفناه ، فتلا رسول الله ﷺ : ﴿ **إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القُرْبَى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكّرون** ﴾ (٢) .

فقال له مفروق : دعوت والله ياقرشي إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ، ولقد أفَكَ قوم كذبوك وظاهروا عليك ، وكأنه أحب

---

(١) سورة الأنعام ١٥١ - ١٥٣ .

(٢) سورة النحل / ٩٠ .

أن يَشركه في الكلام هانئ بن قبيصة فقال : وهذا هانئ بن قبيصة شيخنا وصاحب ديننا .

فقال له هانئ : قد سمعت مقالتك يا أخا قريش وصدَّقت قولك ، وإني أرى إنْ تَرَكْنا ديننا واتبعناك لمجلس جلسته إلينا ليس له أول ولا آخر ، لم نتفكر في أمرك ونَنْظُرْ في عاقبة ماتدعونا إليه فإن ذلك زلة في الرأي وطيشة في العقل وقلة نظر في العاقبة ، وإنما تكون الزلة مع العجلة ، وإن من ورائنا قوما نكره أن نعقد عليهم عقداً ، ولكن ترجع ونرجع وننظر وتنظر ، وكأنه أحب أن يشركه في الكلام المثنى بن حارثة فقال : وهذا المثنى شيخنا وصاحب حربنا .

فقال المثنى : قد سمعت مقالتك واستحسنت قولك يا أخا قريش ، وأعجبني ما تكلمت به ، والجواب هو جواب هانئ بن قبيصة ، وإنما نزلنا بين صيْرَين أحدهما اليمامة والآخر السماوة [1] .

فقال له رسول الله ﷺ : ماهذان الصِّيْرَان ؟ فقال : أما أحدهما فطُفُوف البر وأرض العرب ، وأما الآخر فأرض فارس وأنهار كسرى وإنما نزلنا على عهد أخذه علينا كسرى أن لانحدث حدثاً ولانؤويَ مُحدثاً ، ولعل هذا الأمر الذي تدعو إليه تكرهه الملوك ، فأما ما كان مما

---

(١) هكذا جاء في البداية والنهاية ، وفي الدلائل لأبي نعيم « السمامة » ولعل ما أثبته ابن كثير هو الأصح لشهرة هذا الاسم في العراق . و « الصيران » تثنية صيرْ وهو الماء الذي يحضره الناس ، وقد صار القوم يصيرون إذا حضروا الماء -- النهاية مادة صير -- .

يلي بلاد العرب فذنب صاحبه مغفور وعذره مقبول ، وأما ما كان مما يلي بلاد فارس فذنب صاحبه غير مغفور وعذره غير مقبول ، فإن أردت أن ننصرك مما يلي بلاد العرب فعلنا .

فقال رسول الله ﷺ : ما أسأتم الرد إذ أفصحتم بالصدق ، إنه لايقوم بدين الله إلا من حاطه من جميع جوانبه .

وجاء في رواية ابن حبان بعد هذا : أرأيتم إن لم تلبثوا إلا قليلاً حتى يورثكم الله أرضهم وديارهم وأموالهم ، ويفرشكم نساءهم أتسبِّحون الله وتقدسونه ؟ .

فقال النعمان بن شريك : اللهم نعم ، قال : فتلا رسول الله ﷺ : ﴿ **إنا أرسلناك شاهداً ومبشِّراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً** ﴾ [1] . ثم نهض رسول الله ﷺ قابضًا على يد أبي بكر ، ثم دفعنا إلى مجلس الأوس والخزرج فما نهضنا حتى بايعوا رسول الله ﷺ .

قال علي : وكانوا صُدُقًا صُبُراً [2] .

قال الحافظ ابن حجر : وقد أخرج الحاكم وأبو نعيم والبيهقي في الدلائل بإسناد حسن عن ابن عباس رضي الله عنهما : حدثني علي بن أبي طالب رضي الله عنه . . فذكر شيئاً من هذا الحديث [3] .

(١) سورة الأحزاب ٤٥ - ٤٦ .

(٢) الدلائل لأبي نعيم ٩٧ ، وانظر البداية والنهاية ٣/ ١٣٩ - ١٤٣ .

(٣) فتح الباري ٧/ ٢٢٠ .

وكذلك أخرجه ابن حبان من هذا الطريق [1] وجاء في رواية عند الطبراني أن النبي ﷺ بعث إليهم أبا بكر رضي الله عنه فدعاهم إلى الإسلام ، وفيها أن شيخهم المثنى بن حارثة قال : إن بيننا وبين الفرس حرباً فإذا فرغنا مما بيننا وبينهم عدنا فنظرنا ، فقال له أبو بكر : أرأيت إن غلبتموهم أتتبعنا على أمرنا ؟ .

قال : لانشترط لك هذا علينا ولكن إذا فرغنا فيما بيننا وبينهم عدنا فنظرنا فيما تقول : فلما التقوا يوم ذي قار هُمْ والفرس قال شيخهم : ما اسم الرجل الذي دعاكم إلى ما دعاكم إليه ؟ قالوا محمد ، قالوا : فهو شعاركم ، فنُصروا على القوم فقال رسول الله ﷺ : بي نصروا [2] .

وذكره الهيثمي وقال : رجاله ثقات رجال الصحيح غير خلاد بن عيسى وهو ثقة [3] ، وكذلك حسَّن اسناده القسطلاني ونسبه إلى الحاكم وأبي نعيم والبيهقي [4] .

وهكذا رأينا هؤلاء وقد تأثروا بسماع كلام الله تعالى واعترفوا بأنه ليس من كلام البشر ، واقتنعوا بأن ما يدعو إليه رسول الله ﷺ هو الحق ، ولكن مع ذلك لم يصلوا إلى مستوى حمل الرسالة في تطبيق الإسلام وتبليغه والدفاع عنه ، لأنهم لم يتجردوا بَعْدُ من حظ النفس ، ولم

---

(١) الثقات لابن حبان ١/ ٨٠ - ٨٨ .

(٢) المعجم الكبير للطبراني ٦/ ٧٦ رقم ٥٥٢٠ .

(٣) مجمع الزوائد ٦/ ٢١١ .

(٤) شرح المواهب اللدنية ١/ ٣٠٩ .

يحرروا أنفسهم من قيد النظر إلى المستقبل الدنيوي فمنعهم ذلك من الإيمان بالإسلام وقبول حماية الدعوة الإسلامية الممثلة آنذاك برسول الله ﷺ .

نعم إنه لايصلح لحمل هذا الدين وحماية دعاته إلا من حاط به من جميع جوانبه ، والقضية التي دار حولها الحوار في هذا الخبر تتعلق بأمر حماية النبي ﷺ حتى يبلغ رسالة ربه ، وإنما يكون ذلك بالإيمان الكامل بدعوته ، وحيث إن الناس لايريدون السير وراء من يُخضعهم لنظام لم يقتنعوا به فإنهم سيعادون هذا النظام .

وقد أفصح المثنى بن حارثة عن وضع بلاده السياسي حيث أبان بأن قومه في منزل بين العرب والعجم ، ونظراً لإدراكه العالي فإنه قد فهم أن الإيمان بالإسلام يعني معاداة الناس الذين لم يؤمنوا به والتعرض لحربهم، وقد أبدى استعداد قومه لحرب من حوله من العرب من أجل دعوة الإسلام ، ولكنه أبان عذره في عجز قومه عن مقاومة الفرس والتعرض لحربهم ، وأشار إلى أن هذا الأمر مما يكرهه الملوك ، وأن ذلك سيثير الفرس على قومه .

وقد أجاب النبي ﷺ ببيان حقيقة دعوته وهي أن الذي يصلح لحمل هذا الدين وتبليغه وحمايته هو الذي حاط به من جميع جوانبه .

ومن أبرز ذلك قضية الولاء والبراء التي دار حولها الحوار ، حيث إنه لما أبدى المثنى استعداد قومه للبراءة ممن يعادي دعوة الإسلام من

العرب ، وعدم استعدادهم للبراءة من الفرس قال النبي ﷺ هذا الكلام ، فموضوع الولاء والبراء أساس في الدعوة الإسلامية .

فالمسلم الحق هو الذي يتولى المسلمين من كانوا وأينما كانوا ، ويتبرأ من الكافرين من كانوا وأينما كانوا ، أما الذي يتبرأ من الأعداء الضعفاء من الدول الصغيرة بينما يظهر ولاءه للدول الكبرى ذات السيادة والهيمنة في الأرض فإنه لايصح لحمل هذا الدين ، ولايمكن أن يدخل في سلك الدعاة فضلاً عن أن يكون له عمل قيادي في الدعوة .

وقبل أن نغادر هذا الكلام على هذه الواقعة فإنه يجب أن لايغيب عن بالنا أن المثنى بن حارثة الشيباني قد أسلم بعد ذلك ودخل قومه في الإسلام ، وكانوا أجرأ المسلمين بعد إسلامهم على قتال الفرس ، بينما كانوا في جاهليتهم يرهبون الفرس ولايفكرون في قتالهم ، بل إنهم ردوا دعوة النبي ﷺ بعد قناعتهم بها لاحتمال أن تلجئهم إلى قتال الفرس ، الأمر الذي لم يكونوا يفكرون به أبداً .

وبهذا نعلم عظمة هذا الدين الذي رفع الله به المسلمين في الدنيا حيث جعلهم سادة الأرض ، مع ما ينتظرون في أخراهم من النعيم الدائم في الجنة .

أما الخبر الأخير فإنه يدل على أنهم مُقْدمون على حرب مع الفرس وهذا يدل على أن هذا الخبر جرى بعد الخبر الأول، والمقصود بهذه الحرب يومُ ذي قار حيث قرر الفرس غزوهم على هذا الماء لرفضهم تسليم الودائع التي أودعها عندهم النعمان بن المنذر ملك المناذرة .

وقد ذكر الإمام الطبري خبر هذه الوقعة وأسبابها وما انتهت إليه من هزيمة الفرس ، وقدَّم ذلك بقوله : وذُكر عن النبي ﷺ أنه لما بلغه ما كان من هزيمة ربيعة جيش كسرى قال : « هذا أول يوم انتصفت العرب من العجم ، وبي نصروا »[1] يعني ماذكر في رواية الطبراني السابقة .

وإن ماجاء في هذه الرواية من اعتزاز بني بكر بن وائل بالنبي ﷺ وجعل اسمه شعاراً لهم في الحرب ، ثم قوله ﷺ : « بي نصروا » دليل واضح على أن انتصار العرب الوحيد في الجاهلية على الفرس ، والذي أصبح العرب بعد ذلك يفتخرون به كان من الله تعالى بسبب توجههم نحو الإسلام ، وإعزاز النبي ﷺ ، فهو مقدمة لما لحق بعد ذلك من انتصارات باهرة للمسلمين على الفرس حتى أزالوا دولتهم .

ومما يدل على ذلك بوضوح الزيادة التي جاءت في رواية ابن حبان حيث وعدهم النبي ﷺ وبشرهم بأنهم سيرثون أرض الفرس وديارهم وأموالهم ونساءهم .

وحيث إنهم قد آمنوا بصدق رسالة رسول الله ﷺ وأن القرآن الذي تلا عليهم ليس من كلام البشر فإنهم قد تفاءلوا خيراً بوعده وبشارته لهم بالنصر على الأعداء من الفرس فأقدموا على قتالهم لأول مرة في حياتهم ، ولكن هذا المستوى من الإيمان لم يصل بهم إلى حد التحرر من روابط الجاهلية والتجرد لنصرة الإسلام فلم يسلموا آنذاك ، ولكنهم أسلموا بعد ذلك وكانوا أول مشعل للجهاد الإسلامي ضد الفرس .

* * *

---

(١) تاريخ الطبري ٢/ ١٩٣ .

٩ - بدء إسلام الأنصار

من مواقف النبي ﷺ العظيمة الناجحة ماقام به من دعوة الأوس والخزرج إلى الإسلام ، حيث دخلوا بعد ذلك في الإسلام أفواجاً وناصروا دعوته فاستحقوا بذلك لقب الأنصار الذي جمعهم وغلب على انتسابهم القبلي .

ولقد كان بدء دعوة الأنصار حينما قدم وفد من بني عبد الأشهل من الأوس يلتمسون حلف قريش على قومهم من الخزرج ، وقد أخرج خبر ذلك الإمام أحمد من حديث محمود بن لبيد أخي بني عبد الاشهل قال : لمَّا قدم أبو الحَيْسر أنس بن نافع مكة ومعه فتية من بني عبد الأشهل فيهم إياس بن معاذ يلتمسون الحلف مع قريش على قومهم من الخزرج سمع بهم رسول الله ﷺ فأتاهم فجلس إليهم فقال لهم : هل لكم إلى خير مما جئتم إليه قالوا : وماذاك قال : أنا رسول الله بعثني إلى العباد أدعوهم إلى أن يعبدوه ولايشركوا به شيئاً وأنزل عليَّ كتاباً ثم ذكر الإسلام وتلا عليهم القرآن فقال إياس بن معاذ وكان غلاماً حدثًا : أي قوم هذا والله خير مما جئتم إليه قال : فأخذ أبو الحيسر أنس بن نافع حفنة من البطحاء فضرب بها وجه إياس بن معاذ .

وقام رسول الله ﷺ وانصرفوا إلى المدينة فكانت وقعة بعاث [1] بين الأوس والخزرج قال : ثم لم يلبث إياس بن معاذ أن هلك ، قال محمود

---

(١) هو اسم حصن للأوس ، وحوله جرت المعركة المشهورة .

بن لبيد : فأخبرني من حضره من قومي أنه لم يزالوا يسمعونه يهلل الله ويكبره ويحمده ويسبحه حتى مات ، فما كانوا يشكُّون أن قد مات مسلما لقد كان استشعر الإسلام في ذلك المجلس حين سمع من رسول الله ﷺ ما سمع [1] .

وذكره الحافظ الهيثمي وقال : رواه أحمد والطبراني ورجاله ثقات[2] .

ورواه ابن هشام عن ابن إسحاق من هذا الطريق وذكر مثله [3] .

ورواه أبو نعيم الأصبهاني من حديث ابن إسحاق بهذا الإسناد وذكر مثله [4] .

وذكره الحافظ ابن حجر في الإصابة من حديث ابن إسحاق ، وقال : رواه جماعة عن ابن إسحاق هكذا وهو من صحيح حديثه ، وقال في ترجمة إياس بن معاذ : قال ابن السكن وابن حبان : له صحبة [5].

لقد كان لمجيء رسول الله ﷺ إلى ذلك الوفد من الأوس دلالة واضحة على اهتمامه بدعوته ، فأولئك القوم كانوا يعانون من مشكلة كبيرة وهي قيام العداء والحروب بين قومهم وبني عمهم من الخزرج ،

---

(١) مسند أحمد ٥/ ٤٢٧ .

(٢) مجمع الزوائد ٦/ ٣٦ .

(٣) سيرة ابن هشام ٢/ ٤٢ .

(٤) معرفة الصحابة لأبي نعيم ٢/ ٣٢٥ رقم ١٦٢ .

(٥) الاصابة لابن حجر ١/ ١٠١ - ١٠٢ .

والرسول ﷺ يعلم علم اليقين أن حل مشكلتهم تكمُن في دخولهم جميعاً في الإسلام فسارع إليهم وقدَّم لهم هذا الحل الأمثل ، ولكنه عُمِّيَ على أفراد ذلك الوفد وأبصره فتى منهم وهو إياس بن معاذ الذي سارع إلى نصيحة قومه ودعاهم إلى الإيمان برسول الله ﷺ ، ولكنه كان أصغر من أن يؤثر فيهم رأيه مع وجود الأكابر منهم ، فلم يستجيبوا لهذه الدعوة ومضوا لما قدموا من أجله .

وهذا موقف يذكر لإياس بن معاذ رحمه الله الذي حكم له قومه من بني عبد الأشهل بالإسلام حيث مات وهو يهلل الله تعالى ويكبره ويسبحه .

هذا وقد تبين لنا ما كان من موقف أهل الطائف حينما ردوا دعوة رسول الله ﷺ ، وما كان من موقف قبيلة ربيعة حيث اقتنعوا بالإسلام ، ولكنهم لم يلتزموا بمعاداة الفرس إذا هم وقفوا ضد الإسلام .

وكان مما هيأ الله تعالى لنبيه ﷺ ولدين الإسلام أن صرف إليه نفراً من الخزرج اقتنعوا بدعوة الإسلام كاملة وآمنت بها قلوبهم حقا ، وكان ذلك في نفس العام الذي رد فيه أهل ثقيف دعوة الإسلام ، وهو العام العاشر للبعثة كما في رواية الزهري (١) ، وفي نفس الموسم الذي اشترط فيه بنو ربيعة عدم الالتزام بالبراءة من جميع الكفار كما في الرواية السابقة(٢) .

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٤٣٠ .

(٢) انظر الموضوع رقم (٨) .

وقد ذكر محمد بن إسحاق رحمه الله بدء إسلام الأنصار حيث قال : فلما أراد الله عز وجل إظهار دينه ، وإعزاز نبيه ﷺ ، وإنجاز موعده له خرج رسول الله ﷺ في الموسم الذي لقيه فيه النفر من الأنصار ، فعرض نفسه على قبائل العرب ، كما كان يصنع في كل موسم ، فبينما هو عند العقبة لقي رهطا من الخزرج أراد الله بهم خيراً .

قال : فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن أشياخ من قومه قالوا : لما لقيهم رسول الله ﷺ قال لهم : من أنتم ؟ قالوا : نفر من الخزرج ، قال : أَمِنْ موالي يهود ؟ قالوا : نعم ، قال : أفلا تجلسون أكلِّمُكم ؟ قالوا : بلى فجلسوا معه فدعاهم إلى الله عز وجل وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن .

قال : وكان مما صنع الله بهم في الإسلام أن يهود كانوا معهم في بلادهم ، وكانوا أهل كتاب وعلم ، وكانوا هم أهل شرك وأصحاب أوثان ، وكانوا قد غزوهم ببلادهم ، فكانوا إذا كان بينهم شيء قالوا لهم : إن نبيّاً مبعوثاً الآن قد أظل زمانه نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فلما كلم رسول الله ﷺ أولئك النفر ، ودعاهم إلى الله تعالى قال بعضهم لبعض : ياقوم تعلَّموا والله إنه والله للنبي الذي توعدكم به يهود فلا يسبقُنَّكم إليه فأجابوه فيما دعاهم إليه ، بأن صدَّقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام .

وقالوا إنا قد تركنا قومنا ولاقوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم فعسى أن يجمعهم الله بك ، فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك ،

ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين ، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك .

ثم انصرفوا عن رسول الله ﷺ راجعين إلى بلادهم وقد آمنوا وصدقوا .

قال ابن إسحاق : وهم -فيما ذكر لي - ستة نفر من الخزرج ، ثم ذكر أسماءهم وأنسابهم وهم : أسعد بن زرارة ، وعوف بن الحارث بن رفاعة ، ورافع بن مالك بن العجلان ، وقطبة بن عامر ، وعقبة بن عامر ، وجابر بن عبد الله بن رئاب .

قال : فلما قدموا المدينة إلى قومهم ذكروا لهم رسول الله ﷺ ، ودعوهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم ، فلم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول الله ﷺ (١) .

ولقد نزل القرآن الكريم بتبكيت اليهود على ما كان منهم من وعيد الكفار بظهور رسول الله ﷺ ثم كفرهم به بعد ماعرفوه ، وذلك في قول الله تعالى ﴿ **ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدّق لما معهم وكانوا من قبلُ يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ماعرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين** ﴾ البقرة ٨٩ .

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٤٣ . وأخرجه الإمام الطبري من طريق ابن إسحاق بهذا الإسناد وذكر مثله - تاريخ الطبري ٢/ ٣٥٣ - ، وذكره الهيثمي من رواية عروبة بن الزبير ، وقال : رواه الطبراني مرسلا وفيه ابن لهيعة وفيه ضعف وهو حسن الحديث - مجمع الزوائد ٦/ ٤٠-٤٢ - .

وفي سبب نزول هذه الآية أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وأبو نعيم والبيهقي كلاهما في الدلائل من طريق عاصم بن عمربن قتادة قال : حدثني أشياخ منا قالوا : لم يكن أحد من العرب أعلم بشأن رسول الله ﷺ منا ، كان معنا يهود وكانوا أهل كتاب ، وكنا أصحاب وثن ، وكنا إذا بلغنا منهم ما يكرهون قالوا : إن نبيا يبعث الآن قد أظل زمانه نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فلما بعث الله رسوله ﷺ إتبعناه وكفروا به ، ففينا والله وفيهم أنزل الله تعالى ﴿ **وكانوا من قَبْلُ يستفتحون على الذين كفروا** ﴾ الآية كلها [٢] .

وهكذا كان بدء انتشار الإسلام في المدينة على يد هؤلاء الستة ، فهؤلاء كانوا أول سفراء الخير في بلادهم .

وإذا كان للمشاهير في الخير والتضحية بعد انتشار الإسلام في المدينة من فضل لاينكر ، فإن الذين وفدوا بالإسلام معهم لأول مرة لايجوز أن يُنسَى فضلهم .

إن فضل غيرهم فيما يقدمونه من عمل صالح في الدعوة والجهاد ، ولكن فضل هؤلاء في ذلك ، وفي كونهم رائدين في نشر الإسلام في المدينة . . وإذا قلنا المدينة فإنها ليست كأي بلد .

إن انتشار الإسلام في أي بلد يعني نقل الخير إليه ، ولكن انتشار

---

(١) الدر المنثور ١/ ٨٧ .

الإسلام في المدينة يعني ذلك ، إضافة إلى نقل الإسلام للعالمين من هذه المدينة المباركة .

ولقد كان المرشّح الأهم في انجذاب هؤلاء الستة للإسلام بعد قناعتهم به هو كون اليهود يستعملون بعثة النبي المنتظر سلاحاً يوجهونه ضد الأوس والخزرج ، وحيث إن اليهود أهل كتاب ويخبرون بذلك عما في كتبهم فقد تكوّن لدى الأنصار قناعة بهذا النبي الذي يهددهم به اليهود .

ولقد شاء الله أن يسبق إليه الأنصار فيؤمنوا به ويظهروا به على اليهود ، وأن يتقاعس عن الإيمان به اليهود الذين بشروا به وأنذروا ، لأن الله تعالى أراد الخير للأنصار لتجرد قلوبهم من الحقد والهوى المنحرف ، وحرم منه اليهود لامتلاء قلوبهم بالحقد وانقيادهم لأهواء زعمائهم الزائغة .

لقد كان إسلام هؤلاء النفر الستة بداية انطلاقة جديدة للإسلام خارج مكة المكرمة ، وكان له مابعده من انتشار الإسلام في المدينة وقيام دولته فيها بعد الهجرة .

وقد استمر الأنصار بعد ذلك يفدون إلى مكة فرادى فيُسْلمون على يد النبي ﷺ كما جاء في رواية الإمام أحمد والبزار من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : مكث رسول الله ﷺ عشر سنين يتبع الناس في منازلهم بعكاظ ومجَنَّة وفي المواسم بمنى يقول : من يؤويني ؟ من

ينصرني حتى أبلِّغ رسالة ربي وله الجنة ؟ حتى إن الرجل ليخرج من اليمن أو من مضر فيأتيه قومه فيقولون : احذر من غلام قريش لايفتنك ، ويمشي بين رحالهم وهم يشيرون إليه بالأصابع ، حتى بعثَنا الله إليه من يثرب ، فاويناه وصدَّقناه ، فيخرج الرجل منا فيؤمن به ويقرئه القرآن ، فينقلب إلى أهله فيسلمون بإسلامه ، حتى لم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رهط من المسلمين يظهرون الإسلام . . ثم ذكر بيعة العقبة[1] .

وفي هذه الرواية تصوير بليغ لمعاناة النبي ﷺ في سبيل نشر دعوته ، كما أن فيها بياناً لمقدار مابثه أعداؤه ضده من سمعة سيئة بلغت أقطار الجزيرة العربية .

وأخيراً فيها بيان للفتح الذي فتحه الله تعالى عليه بإسلام أبناء المدينة النبوية حيث صاروا يفدون إليه لسماع القرآن منه والإسلام على يديه ، حتى انتشر الإسلام في دور المدينة ، وأصبحت مهيأة بعد ذلك لتكوين مجتمع إسلامي ودولة إسلامية .

* * *

(١) مجمع الزوائد ٦/ ٤٦ ، وقال الهيثمي : « ورجال أحمد رجال الصحيح » ، وانظر الفتح الرباني ٢٠ / ٢٦٩ .
وقال الحافظ ابن حجر : وعند أحمد بإسناد حسن وصححه الحاكم وابن حبان ، وأشار إلى الحديث - فتح الباري ٧/ ٢٢٢ - وانظر المستدرك ٢/ ٦٢٤ - و - موارد الظمآن / ٤٠٨ رقم ١٦٨٦ - .

١٠ - مثل من الالتزام بتطبيق الإسلام
(بيعة العقبة الأولى)

قال ابن إسحاق : وحدثني يزيد بن أبي حبيب عن مرثد بن عبد الله اليزني عن عبد الرحمن بن عسيلة الصنابحي عن عبادة بن الصامت قال : كنت فيمن حضر العقبة الأولى وكنا اثني عشر رجلاً ، فبايعنا رسول الله ﷺ على بيعة النساء ، وذلك قبل أن تفرض الحرب : على أن لانشرك بالله شيئاً ، ولانسرق ، ولانزني ، ولانقتل أولادنا ، ولانأتي ببهتان نفتريه من بين أيدينا وأرجلنا ، ولانعصيه في معروف . فإن وفَّيتم فلكم الجنة ، وإن غَشيتُم من ذلك شيئاً فأمركم إلى الله عز وجل : إن شاء عذب، وإن شاء غفر (١) .

وأخرجه الإمام الطبري من طريق ابن إسحاق وذكر مثله (٢) .

وقد أخرجه الإمام البخاري من طريق الليث بن سعد بهذا الإسناد عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : إني من النقباء الذين بايعوا رسول الله ﷺ ، ثم ذكر نحوه غير أنه لم يذكر أن هذه البيعة كانت بيعة العقبة الأولى (٣) .

وما ذكره ابن إسحاق من تحديد ذلك ببيعة العقبة الأولى هو الظاهر

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٤٩ .

(٢) تاريخ الطبري ٢/ ٣٥٦ .

(٣) صحيح البخاري رقم ٣٨٩٣ (الفتح ٧/ ٢١٩) .

حيث لم يذكر الجهاد في هذه البيعة وذلك قبل أن يفرض الجهاد كما جاء مصرحاً به في هذه الرواية .

وقوله : « فبايعنا رسول الله ﷺ على بيعة النساء وذلك قبل أن تفرض الحرب » يعني أن الرسول ﷺ بايع النساء بعد ذلك بهذه البيعة بأمر الله تعالى كما جاء في قوله جل وعلا : ﴿ **يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايِعْنك على أن لايشركْن بالله شيئاً ، ولايسرقن ولايزنين ولايقتلن أولادهن ولايأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولايعصينك في معروف فبايِعْهُنَّ واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم** ﴾[1] .

وقد بايع النساء رسول الله ﷺ بهذه البيعة بعد فتح مكة بعد نزول هذه الآية ، فكون النبي ﷺ قرر هذه البيعة على الأنصار قبل الهجرة مما أمره الله تعالى به من غير أن ينزل فيه قرآن ، ثم نزلت هذه الآية بعد ذلك .

لقد كانت هذه البيعة تأكيداً على تطبيق الإسلام ، حيث تتضمن الالتزام بطاعة الله تعالى واجتناب معصيته ، فلقد آمن أولئك الأنصار بالإسلام حقاً ولكن النبي ﷺ أراد تأكيد إيمانهم بالبيعة على العمل الصالح واجتناب العمل السيء ، حتى يكونوا من المتقين .

والمتقون هم الذين يستطيعون حمل دعوة الإسلام والجهاد في

---

(١) سورة الممتحنة آية ١٢ .

سبيلها وذلك لأن الاتجاه نحو الدعوة والدفاع عنها من غير أن يسبق ذلك الالتزام بتقوى الله تعالى يسيء إلى دعوة الإسلام ، فالمدعوّون ينظرون أولاً إلى سلوك الدعاة وأخلاقهم فإذا عملوا بالصالحات واجتنبوا السيئات كانوا قدوة صالحة للآخرين وأصبحوا دعاة إلى الإسلام بأعمالهم وإن لم يباشروا الدعوة بأقوالهم ، فكيف إذا جمعوا بين الأمرين ؟ .

أما إذا كانوا بضد ذلك فإنهم يكونون دعاية سيئة للإسلام ولايصلحون بسبب ذلك لحمل دعوة الإسلام ، وإذا دخلوا في مجال الجهاد قبل أن يحققوا صفة التقوى في أنفسهم فإنهم لن ينجحوا في هذا المجال ، لأن أهم أسباب الفشل في الحروب هو انهزام المجاهدين أمام أنفسهم وذلك باتباعهم اهواءهم في معصية الله تعالى ، وفي ذلك يقول رسول الله ﷺ : « المجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله » (١) .

إن أفراد الجيل الأول لم ينتصروا في الميدان الحربي إلا بعد أن انتصروا على أنفسهم فحملوها على طاعة الله تعالى واجتناب معصيته ، وعلى ذلك رباهم رسول الله ﷺ ، وما هذه البيعة إلا مثَلٌ من أمثلة تلك التربية النبوية الناجحة .

هذا وقد نشط المشاركون في تلك البيعة في الدعوة إلى الإسلام في المدينة ، ومن أمثلة هذا النشاط ما قام به رافع بن مالك بن العجلان

---

(١) مسند أحمد ٦/٢٢ ، جامع الترمذي ، كتاب فضائل الجهاد ، باب ٢ - .

الزُّرَقي من حفظ ما نزل من القرآن آنذاك من النبي ﷺ ، وقراءته على قومِه في مسجد بني زريق الذي تم إنشاؤه قبل الهجرة النبوية .

وقد روى في ذلك الزبير بن بكار عن عمر بن حنظلة أن مسجد بني زريق أول مسجد قرئ فيه القرآن ، وأن رافع بن مالك لما لقيه ﷺ بالعقبة أعطاه ما أنزل عليه في العشر سنين التي خلت ، فقدم به رافع المدينة ، ثم جمع قومه فقرأ عليهم في موضعه .

قال : وتعجب رسول الله ﷺ من اعتدال قبلته [1] .

وهذا موقف في الدعوة يذكر لرافع بن مالك ، ولا شك أن بقية أصحاب البيعة قد بذلوا جهوداً كبيرة في الدعوة إلى الإسلام ، مما كان سبباً في انتشاره في المدينة بسرعة فائقة رضي الله عنهم أجمعين .

* * *

---

(١) شرح المواهب اللدنية ١/ ٣١١ .

١١ - داعية ناجح ونفوس متجردة

(مصعب بن عمير والدعوة في المدينة)

قال محمد بن إسحاق رحمه الله - بعد أن ذكر بيعة الأنصار لرسول الله ﷺ ليلة العقبة الأولى- : « فلما انصرف عنه القوم بعث رسول الله ﷺ معهم مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي ، وأمره أن يقرئهم القرآن ، ويعلمهم الإسلام ، ويفقههم في الدين ، فكان يسمى المقرئَ بالمدينة مصعبٌ ، وكان منزله على أسعد بن زرارة بن عدُس ، أبي أمامة .

قال ابن إسحاق : فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة أنه كان يصلي بهم ، وذلك أن الأوس والخزرج كره بعضهم أن يؤمه بعض » .

ونشط مصعب بن عمير في الدعوة إلى الله في المدينة تحت حماية أسعد بن زرارة ومن معه من المؤمنين رضي الله عنهم حتى استطاع استقطاب زعيمين من زعماء الأوس كان لإسلامهما الأثر الكبير في نشر الإسلام في المدينة .

قال ابن إسحاق : وحدثني عبيد اله بن المغيرة بن مُعَيْقب وعبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم : « أن أسعد بن زرارة خرج بمصعب بن عمير يريد به دار بني عبد الأشهل ابن خالة أسعد بن زراه ، فدخل به حائطًا (١) من حوائط بني ظفر ، على بئر يقال لها بئر مَرَقْ ، فجلسا في الحائط ، واجتمع إليهما رجال ممَّن أسلم .

(١) يعني بستاناً .

وسعد بن معاذ وأُسَيْد بن حضير يومئذ سيدا قومهما من بني عبد الأشهل ، وكلاهما مشرك على دين قومه ، فلما سمعا به قال سعد بن معاذ لأسيد بن حضير : لا أبالك (٢) انطلق إلى هذين الرجلين اللذين قد أتيا دارنا ليسفها ضعفاءنا فازجرهما وانْهَهُما عن أن يأتيا دارنا ، فإنه لولا أن أسعد بن زرارة مني ما حيث علمت كفيتك ذلك ، هو ابن خالتي ولا أجد عليه مَقْدمًا » .

فهذا سعد بن معاذ الرجل العظيم القدر في الإسلام بعد ذلك ، صاحب المواقف الكبيرة في نصرة النبي ﷺ في بدر والخندق وغيرهما من المشاهد الذي قال عنه رسول الله ﷺ يوم موته : « اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ » نجده قبل أن ينشرح صدره للإسلام بقليل يصف هذا الدين بأنه تسفيه للضعفاء ، وما صدر منه هذا الحكم إلا لأنه كان لايزال قبل إسلامه يسير على تقليد الأوائل والتمسك بالعادات المألوفة من غير تفكير وإعمال للرأي ، وهذا داء وبيل يصاب به أكثر الناس حتى بعض المسلمين فيصرفهم عن التفكير في الحق ثم اتباعه إذا تبيَّن .

قال : « فأخذ أسيد بن حضير حربته ثم أقبل إليهما ، فلما رآه أسعد بن زرارة قال لمصعب بن عمير : هذا سيد قومه قد جاءك فاصدق الله فيه ، قال مصعب : إن يجلس أكلمه ، قال : فوقف عليهما متشتِّماً – يعني موجهاً كلمات الشتم – فقال : ماجاء بكما إلينا تسفِّهان ضعفاءنا ؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة » .

---

(١) لا أبالك كلمة مدح ومعناها لاكافي لك إلا نفسك .

وقد يتعجب المتأمل من صدور مثل هذا الكلام من رجل كان بعد ذلك تتنزَّل الملائكة في الليل لسماع تلاوته ، ولكنه البون الشاسع بين الضلال والهداية ، والفرق الواضح بين استخدام طاقات العقل فيما خُلق لأجله وبين تغطية العقل بحجاب كثيف من التقليد الأعمى .

« قال : فقال له مصعب : أوَ تجلس فتسمع فإن رضيت أمراً قبلته ، وإن كرهته كُفَّ عنك ما تكره ؟ قال : أنصفت ، ثم ركز حربته وجلس إليهما » .

وهنا تبدو الحكمة البالغة في الدعوة ، والمقدرة الفائقة في محاولة تحطيم الحجاب الفكري الذي كان يحول بين أسيد وأمثاله ، ومحاولة التفكير في الحق ، من غير عنف ينفِّر من سماع الحق ولا ضعف يهوِّن من شخصية ممثليه .

لقد علق الأمر على رضاه وسخطه ، ورتب على الرضى قبول الحق ، وعلى السخط الاستعداد بإبعاد مصدر الكراهية والأذى الذي كان يتصور وجوده وإن كان هو الحق .

وهذا من التنزل مع المخالفين وهو نوع من الحكمة في الدعوة ولذلك لم يجد أسيد بن حضير بدّاً من قبول هذا العرض الذي لم يشعر بأنه أجبر عليه وإنما أصبح معلقاً على كامل حريته ورضاه ، فوصف هذا العرض بأنه عين الإنصاف والعدل وجلس لسماع كلامه .

قال : « فكلمه مصعب بالإسلام وقرأ عليه القرآن فقالا - يعني

مصعب وأسعد - فيما يذكر عنهما : والله لَعرفْنا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم في إشراقه وتسهُّله ، ثم قال : ما أحسن هذا الكلام وأجمله ! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين ؟ قالا له : تغتسل فتطهَّر وتطهِّر ثوبيك ثم تشهد شهادة الحق ثم تصلي ، فقام فاغتسل وطهَّر ثوبيه وتشهَّد شهادة الحق ، ثم قام فركع ركعتين » .

وهكذا دخل أسيد بن حضير في الإسلام بهذه السرعة والسهولة حينما شرح الله صدره للهداية ، ووُفِّق برجل حكيم عرض عليه الإسلام .

قال : « ثم قال لهما : إن ورائي رجلاً إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه ، وسأرسله إليكما الآن ، سعد بن معاذ ، ثم أخذ حربته وانصرف إلى سعد وقومه وهم جلوس في ناديهم ، فلما نظر إليه سعد بن معاذ مقبلاً قال : أحلف بالله لقد جاءكم أُسَيْد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم » . وإنما عرف ذلك لأن نور الهداية يسطع في الوجه أول ما يلامس الهدى قلب المهتدي ، وكون الإنسان يقبل على أمر عظيم يُعرف في وجهه ، ولا أعظم من إقبال الإنسان على سلخ دينه المتوارث ودخوله في دين الحق .

قال : « فلما وقف على النادي قال له سعد : مافعلت : قال : كلمت الرجلين فوالله ما رأيت بهما بأساً ، وقد نهيتهما فقالا : نفعل ما أحببت ، وقد حُدِّثت أن بني حارثة قد خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه ، وذلك أنهم قد عرفوا أنه ابن خالتك ليُخفروك » .

وهكذا أراد أسيد أن يشركه قومه في هذا الخير العظيم الذي هداه الله إليه وهويعلم أن سعد بن معاذ لو أسلم لم يختلف عليه اثنان من قومه لسيادته العظيمة فيهم فأراد أن يجذبه إلى الإسلام لينقله وقومه إلى الخير ، فوفقه الله إلى هذه الحيلة التي استطاع بها أن يغطّي على سمات الإسلام الظاهرة على وجهه التي أدركها سعد بن معاذ ، وذلك لأن أسيدًا يريد أن يسمع سعد من مصعب بن عمير قبل أن يعلم بإسلامه خشية أن تأخذه العزة ويهيمن عليه حجاب التقليد قبل أن يصل إلى مُبلِّغ الدعوة ليسمع منه كلام الله تعالى الذي تأثر به ، فنقله حالاً إلى تركيز كل طاقته الفكرية حول هذا الخبر الذي اختلقه ليصل منه إلى ما يريد من هدايته .

« قال : فقام سعد مغضباً مبادراً تخوفاً للذي ذكر له من بني حارثة فأخذ الحربة من يده ثم قال : والله ما أراك أغنيت شيئاً ، ثم خرج إليهما ، فلما رآهما سعد مطمئنَّين عرف سعد أن أسيدًا إنما أراد منه أن يسمع منهما ، فوقف عليهما متشتِّماً ، ثم قال لأسعد بن زرارة : يا أبا أمامة أما والله لولا مابيني وبينك من القرابة مارُمْت هذا مني ، أتغشانا في دارنا بما نكره ؟ وقد قال أسعد بن زرارة لمصعب بن عمير : أي مصعب جاءك والله سيد من وراءه من قومه إن يتبعك لايتخلفْ عنك منهم اثنان .

قال : فقال له مصعب : أوَ تقعد فتسمع فإن رضيت أمراً ورغبت فيه قبلته وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره ؟ قال سعد : أنصفت ، ثم ركز

الحربة وجلس ، فعرض عليه الإسلام ، وقرأ عليه القرآن ، قالا : فعرفنا والله في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم ، لإشراقه وتسهُّله .

ثم قال لهما : كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم ودخلتم في هذا الدين ؟ قالا : تغتسل فتَطهَّر وتُطهِّر ثوبيك ثم تشهد شهادة الحق ، ثم تصلي ركعتين ، قال : فقام فاغتسل وطهر ثوبيه ، وتشهَّد شهادة الحق ، ثم ركع ركعتين ، ثم أخذ حربته فأقبل عامداً إلى نادي قومه ومعه أسيد بن حضير .

وهذا هو الموقف العظيم الذي خطط له أسيد والذي كان ينتظر نتائجه لعلمه بمكانة سعد العالية في قومه .

قال : فلما رآه قومه مقبلاً قالوا : نحلف بالله لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم ، فلما وقف عليهم قال : يابني عبد الأشهل كيف تعلمون أمري فيكم ؟ قالوا : سيدنا وأوصلنا وأفضلنا رأياً ، وأيمننا نقيبة ، قال : فإن كلام رجالكم ونسائكم علي حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله » .

وهذه كلمة عظيمة تدل على إيمان قوي ويقين راسخ وشجاعة فذة وحزم نافذ ، فما أعظم آثار الهداية في النفوس ! !

قبل ساعات قلائل كان سعد يهدد دعاة الحق ليحمي ماهو مقتنع به من الباطل ، ثم لما هداه الله تعالى صار يهدد كل من ظل على الباطل من قومه ولم يتبع سبيل الحق .

« قال : فو الله ما أمسى في دار بني عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلما ومسلمة » [1] .

وهكذا تحقق أمل أسعد بن زرارة حينما ذكر أنه لو أسلم سعد لم يتخلف عنه قومه رضي الله عنهم أجمعين .

وإننا في هذا الخبر المثير بقدر مانُقَدِّرُ لأسعد بن زرارة ومصعب بن عمير جهودهما في مجال الدعوة إلى الله تعالى فإننا نقدر لسعد بن معاذ وأسيد بن حضير سرعة استجابتهما لهذه الدعوة مع ما يتمتعان به من سيادة وعزة .

إن النفوس البريئة من اتباع الهوى المتجردة لطلب الحق تتأثر سريعاً بنداء الحق إذا وُجد من يحسن عرضه على الناس ، ويحاول أن يجذبهم إلى النور الذي هداه الله تعالى إليه .

وهكذا دخل هؤلاء السادة في الإسلام بهذه السهولة ، ولقد كان مما هيأه الله تعالى لرسوله ولدينه أن حرب « بعاث » التي سبقت الهجرة بخمس سنين قد أفنت عدداً كبيراً من سادة الأوس والخزرج الكبار ، والكبار الذين ترسخت فيهم السيادة يتمسكون عادة بموروثاتهم التي هي مؤهلات سيادتهم ، ويرون أنه من العيب والنقص أن يتحولوا تابعين

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٥١ - ٥٤ .

وأخرجه الإمام الطبري من طريق ابن إسحاق بإسناده وذكر مثله ٢/ ٣٥٧ .

وذكره الهيثمي وقال : رواه الطبراني مرسلا وفيه ابن لهيعة وفيه ضعف وهو حسن الحديث وبقية رجاله ثقات - مجمع الزوائد ٦/ ٤١ - .

بعدما كانوا متبوعين ، فبقي أغلب السادة في القبيلتين من الصف الثاني الذين مازالوا في سن الشباب أو قد دخلوا في الكهولة كهذين السيدين الجليلين سعد بن معاذ وأسيد بن حضير ، فكانوا أسرع إلى الاستجابة لدعوة الإسلام .

وفي هذا المعنى تقول عائشة رضي الله عنها « كان يوم بعاث يوماً قَدَّمه الله لرسوله ﷺ ، فقدم رسول الله ﷺ وقد افترق ملؤهم وقتلت سرواتهم وجرحوا ، فقدَّمه الله لرسوله ﷺ في دخولهم في الإسلام » (١) .

وقد كان من الكبار الذين سلموا يوم بعاث عبد الله بن أبي ابن سلول الذي كان مؤهلا لسيادة القبيلتين فمنعه كبرياؤه وحسده من الدخول في الإسلام وأصبح زعيم المنافقين إلى أن مات .

* * *

---

(١) صحيح البخاري رقم ٣٧٧٧ و ٣٨٤٦ (٧/ ١١٠ ، ١٥٦) .

١٢ - فهم دقيق وإيمان عميق وتضحية خالدة

(بيعة العقبة الثانية)

إن سيرة رسول الله ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم كلها مواقف رائعة ، وإن من أبرز هذه المواقف موقف الأنصار رضي الله عنهم حينما بايعوا رسول الله ﷺ على حمايته حتى يبلّغ رسالة ربه ، وإن كلفهم ذلك أموالهم وأنفسهم .

وقد أخرج ابن إسحاق رحمه الله خبرهم في السيرة فيما رواه عن كعب بن مالك رضي الله عنه قال بعدما ذكر خروجهم من المدينة إلى مكة : « ثم خرجنا إلى الحج ، فواعدنا رسول الله ﷺ العقبة من أوسط أيام التشريق ، قال : فلما فرغنا من الحج وكانت الليلةُ التي واعدنا رسول الله ﷺ لها ، ومعنا عبد الله بن عمرو بن حرام أبو جابر ، سيد من سادتنا ، أخذناه معنا وكنا نكتم من معنا من قومنا من المشركين أمرنا ، فكلمناه وقلنا له : يا أباجابر إنك سيد من سادتنا ، وشريف من أشرافنا ، وإنا نرغب بك عما أنت فيه أن تكون حطباً للنار غداً ، ثم دعوناه إلى الإسلام ، وأخبرناه بميعاد رسول الله ﷺ إيانا العقبة ، قال : فأسلم وشهد معنا العقبة وكان نقيباً » .

وهنا نقف قليلاً لنتأمل هذا الأسلوب البارع في الدعوة إلى الله ، ومانتج عنه من سرعة في الإجابة وقوة في التأثير .

فهؤلاء الصحابة رضي الله عنهم حينما أرادوا دعوة عبد الله بن

حـرام رضي الله عنه نادوه بكنيتـه ، والنداء بالكنيـة تكريم للرجل عند العرب ورفع من قدره .

ثم أثنوا عليه بأنه سيِّد من ساداتهم وشريف من أشرافهم ، والثناء على الرجل الكريم يُقلِّص من نفسه الأنانية والتعصب للذات ، ويفتح فكره لتقَبُّل الأمور العالية وإن خالفت هوى النفس في بداية الأمر . لأن الثناء على الكريم يُشبع رغبته في النظر إلى حظ النفس من غير طغيان نحو الكبرياء ولاجنوح نحو الغَضِّ من شأن الآخرين ، فتكون مكافأته نحو من أسدى إليه هذا الجميل أن يلين في يده ويسمع قوله لأن كرمه يمنعه من أن يرد من تواضع له وأثنى عليه من غير أن يحقق له مايريد أو بعض ما يريد .

« قال : فنمنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا ، حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله ﷺ نتسلل تسلل القطا مستخفين، حتى اجتمعنا في الشعب عند العقبة ونحن ثلاثة وسبعون رجلاً ، ومعنا امرأتان من نسائنا ، نُسَيبة بنت كعب أمّ عمارة ، وأسماء بنت عمرو بن عدي بن نابي ، إحدى نساء بني سَلِمة وهي أم منيع » .

وهذا نوع رفيع من التخطيط المنظم والتدبير المحكم حيث يتسلل خمسة وسبعون من بين أظهر المشركين ويجتمعون في مكان واحد من غير أن يشعر بهم أحد .

ولاشك أن هاتين المرأتين اللَّتين شهدتا معهم البيعة قد بلغ الإيمان

لديهما من القوة إلى الحد الذي دفعهما إلى ركوب المخاطر والمجازفة بالنفس لتشهدا مشهداً عظيماً طالما تاقت نفوس المؤمنين إليه ، وذلك بسماع كلام من هو أعز عليهم من أنفسهم ﷺ .

قال : فاجتمعنا في الشعب ننتظر رسول الله ﷺ ، حتى جاءنا ومعه عمه العباس بن عبد المطلب ، وهو يومئذ على دين قومه ، إلا أنه أحبّ أن يحضر أمرَ ابن أخيه ويتوثَّق له . فلما جلس كان أوَّلَ متكلم العباس بن عبد المطلب ، فقال : يامعشر الخزرج - قال : وكانت العرب إنما يسمُّون هذا الحيَّ من الأنصار : الخزرج ، خزرجها وأوسها - إن محمداً منّا حيث قد علمتم ، وقد منعناه من قومنا ، ممن هو على مثل رأينا فيه ، فهو في عزّ من قومه ومنعة في بلده ، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم ، واللحوق بكم ، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ، ومانعوه ممن خالفه ، فأنتم وماتحملتم من ذلك ، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم ، فَمنَ الآن فَدَعُوه ، فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده .

قال : فقلنا له قد سمعنا ماقلتَ ، فتكلم يارسول الله ، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت .

قال : فتكلم رسولُ الله ﷺ ، فتلا القرآن ، ودعا إلى الله ، ورغَّب في الإسلام ، ثم قال : أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم » .

وهكذا جاءت هذه البيعة مختصرة في رواية كعب بن مالك رضي الله عنه ، وجاءت مبسوطة في رواية عبادة بن الصامت رضي الله عنه ، وذلك فيما رواه الإمام البيهقي بإسناده عن عبيد بن رفاعة قال : قدِمَتْ روايا خمر فأتاها عبادة بن الصامت فخرقها ، وقال : إنا بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في النشاط والكسل والنفقة في العسر واليسر ، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وعلى أن نقول في الله لاتأخذنا فيه لومة لائم ، وعلى أن ننصر رسول الله ﷺ إذا قدم علينا يثرب بما نمنع منه أنفسنا وأزواجنا وأبناءنا ولنا الجنة ، فهذه بيعة رسول الله ﷺ بايعناه عليها »(١) .

وفي هذا الأثر دلالة واضحة على ما لهذه البيعة من أثر عميق في نفوس أصحابها .

وقد يقال : لماذا يطلب النبي ﷺ الحماية من البشر وهو يعلم أن الله تعالى قادر على أن يحميه بالملائكة عليهم السلام أو بدونهم ؟ فيقال : إن النبي ﷺ مشرِّع لأمته وهو قُدْوَتُهم في أقواله وأفعاله ، فهو يسير في دعوته في السلم والحرب في حدود ما يستطيعه البشر العاديون .

وإذا كان الأنبياء عليهم السلام - على جلالة قدرهم - بحاجة إلى حماية من المؤمنين الصادقين فإن الدعاة إلى الله تعالى الذين ورثوا هذه الدعوة من رسول الله ﷺ أحوج إلى هذه الحماية .

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٤٥١ - ٤٥٢ .

إن الدعـاة المصلحين يواجـهـون أهل البـاطل والإفـسـاد ، وقـد يتـعـرضـون للأذى على أيديهم ، فـهـم بحـاجـة مـاسـة إلى أن يقـوم أهل التقوى بحمايتهم وتأييدهم حتى ينجحوا في مهمتهم ، وقد تكون جهود هؤلاء أكـبـر من جـهـود المصلحين ، لأن جـهـود أهل الإصـلاح إنما تتم بحمايتهم ، وبهم تعمر الدعوة ويثمر الإصلاح .

«قال : فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال : والذي بعثك بالحق نبياً لنمنعنَّك مما نمنع منه أُزُرَنا (١) ، فـبـايعنا يارسـول الله ، فنحن والـلـه أبناء الحروب وأهل الحلقة (٢) ورثناها كابراً عن كابر » .

وهذا مـثـال عـال من المواقـف الإيمانيـة التي تـتـلاشى فـيـهـا المصـالح الذاتيـة في سـبيل خـدمـة المبدإ السامي والـدفـاع عنه ، فلقـد تكفل هؤلاء الصحابة رضي الله عنهم بحماية النبي ﷺ بما يحمون به نساءهم ، وهذا أبلغ مستوى يمكن تصوره من النصرة لأن الإنسان يبذل في حماية عرضه من الطاقة ما لايبذله في حماية نفسه .

ولقـد صدقـوا رضي الله عنهم فيمـا تكفلوا به ، فـحمـوا رسـول الله ﷺ ومنعوه من أعـدائه ، وناصـروا دين الإسـلام بكل مـا أوتوا من قـوة ، حتى استحقوا بجدارة لقب « الأنصار » .

« قال : فاعترض القول - والبراء يكلم رسول الله ﷺ - أبو الهيثم

---

(١) أي نساءنا هو جمع إزار .

(٢) الحلقة بفتح اللام وسكونها اسم للسلاح كله .

ابن التَّيِّهان فقال : يارسول الله إن بيننا وبين الرجال حبالاً [١] وإنا قاطعوها - يعني اليهود - [٢] فهل عسينا إن نحن فعلنا ذلك ، ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟! قال : فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال : بل الدم الدم ، والهدم الهدم ، أنا منكم وأنتم مني ، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم » .

وقوله « بل الدم الدم » يعني من طلب دمكم فقد طلب دمي ، وقوله « والهدم الهدم » يعني القبر والمنزل ، والمعني : أقْبَر حيث تقبرون .

وهكذا كان هذا الاعتراض الوجيه من أبي الهيثم بن التيهان سببا في بروز هذا الموقف الجليل من رسول الله ﷺ حيث أعلن بهذا الكلمات القوية أن موطن المسلم ليس هو الذي ولد فيه وعاش فيه آباؤه من قبل ، وإنما هو الذي يستطيع أن يعبد ربه فيه بحرية ، وأن يطبق فيه الإسلام كاملاً ، ومن هذا المنطلق كانت الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام .

لقد كان رسول الله ﷺ يحب مكة حبا عظيما ، وقد سجل هذا الحب بقوله : « والله إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إليَّ وإلى

---

(١) الحبال العهود .

(٢) يهود المدينة .

الله، ولولا أني أخرجت منك ماخرجت » أخرجه الإمام الترمذي وابن ماجه والدارمي[1] .

ولكن حبه لها لايعني بقاءه فيها والطغيان يَحكُمها ، ويحُول بينه وبين حرية الدعوة ، وتطبيق الإسلام كاملاً ، ولذلك سعى في وقت مبكر في عرض نفسه على القبائل علّه يجد قبيلة تأخذه معها وتنصره حتى يبلغ رسالة ربه ويطبق شريعته .

هذا وقد أصبح رسول الله ﷺ بهذا الموقف قدوة عليا لمن جاء بعده من الدعاة ومرُّوا بمثل هذا الوضع ، ومن ذلك ما جرى بين الشيخ المجدد محمد بن عبد الوهاب والأمير محمد بن سعود رحمهما الله ، حيث وجه له محمد بن سعود أثناء البيعة والتعاقد على نصرة دعوة التوحيد نفس التساؤل ، فرد على الشيخ بنفس جواب رسول الله ﷺ .

هذا وإننا لنلحظ في اعتراض أبي الهيثم بن التَّيِّهان نموذجا من الحرية العالية التي رفع الله تعالى المسلمين إليها بالإسلام ، حيث عبر عما في نفسه بكامل حريته ، مع أنه كان يخاطب رسول الله ﷺ والحال أن أبا الهيثم بن التَّيِّهان يقطع جازماً بأن رسول الله ﷺ لن يسلك معهم إلا ما فيه خيرهم ، ولكنه خشيَ أن يَبُرَّ بهذا الخير قومه وأن يقدِّمهم عليهم .

لقد كان العرب في جاهليتهم من أعظم الناس في عصرهم حرية

(١) سنن ابن ماجه ، المناسك رقم ٣١٠٨ ، جامع الترمذي ، المناقب ، باب ٦٨ ، سنن الدارمي ، السير ، باب ٦٦ .

ولكنهم مع ذلك كانوا مأسورين لإرادة كبرائهم وسادتهم ، فأخرجهم الإسلام من هذا الأسر ليكونوا جميعاً عباداً لله تعالى ولا يستعبد بعضهم بعضاً .

هذا ولما تمت البيعة أراد رسول الله ﷺ أن يؤكدها باختيار مجموعة من أولئك المبايعين يكونون قادة لقومهم يكفلونهم في الاستمرار بالعمل فيما تمت عليه البيعة والنشاط في الدعوة وتطبيق الإسلام ، يقول كعب ابن مالك في روايته المذكورة : « وقد كان رسول الله ﷺ قال : أخرجوا إليَّ منكم اثني عشر نقيبا ليكونوا على قومهم بمافيهم ، فأخرجوا منهم اثني عشر نقيبا ، تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس » .

وقد ذكر ابن إسحاق أسماء هؤلاء النقباء وأنسابهم وهم : أبو أمامة أسعد بن زرارة ، وسعد بن الربيع ، وعبد الله بن رواحة ، ورافع بن مالك بن العجلان ، والبراء ابن معرور ، وعبد الله بن عمرو بن حرام ، وعبادة بن الصامت ، وسعد بن عبادة ، والمنذر بن عمرو ، فهؤلاء التسعة من الخزرج ، ومن الأوس أسيد بن حضير ، وسعد بن خيثمة ، ورفاعة بن عبد المنذر (١) .

قال ابن إسحاق : « فحدثني عبد الله بن أبي بكر أن رسول الله ﷺ

---

(١) قال ابن هشام : وأهل العلم يعدون فيهم أبا الهيثم بن التَّيِّهان ولايعدون رفاعة ، وذكر قصيدة لكعب بن مالك يتحدى فيها زعماء أهل مكة ويبين لهم أن الرهط الذين بايعوا لن ينقضوا بيعتهم ، وذكر أسماء النقباء فذكر أبا الهيثم بن التيهان ولم يذكر رفاعة بن المنذر .

قال للنقباء : أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ، ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم وأنا كفيل على قومي - يعني المسلمين - قالوا : نعم » .

وفي هذا النص حدد النبي ﷺ مهمة النقباء ، وهي أن يكفلوا له قومهم فيما يتعلق ببنود البيعة خاصة ، وبكل ما يتعلق بالالتزام بالدين والدعوة إليه والجهاد في سبيله عامة .

ثم إن النبي ﷺ أعطى هذه المهمة قدراً كبيراً من الأهمية حينما شبه هؤلاء النقباء بالحواريين الذين كانوا مع عيسى عليه السلام ، وذلك فيما إذا شعروا بأنهم حلقة في سلسلة ذهبية رافقت الأنبياء عليهم السلام ، ثم زاد الأمر أهمية حينما اعتبر نفسه ﷺ كفيلا على قومه ، وفي ذلك توثيق لأهمية هذا التكليف حيث يكون طرفاً آخر في المسئولية ، كما أن فيه رفعاً لمعنوية هؤلاء النقباء حيث يشاركون رسول الله ﷺ في هذا التكليف ، إضافة إلى رفع ماقد يتوهمه بعض الناس من احتمال نقص الثقة بالمشاركين في تلك البيعة ، فما أعظم هذا التكليف ! وما أبلغ هذا التوجيه النبوي ! .

هذا وإن من أهم فوائد تحديد المسئولين أن ذلك مما يكفل نجاح القضية ، لأن بقاء المسئولية عائمة وسط جمع كبير قد يجعل الأذهان كلها مفرغة من الشعور بالمسئولية وأداء الواجب ، لإمكانية شيوع التواكل بينهم ، بحيث يعتمد كل واحد منهم على أن الآخرين قد قاموا بالأمر المطلوب ، فإذا تركزت المسئولية في أفراد معروفين ، فإن كل واحد منهم يشعر بمسئوليته في حدود قبيلته أو في فرع من فروعها .

والإنسان المؤمن بموجب إيمانه وإخلاصه لابد أن يفكر في الأمور التي تكفل نجاح دعوة الإسلام ، والأمور التي تكون سبباً في إخفاقها ، ولكن حينما يكون مسئولاً فإن تفكيره في هذا الموضوع يتضاعف بقدر مسئوليته ، وذلك أدعى إلى الظفر بالنجاح ، والسلامة من الإخفاق .

« قال ابن إسحاق : وحدثني عاصم بن عُمَر بن قتادة : أن القوم لما اجتمعوا لبيعة رسول الله ﷺ قال العباس بن عبادة بن نضلة الأنصاريُّ أخو بني سالم بن عوف : يامعشر الخزرج ، هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل ؟ قالوا : نعم : قال : إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس ، فإن كنتم ترون أنكم إذا نُهكت أموالكم مصيبةً وأشرافُكم قتلاً أسلمتموه ، فمن الآن فهو والله - إن فعلتم - خزي الدنيا والآخرة ، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نَهكَة الأموال ، وقتل الأشراف فخذوه فهو والله خير الدنيا والآخرة ، قالوا : فإنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف ، فما لنا بذلك يارسول الله إن نحن وفينا بذلك ؟ قال : الجنة ، قالوا : ابسط يدك ، فبسط يده فبايعوه » .

وهذا النص يهدينا إلى الهدف السامي الذي يجب أن يكون ماثلاً أمام كل مسلم وهو يقوم بأي عمل في خدمة الإسلام ، ذلكم هو طلب الفوز بالجنة الذي يترتب على ابتغاء رضوان الله تعالى .

وفي هذا النص دلالة واضحة على أن الصحابة رضي الله عنهم قد

تجردوا لإرادة الآخرة ، ولم يعتبروا الدنيا إلا عرضًا موصلاً للآخرة ، وهذا هو سر نجاحهم في الدنيا وانتصاراتهم الباهرة .

هذا وإن مبايعتهم رسول الله ﷺ على حرب الأحمر والأسود ، وقتل أشرافهم ونهك أموالهم دليل على قوة إيمانهم ، ووعيهم لما يتطلبه الإيمان الحق بهذا الدين .

فالذي يؤمن بهذا الدين كاملاً ويعلم بأن عليه أن يطبقه كاملاً ، وأن يدعو الناس إلى الإيمان به وتطبيقه لابد أن يكون في وعيه وإدراكه أن كثيرين من الناس سيعادونه ويقاومون دعوته ، لأن الإسلام يقاوم في بعض تشريعاته أهواءهم ، ويقضي على أحلامهم وتطلعاتهم المنحرفة ، ولابد أن يكون في تخطيطه وحساباته أن هؤلاء سيتصدون لدعوته بالقوة إذا لزم الأمر ، وأن عليه أن يقاوم ويجاهد حتى تعلو كلمة الله تعالى ، ويتم تطبيق الإسلام .

وهكذا فكر أولئك الصحابة رضي الله عنهم ، وخططوا لما يمكن أن يكون مستقبلاً مع حداثة عهدهم بالإسلام بينما نجد السواد الأعظم من المسلمين في هذا العصر وقد مر على كثير منهم عقود من الزمن وهم يطبقون مافهموه ووعوه من الإسلام .. نجدهم لايفكرون في جهاد الأعداء ولايحسبون حساباً لإمكانية غزو الأعداء بلادهم ، وإن من أهم أسباب ذلك أنهم ورثوا الإسلام على فهم ناقص ووعي قاصر ، فظلوا حياتهم على هذا القصور في الفهم والوعي ، وأصبحوا ينكرون أيّ

دعوة تدعوهم إلى فهم الإسلام كاملاً وتطبيقه كاملاً كما جاء من عند الله تعالى ، ولذلك تقلص مفهوم بعض التكاليف الشرعية في أذهانهم التي من أبرزها الجهاد في سبيل الله تعالى .

وهكذا تمت بيعة أهل المدينة بعدما فهموا مقاصد الإسلام وأدركوا ما يطلبه الإسلام منهم .

وأما رأس الشر في هذا العالم الذي كُتبَ عليه أن يعاصر الشر من أوله إلى آخره في حياة بني آدم ، وهو إبليس اللعين فإنه لم يكن غائباً عن ذلك الإجتماع المبارك ، ولو شاء الله لحال بينه وبين ذلك ، لكن الله جل وعلا أراد له أن يطّلع ، وأن يمتليء قلبه غيظاً وحقداً ، وأن يقوم بما قام به من الإعلان عن ذلك الاجتماع ، ثم لايكون لإعلانه أي أثر في نقض شيء مما تم فيه .

يقول كعب بن مالك رضي الله عنه في روايته المذكورة : « فلما بايعنا رسول الله ﷺ صرخ الشيطان من رأس العقبة بأنفذ صوت سمعته قط : يا أهل الجباجب - والجباجب المنازل - : هل لكم في مذمَّم والصُّباء معه [١] ، قد أجمعوا على حربكم ، قال : فقال رسول الله : هذا أزَبُّ العقبة ، هذا ابن أزْيَب [٢] أتسمع عدو الله : أما والله لأفرغن لك .

---

(١) يريد بمذمَّم : محمداً صلى الله عليه وسلم كما كان المشركون يسمونه سخرية به ، والصباء : جمع صابئ يعني المسلمين سموهم بذلك لخروجهم عن دين قومهم .

(٢) قال ابن هشام : ويقال ابن أزَيْب .

وجاء في رواية أخرجها الطبراني : « وصرخ الشيطان من رأس الجبل : يامعشر قريش هذه الخزرج والأوس تبايع محمداً على قتالكم، ففزعوا عند ذلك وراعهم ، فقال رسول الله ﷺ : لايرُعْكم هذا الصوت فإنه عدو الله إبليس ليس يسمعه أحد ممن تخافون ، وقام رسول الله فصرخ بالشيطان : يا ابن أَزَبّ هذا عملك فسأفرغ لك .

ذكره الهيثمي وقال : رواه الطبراني هكذا مرسلاً وفيه ابن لهيعة وحديثه حسن وفيه ضعف (١) .

هذا وإن موقف رسول الله ﷺ في ثباته وتهديده الشيطان دليل على قوة قلبه وشجاعته ، وعلمه اليقيني بضعف كيد الشيطان أمام قوة إيمان المؤمنين الموصولين بحبل الله المتين ، وإذا كان النبي ﷺ قد أخبر بأن الشيطان يفر من عمر كما سيأتي فكيف يقف لرسول الله ﷺ ؟! .

قال كعب بن مالك في هذه الرواية : «ثم قال رسول الله ﷺ : ارْفَضُّوا إلى رحالكم ، قال فقال له العباس بن عبادة بن نضلة : والله الذي بعثك بالحق إن شئت لنميلَنَّ على أهل منى غداً بأسيافنا ! قال فقال رسول الله ﷺ : لم نؤمر بذلك ، ولكن ارجعوا إلى رحالكم ، قال : فرجعنا إلى مضاجعنا فنمنا عليها حتى أصبحنا » .

وهذا الإقدام الرائع والتطلع السريع للجهاد دليل يضاف إلى ما سلف ذكره على قوة إيمان أولئك الصحابة حيث تخطوا مرحلة الالتزام

---

(١) مجمع الزوائد ٦/ ٤٧ .

الخاص ، والدعوة إلى الإسلام ، إلى مرحلة الجهاد في سبيل الله تعالى، وبهذا التوثب نحو معالي الأمور والاستعداد المبكر لمقارعة الأعداء كان قسط كبير من نجاح هؤلاء المؤمنين في نزالهم مع الأعداء بعد ذلك .

وفي قول رسول الله ﷺ « لم نؤمر بذلك » تركيز تربوي على أمر مهمّ وهو أن الدفاع عن الإسلام ، والتعامل مع أعداء هذا الدين ليس متروكاً لاجتهاد اتباعه وإنما هو خضوع لأوامر الله تعالى وتشريعاته الحكيمة ، فإذا شرع الجهاد فإن أمر الإقدام أو الإحجام متروك لنظر المجتهدين بعد التشاور ودراسة الأمر من جميع جوانبه .

هذا وبالرغم من كون أولئك المسلمين من الأوس والخزرج يشكّلون جماعة كبيرة بالنسبة لذلك الزمن فقد وصلوا إلى مضارب قومهم ولم يشعر بهم أحد ، ومن غير شك أنهم تسللوا متفرقين كما جاؤوا حتى لايلفتوا الأنظار بجماعتهم .

ومما يدل على أن قومهم لم يشعروا بهم ماكان من جواب قومهم من المشركين لمشركي مكة حينما اتهموهم بالتخطيط لإخراج رسول الله ﷺ إلى المدينة والاتفاق معه على حربهم كما جاء في هذه الرواية حيث يقول كعب بن مالك : « فلما أصبحنا غَدَتْ علينا جلّة قريش حتى جاؤونا في منازلنا فقالوا : يامعشر الخزرج إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا وتبايعونه على حربنا ، وإنه والله مامن حَيّ من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم ،

قال : فانبعث مَنْ هناك من مشركي قومنا يحلفون بالله ما كان من هذا شيء وما علمناه ، قال : وقد صدقوا ، لم يعلموه : قال : وبعضنا ينظر إلى بعض .

قال : ثم قام القوم وفيهم الحارث بن هشام بن المغيرة المخزومي ، وعليه نعلان جديدتان ، قال : فقلت كلمة كأني أريد أن أشرك القوم بها فيما قالوا : يا أبا جابر أما تستطيع أن تتخذ وأنت سيد من ساداتنا مثل نعلي هذا الفتى من قريش ؟ قال : فسمعها الحارث ، فخلعهما من رجليه، ثم رمى بهما إليّ وقال : لتَنْتَعِلَنَّهما ، قال : يقول أبو جابر : مَهْ احفظت والله الفتى [1] فاردد إليه نعليه ، قال قلت : والله لا أردهما ، فأل والله صالح ، لئن صدق لأسلبنَّه » .

هذا وإن معرفة مشركي مكة بلقاء تم بين الرسول ﷺ ومسلمي المدينة قد يكون لأن بعضهم أحسوا ببعض الاتصالات الأخرى التي تمت بزيارة فرد أو أفراد لرسول الله ﷺ إن كان وقع شيء من ذلك ، حيث لم يحدِّد المشركون مكان ولازمان هذا اللقاء الذي ارتابوا منه .

أما صياح الشيطان من فوق الجبل فمن المؤكد أنهم لم يسمعوه لقول رسول الله ﷺ السابق : « لايرعكم هذا الصوت فإنه عدو الله إبليس ، ليس يسمعه أحد ممن تخافون » وهذا من دلائل نبوته ﷺ حيث أخبر

---

(١) يعني اكفف فقد أغضبته .

بشيء لايمكن معرفته إلا بإعلام الله تعالى إياه بذلك ، كما أنه مَعْلَم من معالم معية الله تعالى لأوليائه بالحماية والتأييد .

ومن الحِكَم البالغة في سماع المسلمين ذلك الصوت وحجبه عن الكافرين مع أن الشيطان قد وجهه إليهم تقوية إيمان أولئك المؤمنين والربط على قلوبهم وهم يستقبلون واقعا مليئا بالابتلاءات والتضحيات.

ومما يدل على عدم سماع المشركين ذلك الصوت أن المسلمين وصلوا إلى مضارب قومهم وباتوا تلك الليلة من غير أن يشعر بهم أحد ، ولو كان المشركون سمعوا ذلك الصوت لهبُّوا من نومهم وسارعوا إلى مضارب الأوس والخزرج لمعرفة حقيقة ماجرى .

وقول كعب عن نعلي الحارث بن هشام لاقيمة له بحد ذاته ، ولكن قيمته في أن كعبا أراد أن يُشغل القوم بواقعة حاضرة ، هي وإن كانت صغيرة إلا أنها تشغل تفكيرهم عن قراءة ماقد يظهر على وجوه بعض المؤمنين من انفعال يوحي بأن لديهم معرفة بما وَجَّه إليهم القرشيون من اتهام ، وقد انشغلوا بها فعلاً ، ما بين كرم فياض من ذلك القرشي وعتاب من أبي جابر عبد الله بن حرام لكعب بن مالك ، فحصل ما أراده كعب من تلك المشاركة .

هذا وإن في قول كعب حينما ألقى إليه الحارث بن هشام نعليه : «فَأل صالح ، لئن صدق الفأل لأسلبنه » لفتة جليلة تدلنا على نموذج مما كان يدور في أفكار أولئك الصحابة الكرام ،حيث ذهب فكر ذلك

الصحابي حالاً إلى الجهاد في سبيل الله تعالى فقارن بين حصوله على نعلي ذلك الرجل وبين أخذ سلبه إذا قتله في المعركة ، وهذا يعطينا تصورا واضحا لبروز الروح الجهادية لدى المسلمين آنذاك ، والتي نجحوا بها في إقامة دولة الإسلام الكبرى .

إن نجاح كل أمة يترتب على مايدور في أفكار أفرادها بشكل ضاغط يُحوِّل تلك الأفكار إلى قضية تشغل بالهم وتستحوذ على تفكيرهم ، وبقدر ضخامة هذه القضية ، وطموح أصحابها نحو السمو إلى المعالي يكون تقدم تلك الأمة ، وبقدر ضآلة القضية وتقاعس أصحابها يكون تخلف تلك الأمة .

والآن بعد أن عرفنا تشكك زعماء مكة في ذلك الخبر ، فهل استمروا على ذلك الارتياب ؟

إن آخر الرواية يفيد بأن ارتيابهم استمر وأنهم تأكدوا من الخبر ولكن بعد رحيل حجاج المدينة ، يقول كعب بن مالك رضي الله عنه : «ونفر الناس من منى ،فتنطَّس القوم الخبر (١) فوجدوه قد كان ، وخرجوا في طلب القوم فأدركوا سعد بن عبادة بأذاخر ، والمنذر بن عمرو أخا بني ساعدة بن كعب بن الخزرج ، وكلاهما كان نقيبا ، فأما المنذر فأعجز القوم ، وأما سعد فأخذوه ، فربطوا يديه إلى عنقه بنسع رحله ، ثم أقبلوا به حتى أدخلوه مكة يضربونه ويجذبونه بجُمَّته ، وكان ذا شعر كثير .

---

(١) يعني استقصوه وتحروا عنه .

قال سعد : فو الله إني لفي أيديهم إذ طلع عليهم نفر من قريش فيهم رجل وضيئ أبيض شعشاع حلو من الرجال ، قال فقلت في نفسي: إن يك عند أحد من القوم خير فعند هذا ، قال فلما دنا مني رفع يده فلكمني لكمة شديدة ، قال : فقلت في نفسي : لا والله ما عندهم بعد هذا من خير (١).

قال : فو الله إني لفي أيديهم يسحبونني إذ أوى لي رجل ممن كان معهم (٢) فقال : ويحك أما بينك وبين أحد من قريش جوار ولاعهد ؟ قال قلت : بلى والله لقد كنت أجير لجبير بن مُعطم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف تُجَّاره ، وأمنعهم ممن أراد ظلمهم ببلادي ، وللحارث بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف .

قال : ويحك فاهتف باسم الرجلين واذكر مابينك وبينهما ، قال : ففعلت ، وخرج ذلك الرجل إليهما فوجدهما عند الكعبة ، فقال لهما : إن رجلا من الخزرج الآن يضرب بالأبطح ويهتف بكما ، ويذكر أن بينه وبينكما جوارا ، قالا : ومن هو ؟ قال : سعد بن عبادة ، قالا :صدق والله إن كان ليجير لنا تُجَّارنا ، ويمنعهم أن يظلموا ببلده ، قال : فجاءا فخلَّصا سعدا من أيديهم فانطلق (٣) .

---

(١) وهذا الرجل هو سهيل بن عمرو كما ذكر ابن إسحاق .

(٢) وهو أبو البَخْتَري بن هشام كما ذكر ابن هشام .

(٣) سيرة ابن هشام ٢/ ٥٦ - ٦٩ .

وأخرجه الإمام أحمد بنحوه [1] وقال الهيثمي رواه أحمد والطبراني بنحوه ورجال أحمد رجال الصحيح غير ابن إسحاق وقد صرح بالسماع [2] .

وأخرجه الحاكم وذكر نحوه وقال : هذا حديث صحيح جامع لبيعة العقبة ولم يخرجاه وأقره الذهبي[3] .

وأخرجه الإمام أحمد والبزار من حديث جابر رضي الله عنه وذكر نحوه ، ذكره الهيثمي وقال : ورجال أحمد رجال الصحيح [4] .

لقد أظهر الكفار شراستهم وانتقامهم حينما ظفروا بواحد من مسلمي المدينة ، ولم يخلصه منهم إلا معرفته باثنين من أشرافهم كان يحمي تجارهما إذا قدموا المدينة .

وهكذا كانت حياة المشركين في مكة حيث يتزعمهم مجموعة من الطغاة ، كانوا يعتبرون أنفسهم سادة البلد ، ويحترم بعضهم بعضاً غاية الاحترام ، ويحفظ بعضهم حقوق بعض ، ومبادئهم التي يرجعون إليها ويقدسونها تخضع لمصالحهم الشخصية ، فهذا سعد بن عبادة قد قبضوا عليه بتهمة التآمر على مقدساتهم التي يعظمونها ، وعذبوه من أجل

---

(١) مسند أحمد ٣/ ٤٦٠ - ٤٦٢ .

(٢) مجمع الزوائد ٦/ ٤٥ .

(٣) المستدرك ٢/ ٦٢٤ - ٦٢٥ .

(٤) مجمع الزوائد ٦/ ٤٦ .

ذلك ، ثم أفرجوا عنه حالاً حينما تدخل رجلان منهم كان له معروف سابق عليهما .

وهكذا الطغاة في كل زمن يرفعون شعارات وهمية يعتبرونها مبادئ سامية ، يدعون إليها بحماس ، ويدافعون عنها بقوة ، ويحملون الناس على اعتناقها ، ومن خالفهم فيها كان مصيره السجون والتعذيب والتشريد ، ثم يكون هؤلاء الطغاة هم أول من ينقض أنظمة هذه المبادئ إذا خالفت منافعهم الشخصية ، والحق عندهم مارأوه وقرروه ولو كان ذلك مجاملة لواحد منهم ، وقد يغيرون المبادئ التي كانوا يقدسونها إذا فقدت بعض مفعولها ، وينتحلون مبادئ أخرى يرون أنها تحقق لهم قدراً أكبر من التضليل واستغلال غفلة العقول .

والحقيقة الكبرى أن مبادئ هؤلاء المقدسة إنما هي مصالحهم الخاصة، فمن أجلها يشرِّعون ، ومن أجلها ينقضون ماشرعوا ، ومن أجلها يوالون ، ومن أجلها يعادون .

هذا وقد كان لحسان بن ثابت رضي الله عنه موقف يذكر في إسهامه بشعره الرائع في الدفاع عن الإسلام والمسلمين ، وتبكيت المشركين ، وقد قال في خبر ملاحقة المشركين للأنصار شعراً يردُّ به على أحد شعراء المشركين ، وفي ذلك يقول ابن إسحاق : وكان أول شعر قيل قبل الهجرة بيتين قالهما ضرار بن الخطاب بن مرداس أخو بني محارب بن فهر[١]،

---

(١) ينبغي ان يعلم بأنه أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه رضي الله عنه .

فقال :

تداركت سعدا عنوةً فأخذته وكان شفاء لو تداركت منذراً
ولو نلته طُلّت[1] هناك جراحه وكان حريّاً أن يُهان ويهدرا

وقد ذكر ابن إسحاق أن حسان بن ثابت رضي الله عنه أجابه بأبيات منها :

ولست إلى سعد ولا المرء منذر إذا ماطايا القوم أصبحن ضُمَّرا [2]
فلا تك كالوسنان يحلم أنه بقرية كسرى أو بقرية قيصرا
فإنا ومن يُهدى القصائد نحونا كمُستبضع تمرا إلى أرض خيبرا[3]

* * *

(١) أي أهدرت .

(٢) جمع ضامر ، والضامر من الخيل والإبل الخفيف اللحم من التدريب والعمل لا من الهزال .

(٣) سيرة ابن هشام ٢/ ٦٩ - ٧٠ .

١٣ - من مغامرات شباب الإيمان

قال محمد بن إسحاق رحمه الله في بيان ماقام به الأنصار بعد عودتهم من بيعة العقبة الثانية : فلما قدموا المدينة أظهروا الإسلام بها ، وفي قومهم بقايا من شيوخ لهم على دينهم من الشرك ، منهم عمرو بن الجموح بن زيد بن حرام بن كعب بن غَنْم بن كعب بن سَلِمة ، وكان ابنه مُعاذ بن عمرو شهد العقبة ، وبايع رسول الله ﷺ بها ، وكان عمرو بن الجموح سيداً من سادات بني سلمة وشريفًا من أشرافهم ، وكان قد اتخذ في داره صنماً من خشب ، يقال له : مناة ، كما كانت الأشراف يصنعون، يتخذه إلهاً يعظمه ويطهره .

فلما أسلم فتيان بني سَلمة : معاذ بن جبل ، وابنه معاذ بن عمرو بن الجموح ، في فتيان منهم ممن أسلم وشهد العقبة ، كان يُدلجُون (١) بالليل على صنم عمرو ذلك ، فيحملونه فيطرحونه في بعض حفر بني سلمة ، وفيها عِذَرُ (٢) الناس ، منكساً على رأسه .

فإذا أصبح عمرو قال : ويلكم ! من عدا على إلهنا هذه الليلة ؟ قال: ثم يغدو يلتمسه ، حتى إذا وجده غسله وطهره وطيبه ، ثم قال : أما والله لو أعلم من فعل هذا بك لأخزينه ، فإذا أمسى ونام عمرو عدَوْا عليه ، ففعلوا به مثل ذلك ؛ فيغدو فيجده في مثل ما كان فيه من الأذى فيغسله ويطهره ويطيبه ، ثم يعدون عليه إذا أمسى ، فيفعلون به مثل ذلك .

---

(١) أي يغيرون في الليل .

(٢) أي أوساخ .

فلما أكثروا عليه ، استخرجه من حيث ألقوه يوماً ، فغسله وطهره وطيبه ، ثم جاء بسيفه فعلقه عليه ، ثم قال : إني والله ما أعلم من يصنع بك ما ترى ، فإن كان فيك خير فامتنع ، فهذا السيف معك .

فلما أمسى ونام عمرو عدوا عليه ، فأخذوا السيف من عنقه ، ثم أخذوا كلباً ميتاً فقرنوه به بحبل ، ثم ألقوه في بئر من آبار بني سَلِمة ، فيها عِذَر من عذَر الناس ، ثم غدا عمرو بن الجموح فلم يجده في مكانه الذي كان به فخرج يتبعه حتى وجده في تلك البئر منكساً مقروناً بكلب ميت فلما رآه وأبصر شأنه ، وكلمه من أسلم من رجال قومه ، فأسلم يرحمه الله وحسن إسلامه .

فقال حين أسلم وعرف من الله ماعرف ، وهو يذكر صنمه ذلك وما أبصر من أمره ، ويشكر الله تعالى الذي أنقذه مما كان فيه من العمى والضلالة :

والله لو كنتَ إلهاً لم تكن ... أنت وكلب وسْط بئر في قَرَنْ
أُفٍّ لمَلْقاك إلهاً مستَدَنْ ... ألآن فتشناك عن سوء الغبَنْ
الحمد لله العلي ذي المنن ... الواهب الرزاق ديان الدِّين
هو الذي أنقذني من قبل أن ... أكون في ظلمة قبر مرتهن
بأحمد المَهْدي النبي المؤتمن (١)

وهكذا رأينا شباب الإيمان معاذ بن جبل ومعاذ بن عمرو بن الجموح

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٧٠ - ٧٢ .

وأصحابهما يحاولون إقناع بعض شيوخ قبيلتهم بالإسلام ، فلما رأوا عمرو بن الجموح مصراً على عبادة صنمه قاموا بتلك الغارات الليلية على ذلك الصنم حيث كانوا يأخذونه ويضعونه في وضع مهين مشين يفهم منه من رآه على تلك الحال أنه حقير لايستحق شيئاً من الاهتمام فضلاً عن العبادة .

لقد ساء هؤلاء الشباب الذين نور الله تعالى بصائرهم أن يروا شيخاً من شيوخهم ما زال يتمسك بأوهام الجاهلية ،ويحجب بصره بظلماتها، فقاموا بتلك المغامرات لإخراجه من ذلك الوضع المزري الذي يحجب عنه سعادة الدنيا والآخرة ، فنجحوا في مهمتهم وكسبوا رجلاً كان له دور بارز في تثبيت الإسلام في قبيلته .

ويصل عمرو بن الجموح قبل أن يهديه الله تعالى إلى وضع يخزي العقل البشري وينحط به إلى أسفل الدركات من المهانة والذل والسذاجة حيث يضع سيفه على صنمه ويخاطبه طالباً منه أن يدفع الاعتداء عن نفسه ، ولاأدري كيف ينحدر العقل البشري حتى يتصور أن صنماً من الخشب يستطيع أن يدافع عن نفسه ، ولكنه صحا من غفوته وتنبه من غفلته حينما رآه من الغد مجرداً من سيفه مقروناً بكلب ميت مُلْقًى في موضع قذر ، فهل يبقى بعد ذلك أي مسوِّغ لتقديسه وعبادته ؟

فلهذا هداه الله تعالى وقال تلك الأبيات التي يندب حظه فيها مع ذلك الصنم الذي سلب لبه وحوَّله إلى رجل ساذج مغفل .

إن هذا يعتبر مثلاً على سذاجة أفكار أهل الجاهلية ، وانحصار تفكيرهم في مجالات ضيقة محدودة .

كما أنه يعتبر مثلاً على انطلاق تفكيرهم بعد الإسلام في مجالات فسيحة رحبة لاتحدُّها الأرض ولا مفاهيم البشر المعاصرين .

ومقارنة بين نظرة ابن الجموح إلى صنمه حال جاهليته وبين نظرته إليه بعد إسلامه تبين لنا البعد الشاسع بين الجاهلية والإسلام ، والنقلة العالية التي رفع الله تعالى بها المسلمين بعد إسلامهم .

لقد أصبح عمرو بن الجموح رضي الله عنه بعد إسلامه يسابق الشباب إلى ميادين الجهاد في سبيل الله تعالى حتى استشهد يوم أحد ، وذلك بعد حياة إسلامية مليئة بالعبادة والفكر العالي المتطلع إلى بلوغ الهدف الإسلامي النبيل ، وذلك بالظفر برضوان الله تعالى والسعادة الأخروية .

فما أعظم الإسلام منقذاً للبشريه من أوهاق الكفر والضلالة، ومخرجا لهم من الظلمات إلى النور !

* * *

١٤ - مثل من الاهتمام بأمور المسلمين

لقد كان رسول الله ﷺ عظيم الاهتمام بأمور المسلمين الذين دخلوا في الإسلام من أهل المدينة وكان يتابع أخبار أفرادهم بالرغم مما كان يعاني منه هو وأصحابه في مكة من شدة أذى الكفار وحصارهم إياهم ورقابتهم عليهم .

ومن أمثلة هذا الاهتمام الكبير ما أخرجه الإمام البيهقي بإسناده عن يونس بن بكير عن ابن إسحاق قال حدثني عاصم بن عمر بن قتادة ، قال: « كانت حواء بنت زيد بن السكن عند قيس بن عبيد الخطيب - كذا قال وإنما هو ابن الخطيم بالمدينة - وكانت أمها عقرب بنت معاذ أخت سعد بن معاذ ، فأسلمت حواء ، فحسن إسلامها ، وكان زوجها قيس على كفره ، فكان يدخل عليها وهي تصلي ، فيؤذيها ، وكان لايخفَى على رسول الله ﷺ أمر يكون بالمدينة إلا بلغه وأُخبر به .

قال قيس فقدمت مكة في رهط من مشركي قومي حُجَّاجًا ، فبينا نحن [١] إذ جاء رجل يسأل عني فدُلَّ عليَّ فأتاني فقال أنت قيس ؟ قلت نعم قال زوج حواء ؟ قلت : نعم قال فمالك تعبث بامرأتك وتؤذيها على دينها ؟ فقلت : إني لا أفعل ، قال : فلا تفعل ذلك بها دعها لي ، قلت: نعم ، فلما قدم قيس المدينة ذكر ذلك لامرأته وقال فَشَأْنَك بدينك فوالله ما رأيته إلا حَسَنَ الوجه حَسَنَ الهيئة [٢] .

* * *

(١) هكذا جاء في الرواية وقد سقط منها بيان الحال التي كانوا عليها

(٢) دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٤٥٥ - ٤٥٦

١٥ - الهجرة إلى المدينة النبوية

لقد كان العهد المكي منذ أن أعلن رسول الله ﷺ دعوته حافلا بصنوف الأذى لرسول الله ﷺ وللمؤمنين من المشركين الذين كانوا يسيطرون على مكة المكرمة كما تقدم ذكر أمثلة لذلك .

ولقد كان موقف الرسول ﷺ وأصحابه إزاء ذلك هو الصبر الجميل وانتظار الفرج من الله تعالى .

ولقد حصل نوع من الفرج لبعض الصحابة بالهجرة إلى الحبشة ولكن تلك الهجرة لم تكن شاملة لجميع المسلمين ، كما أنه لم يُقصد منها إقامة دولة الإسلام في تلك البلاد .

ولما أن بلغت الدعوة في مكة نهايتها واستنفدت مقاصدها أذن الله تعالى لرسوله ﷺ وللمسلمين بالهجرة إلى المدينة النبوية بعد أن انتشر الإسلام فيها وأصبح المسلمون من أهلها هم أصحاب القوة والغلبة .

ولقد أخبر النبي ﷺ المسلمين بدار هجرتهم التي قدرها الله تعالى لهم ، ومما جاء في ذلك ما أخرجه الإمام البخاري من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « رأيت في المنام أني أهاجر من مكة إلى أرض بها نخل فذهب وهلي إلى أنها اليمامة أو هجر ، فإذا هي المدينة : يثرب » (١) .

وجاء في حديث آخر أخرجه الإمام البخاري من حديث عائشة

---

(١) صحيح البخاري ، مناقب الأنصار باب ٤٥ (٧/ ٢٢٦) .

رضي الله عنها قالت : فقال النبي ﷺ للمسلمين : « إني أُريتُ دار هجرتكم ذات نخل بين لابتين ،وهما الحرتان . فهاجر من هاجر قِبلَ المدينة ، ورجع عامة من كان هاجر بأرض الحبشة إلى المدينة ، وتجهز أبو بكر قِبَل المدينة ، فقال له رسول الله ﷺ : على رِسْلك ، فإني أرجو أن يُؤْذن لي . فقال أبو بكر : وهل ترجو ذلك بأبي أنت ؟ قال : نعم . فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ﷺ ليَصحبه وعلف راحلتين كانتا عنده ورق السَّمُر - وهو الخَبَط - أربعة أشهر (١) .

ولقد وجه النبي ﷺ أصحابه إلى الهجرة وأمرهم بها .

أخرج ابن سعد من طريق شيخه محمد بن عمر الواقدي قال : حدثني معمر بن راشد عن الزهري عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف ، وعن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالا : لما صدر السبعون من عند رسول الله ﷺ ، طابت نفسه وقد جعل الله له منعة وقوماً أهل حرب وعُدة ونجدة ، وجعل البلاء يشتد على المسلمين من المشركين لما يعلمون من الخروج ، فضيقوا على أصحابه وتعبثوا بهم ونالوا منهم ما لم يكونوا ينالون من الشتم والأذى ، فشكا ذلك أصحاب رسول الله ﷺ واستأذنوه في الهجرة ، فقال : قد أريت دار هجرتكم ، أُريت سبخة ذات نخل بين لابتين ، وهما الحرتان ، ولو كانت السراة أرض نخل وسباخ لقلت هي هي .

---

(١) صحيح البخاري رقم ٣٩٠٥ (٧ / ٢٣١) .

ثم مكث أياماً ثم خرج إلى أصحابه مسروراً فقال : قد أُخبرت بدار هجرتكم وهي يثرب ، فمن أراد الخروج فليخرج إليها ، فجعل القوم يتجهزون ويتوافقون ويتواسون ويخرجون ويخفون ذلك ، فكان أول من قدم المدينة من أصحاب رسول الله ﷺ أبوسلمة بن عبد الأسد ثم قدم بعده عامر بن ربيعة معه امرأته ليلى بنت حثمة ، فهي أول ظعينة قدمت المدينة .

ثم قدم أصحاب رسول الله ﷺ أرسالاً (١) فنزلوا على الأنصار في دورهم ، فآووهم ونصروهم وآسوهم ، وكان سالم مولى أبي حذيفة يَؤُمُّ المهاجرين بقباء قبل أن يقدم رسول الله ﷺ ، فلما خرج المسلمون في هجرتهم إلى المدينة كَلِبتْ قريش عليهم وحَرِبوا واغتاظوا على من خرج من فتيانهم .

وكان نفر من الأنصار بايعوا رسول الله ﷺ ، في العقبة الآخرة ثم رجعوا إلى المدينة ، فلما قدم أول من هاجر إلى قباء خرجوا إلى رسول الله ﷺ بمكة حتى قدموا مع أصحابه في الهجرة فهم مهاجرون أنصاريون، وهم : ذكوان بن عبد قيس ، وعقبة بن وهب بن كلدة،والعباس بن عبادة بن نضلة ، وزياد بن لبيد .

---

(١) أي متتابعين جماعة بعد جماعة .

وخرج المسلمون جميعاً إلى المدينة ، فلم يبق بمكة منهم إلا رسول الله ﷺ ، وأبو بكر وعلي ، أو مفتون محبوس ، أو مريض ، أو ضعيف عن الخروج (١) .

وأخرج محمد بن إسحاق هذا الخبر مختصراً (٢) .

ولقد كانت الهجرة صعبة على المسلمين الذين ولدوا ونشؤوا بمكة ولكنهم هاجروا منها استجابة لأمر الله تعالى ورسوله ﷺ .

وقد رُويت أشعار وأقوال تدل على صعوبة مفارقة الوطن على المهاجرين ، ومن ذلك قول بلال رضي الله عنه :

ألا ليت شعري هل أبيتنَّ ليلة بوادٍ وحولي إذخر وجَليل
وهل أردَنْ يوماً مياه مِجَنَّة وهل يبدوَنْ لي شامة وطفيل (٣)

ومما جاء من الأشعار التي تصور مشاعر المسلمين حول الهجرة قول أبي أحمد بن جحش رضي الله عنه :

---

(١) طبقات ابن سعد ١/ ٢٢٦ .

(٢) سيرة ابن هشام ٢/ ٨٨ .

(٣) صحيح البخاري رقم ٣٩٢٦ .

والإذخر والجليل نوعان من النبات ، ومجنة مكان على بعد أميال من مكة وبه السوق المشهور ، وشامة وطفيل جبلان بمكة (الفتح ٧/ ٢٦٣) .

ولـمـا رأتـني أم أحـمد غـاديـــاً　　بذمة من أخشى بغَيْب وأرهبُ

تقـول : فـإمَّـا كنــت لابـد فاعــلا　　فيمِّم بنـا البـلدان ولتُنْأ يثرب

فقلت لها : بـل يثـرب الـيوم وجهنا　　ومايشإ الـرحمن فالعبد يركب

إلى الله وجهي والرسول ، ومن يُقم　　إلى الله يـوما وجهه لايُخيَّب

فكـم قـد تـركنا من حميم مـناصـح　　وناصـحة تبكي بدمع وتندب

ترى أن وتـراً نـأيُنا عـن بـلادنـا　　ونحن نرى أن الرغائب نطلب(١)

* * *

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٩٤ .

١٦ - هجرة أبي سلمة ومثل من الصبر الجميل

قال ابن إسحاق : فكان أول من هاجر إلى المدينة من أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين ، من قريش ، من بني مخزوم أبو سلمة بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، واسمه عبد الله ، هاجر إلى المدينة قبل بيعة أصحاب العقبة بسنة ، كان قَدم على رسول الله ﷺ مكة من أرض الحبشة ، فلما آذته قريش وبلغه إسلام من أسلم من الأنصار ، خرج إلى المدينة مهاجراً .

قال ابن إسحاق : فحدثني أبي إسحاق بن يسار عن سلمة بن عبد الله بن عمر بن أبي سلمة ، عن جدته أم سلمة ، زوج النبي ﷺ قالت : لما أجمع أبو سلمة الخروج إلى المدينة رحَّل لي بعيره ثم حملني عليه ، وحمل معي ابني سلمة بن أبي سلمة في حجري ، ثم خرج بي يقود بي بعيره ، فلما رأته رجال بني المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم قاموا إليه فقالوا : هذه نفسك غلبتَنَا عليها ، أرأيت صاحبتك هذه ؟ علامَ نتركك تسير بها في البلاد ؟ قالت : فنزعوا خطام البعير من يده فأخذوني منه .

قالت : وغضب عند ذلك بنو عبد الأسد رهط أبي سلمة ، فقالوا : لا والله لانترك ابننا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا . قال : فتجاذبوا بُنَيَّ سلمة بينهم حتى خلعوا يده ، وانطلق به بنو عبد الأسد ، وحبسني بنو المغيرة عندهم ، وانطلق زوجي أبو سلمة إلى المدينة . قالت : فَفُرِّق بيني وبين زوجي وبين ابني .

قالت : فكنت أخرج كل غداة فأجلس بالأبطح فما أزال أبكي ، حتى أُمسي سنةً أو قريباً منها ، حتى مر بي رجل من بني عمي ، أحد بني المغيرة ، فرأى مابي فرحمني فقال لبني المغيرة : ألا تُخرجون هذه المسكينة ! فرقتم بينها وبين زوجها وبين ولدها ! قالت : فقالوا لي : الحقي بزوجك إن شئت . قالت : وردَّ بنو عبد الأسد إليَّ عند ذلك ابني .

قالت : فارتحلت بعيري ، ثم أخذت ابني فوضعته في حجري ، ثم خرجت أريد زوجي بالمدينة . قالت : وما معي أحد من خلق الله ، قالت : فقلت : أتبلَّغ بمن لقيت حتى أقدم على زوجي ، حتى إذا كنت بالتنعيم لقيت عثمان بن طلحة بن أبي طلحة ، أخا بني عبد الدار فقال لي : إلى أين يابنت أبي أمية ؟ قالت : فقلت : أريد زوجي بالمدينة . قال : أو ما معك أحد ؟ قالت : فقلت : لا والله ، إلا الله وبُنيَّ هذا .

قال : والله مالك من مَتْرك ، فأخذ بخطام البعير فانطلق معي يَهْوي بي فو الله ماصحبت رجلاً من العرب قط أرى أنه كان أكرم منه ، كان إذا بلغ المنزل أناخ بي ، ثم استأخر عني ، حتى إذا نزلت استأخر ببعيري فحط عنه ثم قيده في الشجرة ، ثم تنحى عني إلى شجرة ، فاضطجع تحتها ، فإذا دنا الرواح قام إلى بعيري فقدمه فرحله ، ثم استأخر عني ، وقال : اركبي ، فإذا ركبت واستويت على بعيري أتى فأخذ بخطامه ، فقاده ، حتى ينزل بي . فلم يزل يصنع ذلك بي حتى

أقدمني المدينة فلما نظر إلى قرية بني عمرو بن عوف بقباء ، قال : زوجك في هذه القرية - وكان أبوسلمة نازلا فيها - فادخليها على بركة الله ، ثم انصرف راجعاً إلى مكة .

قال : فكانت تقول : والله ما أعلم أهل بيت في الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبي سلمة ، وما رأيت صاحبا قط كان أكرم من عثمان بن طلحة (١) .

في هذا الخبر مثل من قساوة المشركين وفظاظتهم ، حيث لا يردَعُهم عن الظلم رادع إلا خوف محاسبة الناس في الدنيا وانتقامهم ، وقد أمنوا حساب الدنيا في معاملتهم لهذه المرأة المسكينة ، وهم لايؤمنون بحساب الآخرة الذي لايفرق بين قوي وضعيف وشريف ووضيع لأنهم لايُؤمنون بالآخرة .

وأخيرا أدركت الرحمة أحد أقارب أم سلمة رضي الله عنها فطالب بإنصافها بدافع من القرابة ، ونجت من يد الأعداء ولكن كيف لها أن تسافر ذلك السفر الطويل وحدها ؟ وهنا يقيض الله تعالى لها عثمان بن طلحة العبدري رضي الله عنه الذي أبت شهامته أن يتركها تسافر وحدها فصحبها طول الطريق وقام بشئونها خير قيام .

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٨٨ - ٩١ .

وعثمان بن طلحة هو العبدري حاجب البيت ، أسلم بعد الحديبية وهاجر مع خالد بن الوليد ، وشهد الفتح مع النبي صلى الله عليه وسلم فأعطاه مفتاح الكعبة - الإصابة ٢/ ٤٥٢ رقم ٥٤٤٢ - .

وإن ظهور هذا السيد الشهم لها واستعداده للسفر معها وهي على أبواب مغادرة مكة دليل واضح على عناية الله تعالى بأوليائه وتسخيره لهم ، فهو جل وعلا الذي سخر قلب ذلك الرجل للعناية بها وبَذْل الجهد والوقت من أجلها .

ومما ينبغي أن يلاحظ أن عثمان بن طلحة لم يكن آنذاك مسلما ، ومع ذلك قدَّم هذه الخدمة الجليلة لامرأة كانت على دين أعدائه ، وهذا مثل مما كان العرب يتصفون به من مكارم الأخلاق ، وخاصة قبيلة قريش التي اختار الله جل وعلا نبيه ﷺ منها .

* * *

١٧ - مثل من فطنة عمر وإيثار إخوانه

(هجرة عمر وخبره مع عياش بن أبي ربيعة)

قال ابن إسحاق: « ثم خرج عمر بن الخطاب، وعياش بن أبي ربيعة المخزومي حتى قدما المدينة، فحدثني نافع مولى عبد الله بن عمر ابن عبد الله بن عمر عن أبيه عمر بن الخطاب، قال: اتَّعدت، لما أردنا الهجرة إلى المدينة، أنا وعياش بن أبي ربيعة، وهشام بن العاصي بن وائل السهمي التناضبَ من أضاة بني غفار [1] فوق سَرِف [2] وقلنا: أينا لم يصبح عندها فقد حُبس فليمض صاحباه قال: فأصبحت أنا وعياش بن أبي ربيعة عند التناضب، وحُبس عنا هشام، وفُتن فافتتن.

فلما قدمنا المدينة نزلنا في بني عمرو بن عوف بقباء، وخرج أبوجهل بن هشام والحارث بن هشام إلى عياش بن أبي ربيعة، وكان ابن عمهما وأخاهما لأمهما، حتى قدما علينا المدينة ورسول الله ﷺ بمكة، فكلماه وقالا له: إن أمك قد نذرت أن لايمس رأسها مشط حتى تراك ولاتستظل من شمس حتى تراك فرقَّ لها ».

وهكذا ندرك كيف يبذل دعاة الضلالة من وقتهم وجهدهم وأموالهم في سبيل نصرة باطلهم ومحاولة إخماد دعوة الحق، حيث خرج أبو جهل وأخوه من مكة إلى المدينة وتحملا عناء السفر من أجل

---

(١) التناضب بكسر الضاد نوع من الشجر تألفه الحرباء، والأضاة: الغدير، وأضاة بني غفار على عشرة أميال من مكة - الروض الأنف للسهيلي ٤/ ١٨٩ - ١٩٠ - .

(٢) بفتح السين وكسر الراء هو واد قرب مكة على طريق المدينة، وقد قام العمران حوله حاليا.

محاولة فتنة فرد واحد عن دينه ، أفلا يتحمل المسلمون مثل هذا الجهد أو أفضل منه من أجل دعوة الناس إلى الرشد واتباع الحق ؟!

ولقد حاول أبو جهل أن يدخل على عياش من الجانب المؤثر عليه، حيث ذكر وضع أمه ليكسب موافقته على العودة ، وهو يعلم أن عياشاً من أهل البر والصلة .

وهذا مشهد يبين لنا صورة من مخططات أعداء الإسلام التي يحاولون بها صرف المسلمين عن التمسك بدينهم .

« قال عمر رضي الله عنه في سياق روايته : فقلت له : ياعياش إنه والله إن يريدك القوم إلا ليفتنوك عن دينك فاحذرهم فو الله لو قد آذى أمَّك القمل لامتشطت ، ولو قد اشتد عليها حَرُّ مكة لاستظلت » .

وهكذا كان عمر رضي الله عنه فطناً مدركاً لمكائد الكفار ، فقد تَفَرَّس في وجوه القوم فعرف فيهم الغدر والمكيدة مع ما اشتهر عن أبي جهل قبل ذلك من عداء المسلمين .

وهكذا ينبغي لكل مسلم أن يكون حذراً من الكفار وإن أظهروا النوايا الحسنة ، وأن يغلِّب جانب إساءة الظن بهم وأن لايضع ثقته بهم ، لأن الأصل فيهم أنهم لايراعون في مسلم عهداً ولاذمة لشدة حقدهم على الإسلام والمسلمين ، كما قال الله تعالى ﴿ **لايَرْقُبُون في مؤمن إلاًّ ولاذمة** ﴾ (١) أي لايراعون حرمة القرابة ولا الجوار ولا العهد .

---

(١) التوبة / ١٠ .

« قـال : فـقـال - يعني عـيـاش - : أبرُّ قـسم أمي ولي هناك مـال فاخذه» .

وهكذا استطاع عدو الإسلام أبو جهل أن يخدع عياشا وأن يستميله للموافقة على العودة إلى مكة .

« قال - أي عمر - : فقلت : والله إنك لتعلم أني لَمِنْ أكثر قريش مالاً فلك نصف مالي ولاتذهب معهما ، قال فأبى عليَّ إلا أن يخرج معهما ، فلما أبى إلاّ ذلك قال : قلت له : أما إذ قد فعلت ما فعلت فخذ ناقتي هذه ، فإنها ناقة نجيبة ذلول . فالزم ظهرها . فإن رابك من القوم ريب فانج عليها » .

وهذه تضحية كبيرة من عمر حيث تنازل لعياش عن نصف ماله وهو صاحب المال الكثير في مقابل حمايته من الفتنة في الدين ، وإنَّ بذل المال في سبل الخير دليل على قوة الإيمان ووضوح الهدف الإسلامي العالي ، ألاَ وهو ابتغاء رضوان الله تعالى والدار الآخرة ، وذلك لأن المال من أعز المحبوبات لدى الإنسان فإذا جاد به من أجل الله تعالى فهو من أهل الإيمان الراسخ .

« قال عمر : فخرج عليها - يعني على ناقة عمر - معهما حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال له أبو جهل : يا ابن أخي والله لقد استغلظ عليَّ بعيري هذا أفلا تعقبني على ناقتك هذه ؟ قال : بلى ، قال : فأناخ ، وأناخا ليتحول عليها ، فلما استووا بالأرض عَدَوَا عليه فأوثقاه رباطاً ، ثم دخلا به مكة ، وفتناه فافتتن .

قال ابن إسحاق : فحدثني به بعض آل عياش بن أبي ربيعة : أنهما حين دخلا به مكة دخلا به نهاراً موثقاً ثم قالا : يا أهل مكة ، هكذا فافعلوا بسفهائكم كما فعلنا بسفيهنا هذا » .

وهكذا تحقق ظن عمر بأبي جهل وأمثاله ، ووقع عياش في مكائد المشركين لأنه وضع ثقته بهم ولم يغلِّب جانب الحذر منهم .

وفي ذلك عبرة للمسلمين حتى لايأمنوا الكفار وإن أظهروا لهم المودة وقدَّموا لهم المعونة فإن ذلك نوع من الطُّعم الذي يصطادون به المسلمين ، كما قال الله تعالى ﴿ **يُرضُونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون**﴾ (١) .

وفي المشهد المؤلم الذي دخل فيه عياش مكة موثقاً ، ووصفه بالسفاهة إمعان من أبي جهل في إذلال المسلمين وتحطيم معنوياتهم ، فكيف يثق المسلمون بالكفار وهم لايريدون بهم إلا الشر .

ومما ينبغي الإشارة إليه أن أخا أبي جهل الحارث بن هشام قد أسلم بعد فتح مكة وحسن إسلامه وكان له في الجهاد بلاء كبير .

قال ابن إسحاق : وحدثني نافع ، عن عبد الله بن عمر ، عن عمر في حديثه قال : فكنا نقول : ما الله بقابل ممن افتتن صرفاً ولاعدلاً (٢) ولاتوبة ، قوم عرفوا الله ثم رجعوا إلى الكفر لبلاء أصابهم ! قال :

---

(١) التوبة / ٨ .

(٢) الصرف : التوبة وقيل النافلة ، والعدل : الفدية وقيل الفريضة . ذكره ابن الاثير في النهاية ، فيكون ذكر التوبة على القول الأول من باب عطف التفسير .

وكانوا يقولون ذلك لأنفسهم ، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة ، أنزل الله تعالى فيهم ، وفي قولنا وقولهم لأنفسهم : ﴿ **قل ياعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم ، وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لاتُنصَرون ، واتَّبعوا أحسن ما أُنزِل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتةً وأنتم لاتشعرون** ﴾ (١) (٢) .

قال عمر بن الخطاب : فكتبتها بيدي في صحيفة ، وبعثت بها إلى هشام بن العاصي ، قال : فقال هشام بن العاصي : فلما أتتني جعلت أقرؤها بذي طوى أصعِّد بها فيه وأصوِّب ولا أفهمها ، حتى قلت : اللهم فهِّمنيها ، قال : فألقى الله تعالى في قلبي أنها إنما أنزلت فينا ، وفيما كنا نقول في أنفسنا ، ويقال فينا . قال : فرجعت إلى بعيري ، فجلست عليه ، فلحقت برسول الله ﷺ وهو بالمدينة (٣) .

وذكر الحافظ الهيثمي نحو هذا الخبر ، وقال : رواه البزار ورجاله ثقات (٤) .

---

(١) سورة الزمر آية ٥٣ - ٥٥ .

(٢) أخرج هذا الجزء من الخبر الحاكم وقال : حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه وأقره الذهبي ٢/ ٤٣٥ .

(٣) سيرة ابن هشام ٢/ ٩٥ - ٩٨ .

(٤) مجمع الزوائد ٦/ ٦١ .

وقال الحافظ ابن حجر : وأخرج ابن السَّكَن بسند صحيح عن ابن إسحاق عن نافع عن ابن عمر عن عمر . ثم ذكر أول الخبر (١) .

وهكذا كانوا يظنون أن مَنْ فَتَنَه الكفار فافتتن ورضي بالعيش معهم أن الله تعالى لايقبل منه توبة حتى نزلت هذه الآيات ففرح بها عمر رضي الله عنه ، وقد كان في همٍّ وأسف على إخوانه الذين استجابوا لفتنة الكفار فبادر بكتابة هذه الآيات إلى هشام بن العاص .

وقد كان هشام وأمثاله في حالة يأس وقنوط من رحمة الله تعالى لظنهم بأن من كان في مثل حالهم لاتوبة له ، فلما أخذ الصحيفة التي كتبها عمر وقرأ الآيات أصبح في حيرة من أمره إذ أنه لم يكن يتصور أن رحمة الله تعالى تتسع لأمثاله ، فسأل الله تعالى أن يفهمه المقصود من الآية - وإن كان يفهم معناها - فألهمه الله سبحانه أنه وأمثاله هم المقصودون بها فتاب إلى الله تعالى وعزم على الهجرة .

* * *

---

(١) الإصابة ٣/ ٥٧٢ رقم ٨٩٦٧ .

١٨ - مثل عظيم من الإيثار والتوكل على الله تعالى

بعد أن أمر النبي ﷺ أصحابه بالهجرة إلى المدينة ورغَّبهم فيها سارعوا إلى ذلك حتى لم يبق من القادرين على الهجرة إلا رسول الله ﷺ وأبو بكر وعلي رضي الله عنهما .

وفي ذلك يقول محمد بن إسحاق رحمه الله تعالى : وأقام رسول الله ﷺ بمكة بعد أصحابه من المهاجرين ينتظر أن يؤذن له في الهجرة ، ولم يتخلف معه بمكة أحد من المهاجرين إلا من حُبس أو فُتن إلا عليٌّ بن أبي طالب وأبو بكر بن أبي قحافة الصديق رضي الله عنهما ، وكان أبو بكر كثيراً ما يستأذن رسول الله ﷺ في الهجرة ، فيقول له رسول الله ﷺ : لاتعجل لعل الله يجعل لك صاحبا ، فيطمع أبو بكر أن يكونه[١] .

لقد حبب رسول الله ﷺ الهجرة للمسلمين وحثهم عليها ، ولم يعتبرها مجرد رخصة للخروج من أذى المشركين وحصارهم ، بل اعتبرها عملاً صالحاً يثاب عليه فاعله ثواباً جزيلاً ، فتسابق المسلمون لهذا العمل الصالح وخرجوا جماعات جماعات بتسلُّل واختفاء من المشركين حتى لايحبسوهم وتركوا ما لايستطيعون حمله من أموالهم التي استولى عليها المشركون بعد ذلك .

لقد خرج المهاجرون من وطنهم الذي كانوا يعيشون فيه برغد وسعة

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ١٠٢ .

إلى ضيق من العيش وضيق في السكن في المدينة طاعة لله تعالى ولرسوله ﷺ ، ليتكوّن بهم وبالأنصار المجتمع الأول المتكافل الذي قامت به دولة الإسلام بعد هجرة الرسول ﷺ .

ولقد كان عجيباً أن يخرج المسلمون من مكة جميعاً ، ولايبقى فيها من غير المحبوسين والمفتونين غير أبي بكر وعلي بن أبي طالب اللَّذَين بقيا مع رسول الله ﷺ بأمر منه .

وإنه لموقف عظيم من رسول الله ﷺ أن أفرد نفسه من جنوده المخلصين له الذين يفدونه بأرواحهم وهو القائد المستهدف من أعدائه الذين يتربصون به الدوائر ليقتلوه أو يحبسوه ، ولكنه القائد العظيم الذي يكون في ساقة جنوده حتى يحرزهم ، ثم هو من عظمة توكله على ربه جل وعلا موقن بأنه سبحانه معه بنصره وتأييده ولن يسلمه لأعدائه .

ولقد كان بقاء رسول الله ﷺ في مكة حماية للمؤمنين ، فلو أنه هاجر لقضى المشركون على من بقي معلناً إسلامه من المستضعفين .

ولعل بقاءه سهَّل هجرة المؤمنين لِمَا كان المشركون يخططون له من قتله ، فلم يعرقلوا هجرة أصحابه ليتم ما أرادوا من الكيد به .

وما حصل من الحبس لبعضهم كعياش بن أبي ربيعة وهشام بن العاص كان من أقاربهم المتصلين في الكفر فلم يشمل ذلك جميع المسلمين .

ولاشك أن هجرة عمر وحمزة وأمثالهما مما يسهل على المشركين تنفيذ مؤامرتهم على رسول الله ﷺ .

ولقد تم كل ذلك بأمر الله تعالى وتوجيهه ليتم ما أراده جل وعلا من هذه الهجرة المباركة التي كانت فتحاً عظيماً للإسلام والمسلمين .

* * *

١٩ - الهجرة النبوية

بعد أن أمر النبي ﷺ أصحابه بالهجرة ولم يبق في مكة من القادرين على الهجرة إلا رسول الله ﷺ وأبو بكر الصديق وعلي بن أبي طالب كَبُر ذلك على المشركين ورأوا أن خروج رسول الله ﷺ إلى المدينة يشكل خطراً كبيراً على أَمْنهم ، فاجتمع زعماؤهم في دار الندوة واتخذوا بعد المشاورة أسوأ وأخطر قرار اتفقوا عليه وهو الإقدام على قتل النبي ﷺ .

١ - قال محمد بن إسحاق رحمه الله : ولما رأت قريش أن رسول الله ﷺ قد صارت له شيعة وأصحاب من غيرهم بغير بلدهم ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم ، عرفوا أنهم قد نزلوا داراً ، وأصابوا منهم مَنَعَة ، فَحذرُوا خروج رسول الله ﷺ إليهم ، وعرفوا أنه قد أجمع لحربهم ، فاجتمعوا له في دار الندوة - وهي دار قصي بن كلاب التي كانت قريش لاتقضي أمراً إلا فيها - يتشاورون فيها ما يصنعون في أمر رسول الله ﷺ حين خافوه (١) .

ثم ذكر فيما رواه عن ابن عباس رضي الله عنهما ما تم بينهم من مشاورة ومداولة ، حيث رأى بعضهم أن يحبسوه في الحديد حتى يموت ، ورأى بعضهم أن يخرجوه من بلادهم ورأى بعضهم أن يقتلوه

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ١٠٢ .

وأن يتولى قتله شباب من قريش حتى يتفرق دمه في القبائل وكان هذا رأي أبي جهل ، وقد استقر رأيهم على ذلك [1] .

وقد ذكر الله سبحانه هذه الآراء الثلاثة بقوله ﴿ **وإذ يمكر بك الذين كفروا ليُثبتُوك أو يقتلوك أو يُخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين** ﴾ [2] .

وجاء تفسير هذه الآية بذلك في روايات المحدثين ، ومن ذلك ما :

٢ - أخرجه الإمام أحمد والطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في قول الله عز وجل ﴿ **وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك** ﴾ قال تشاورت قريش ليلة بمكة فقال بعضهم إذا أصبح فأثبتوه بالوثاق يريدون النبي ﷺ ، وقال بعضهم بل اقتلوه ، وقال بعضهم بل أخرجوه ، فأطْلَع الله عز وجل نبيه على ذلك ، فبات عليٌّ رضي الله عنه على فراش رسول الله ﷺ .

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ١٠٣ - ١٠٥ ، تاريخ الطبري ٢/ ٣٧٠ - ٣٧٢ .

وقد جاء في رواية ابن هشام عن زياد البكائي قال ابن إسحاق : فحدثني من لا أتهم من أصحابنا عن عبد الله بن أبي نجيح ، وجاء في رواية الطبري عن سلمة بن الفضل الأبرش قال : حدثني محمد بن إسحاق قال : حدثني عبد الله بن أبي نجيح ، وهذا يعني أن ابن إسحاق رواه مرة عن ابن أبي نجيح بواسطة . فحدث بذلك زيادًا البكائي ، ورواه عنه مرة أخرى بدون واسطة فحدث به سلمة بن الفضل فهو بهذا محمول على الاتصال .

(٢) سورة الانفال ، آية ٣٠ .

وخرج رسول الله ﷺ، حتى لحق بالغار، وبات المشركون يحرسون عليا يحسبونه النبي ﷺ، فلما أصبحوا ثاروا إليه فلما رأوا عليا رد الله مكرهم فقالوا: أين صاحبك هذا؟ قال: لا أدري فاقتصوا أثره فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم فصعدوا في الجبل فمروا بالغار فرأوا نسج العنكبوت على بابه، فبات فيه ثلاث ليال.

ذكره الحافظ الهيثمي وقال: رواه أحمد والطبراني وفيه عثمان ابن عمرو الجزري وثقه ابن حبان وضعفه غيره، وبقية رجاله رجال الصحيح (١).

وذكره الحافظ ابن كثير وقال: وهذا إسناد حسن وهو من أجود ما رُوي في قصة نسج العنكبوت على فم الغار، وذلك من حماية الله رسوله ﷺ (٢).

وحسَّن إسناده الحافظ ابن حجر (٣).

وكذلك حسَّنه الزرقاني (٤).

وهكذا عقد زعماء قريش ذلك المجلس الخطير في دار الندوة وخرجوا منه بنشوة الماكرين وفرحة الآثمين، وهم يظنون لجهلهم ونظرهم القاصر أنهم قد أصابوا من الإسلام موجعا، وأضافوا إلى

---

(١) مجمع الزوائد ٧/ ٢٧.

(٢) البداية والنهاية ٣/ ١٧٩.

(٣) فتح الباري ٧/ ٢٣٦.

(٤) شرح المواهب ١/ ٣٢٣

ماورثوه من مهازل الجاهلية رفعة وعلوا .

إن ما عمله زعماء مكة من التخطيط الأثيم لقتل النبي ﷺ وهو أعزل من جنوده ، خوفاً من أن يهاجر فيقيم دولة ويثيرها حربا عليهم . . إن ذلك دليل على اتصافهم بالجبن والبعد عن الحياة الحربية التي يعتز بها العرب المعاصرون لهم .

لقد كان مما يعتز به العرب إنشاء الحروب فيما بينهم ، وأشعارهم طافحة بالحماسة والاعتزاز بالشجاعة والافتخار بخوض المعارك ، فما بال جبابرة مكة آنذاك يصولون ويجولون على العزّل من السلاح ، الداعين إلى السعادة والصلاح ! .

وما بالهم لما لاحت لهم بوارق الحرب التي سيثيرها عليهم رسول الله ﷺ حاولوا كتم أنفاسه قبل أن يثيرها ! .

إنهم لايفعلون ذلك بدافع من محاولة الإصلاح ، بل يفعلونه لكبْت دعوة الإصلاح العظمى ، وكَتْم صوت المصلح الأكبر والداعية الأعظم ﷺ .

وقوله في رواية ابن عباس : « فأطْلَع الله عز وجل نبيه على ذلك » (١) يعني على مؤامرة قريش ضده ، وجاء في رواية ابن إسحاق : « فأتى جبريل عليه السلام رسول الله ﷺ فقال : لاتَبِتْ هذه الليلة على فراشك الذي كنت تبيت عليه » (٢) .

(١) انظر رقم (٢) .

(٢) تابع لرقم (١) .

وهكذا كان الله تعالى مع نبيه ﷺ بنصره وحمايته .

ومن هنا نعلم أن المعركة بين الحق والباطل ليست معركة أرضية فقط لأن الحق موصول بالسماء ، وجنود الحق مؤيدون من الله تعالى .

ولئن كان رسول الله ﷺ مؤيداً من الله تعالى بجبريل عليه السلام الذي يخبره بما يدبر له أعداؤه ويوجهه إلى خطة العمل المضاد لذلك ، فإن جنود الحق من أتباع رسول الله ﷺ مؤيدون من الله تعالى بأنواع من النصر قد تظهر تكريماً من الله تعالى لأوليائه وقد لاتظهر ، وقد أيد الله نبيه ﷺ وأصحابه بالكثير من ذلك كما سيتبين لنا في مواقف أخرى بإذن الله تعالى ، وذلك تفسير واقعي لقول الله تعالى ﴿ **إن تنصروا الله ينصركم ويُثَبِّتْ أقدامكم** ﴾ ، فنصر الله تعالى يكتب لكل من ناصر هذا الدين .

وبهذا التدبير الإلهي أحبط الله مؤامرتهم وأبطل مكرهم كما بين ذلك بقوله ﴿ **وإذ يمكر بك الذين كفروا لِيُثْبِتُوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين** ﴾ .

٣ - أخرج الإمام البخاري بإسناده عن عائشة رضي الله عنها قالت : فبينما نحن جلوس في بيت أبي بكر في نحر الظهيرة قال قائل لأبي بكر هذا رسول الله ﷺ مُتَقَنِّعًا - في ساعة لم يكن يأتينا فيها - فقال أبو بكر : فداءٌ له أبي وأمي ، والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر . قالت : فجاء رسول الله ﷺ فاستأذنَ ، فأذنَ له ، فدخل . فقال

النبي ﷺ لأبي بكر : أخرجْ مَنْ عندك ، فقال أبو بكر : إنما هم أهلك بأبي أنتَ يارسول الله ، قال : فإني قد أُذنَ لي في الخروج . فقال أبو بكر : الصِّحابة بأبي أنت يارسول الله . قال رسول الله ﷺ : نعم . قال أبو بكر : فخُذ بأبي أنت يارسول الله إحدى راحلتيَّ هاتين . قال رسول الله ﷺ : بالثمن .

قالت عائشة : فجهَّزناهما أحث الجهاز ، وصنعنا لهما سُفرة في جراب ، فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها فربطت به على فم الجراب ، فبذلك سُمِّيت ذات النطاق .

قالت : ثم لحق رسول الله ﷺ وأبو بكر بغار في جبل ثور ، فكمنا فيه ثلاث ليال ، يبيت عندهما عبد الله بن أبي بكر وهو غلام شاب ثَقِفٌ لَقِنٌ ، فَيدَّلج من عندهما بسحر [1]، فيصبح مع قريش بمكة كبائت ، فلا يسمع أمراً يُكتادان به إلا وَعاه حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام ، ويرعى عليهما عامر بن فهيرة مولى أبي بكر منحة من غنم فيريحها عليهما حين تذهب ساعة من العشاء فيبيتان في رِسْل - وهو لَبنُ مِنحتهما ورَضِيفهما [2] - حتي ينعق بها عامر بن فهيرة بغَلَس ، يفعل ذلك في كل ليلة من تلك الليالي الثلاث .

---

(١) يقال : أدلج بالتخفيف إذا سار من أول الليل ، وادَّلج بالتشديد إذا سار من آخره ، والاسم منهما الدُّلجَه

(٢) الرسل بكسر الراء اللبن الخفيف ، والرضيف بفتح الراء وكسر الضاد اللبن الغليظ وكانوا يضعون فيه الحجارة المحماة لينعقد ، والمنحة الشاة (فتح الباري ٧/ ٢٣٧) .

واستأجر رسول الله ﷺ وأبو بكر رجُلاً من بني الدِّيل ، وهو من بني عبد بن عدي هادياً خرِّيتا - والخرِّيت الماهر بالهداية - قد غمس حلفا في آل العاص بن وائل السهمي ، وهو على دين كفار قريش ، فأمَّناه ، فدفعا إليه راحلتيهما ، وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال براحلتيهما صبح ثلاث ، وانطلق معهما عامر بن فهيرة والدليل ، فأخذ بهم طريق الساحل(١) .

وأخرجه الإمام الطبراني من حديث أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما ومما جاء فيه من الزيادات :

فخرجا فمكثا في الغار في جبل ثور فلما انتهيا إليه دخل أبو بكر الغار قبله فلم يترك فيه جُحْراً إلا أدخل فيه إصبعه مخافة أن يكون فيه هامَّة .

وخرجت قريش حين فقدوهما في بغائهما وجعلوا في النبي ﷺ مائة ناقة ، وخرجوا يطوفون في جبال مكة حتى انتهوا إلى الجبل الذي هما فيه فقال أبو بكر لرجل مواجه الغار : يارسول الله إنه ليرانا ، فقال : كلا إن ملائكة تسترنا بأجنحتها ، فجلس ذلك الرجل فبال مواجه الغار ، فقال رسول الله ﷺ : لو كان يرانا مافعل هذا .

ذكره الإمام الهيثمي وقال : وفيه يعقوب بن حميد بن كاسب وثقه ابن حبان وغيره وضعفه أبو حاتم وغيره ، وبقية رجاله رجال الصحيح(٢) .

---

(١) صحيح البخاري / مناقب الأنصار رقم ٣٩٠٥ (٧/ ٢٣١) .

(٢) مجمع الزوائد ٦/ ٥٣ - ٥٤ .

وأخرجه ابن إسحاق من حديث عائشة رضي الله عنها وفيه أن اليوم الذي جاء فيه رسول الله ﷺ هو اليوم أذن له بالخروج فيه من مكة .

وعلى هذا فإن النبي ﷺ جاء لإخبار أبي بكر بذلك وللاتفاق معه على كيفية الخروج ليلاً .

وجاء فيه أن أبا بكر بكى من الفرح بصحبة النبي ﷺ ، وتقول عائشة : فو الله ماشعرت قط قبل ذلك اليوم أن أحداً يبكي من الفرح حتى رأيت أبا بكر يبكي يومئذ (١) .

لقد جاء النبي ﷺ إلى بيت أبي بكر مستخفيا قد قَنَّع وجهه حتى لايراه المشركون ، واختار وقت الظهيرة لأن الناس لايخرجون من بيوتهم من شدة الحر ، فهو قد دخل في معركة غير متكافئة إطلاقا حيث يمثلها النبي ﷺ وحده من جانب ويمثلها الكفار بعددهم وعُددهم من الجانب الآخر ، فهو مضطر إلى الاستخفاء وتدبير الخطط التي تضمن خروجه من بين ظهرانيهم بسلام ، وهذا هو النجاح في تلك المعركة الذي يخشاه المشركون .

وأبو بكر رضي الله عنه يبكي من الفرح بصحبة النبي ﷺ في تلك الرحلة الجهادية المحفوفة بالمخاطر من أول قدم فيها إلى نهايته .

أوَلَيْسَ رسول الله ﷺ وصاحبه يتحديان بذلك الخروج إرادة جميع زعماء مكة وجنودهم المسخرين لهم ؟! فما الذي يحمل أبابكر على الفرح بالصحبة في تلك الرحلة الشاقة الخطرة ؟!

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/١٠٨ .

إنه الإيمان القوي بالإسلام ، ومادام وجود هذا الدين وقيامه مترتبا على سلامة النبي ﷺ وتمكنه من الدعوة فلِمَ لايستسهل أبو بكر كل صعب من أجل حماية النبي ﷺ ؟ ولِمَ لايبكي فرحا بصحبته والفوز بخدمته والدفاع عنه ؟!

وقوله في رواية ابن عباس : « فبات عليٌّ على فراش رسول الله ﷺ » (١) كان ذلك بأمر من رسول الله ﷺ كما جاء في رواية ابن إسحاق : « فلما رأى رسول اله ﷺ مكانهم قال لعلي : نَمْ على فراشي وتسجَّ ببردي هذا الحضرمي الأخضر فنم فيه فإنه لايخلص إليك شيء تكرهه منهم » (٢) .

وهذا جزء من تدبير الله تعالى لرسوله ﷺ ، حيث علم أن قيام علي بن أبي طالب بذلك الدور لن يؤدي إلى قتله .

ومع الثقة والطمأنينة التي حصلت لعلي رضي الله عنه بوعد النبي ﷺ فإن بياته في ذلك المكان الخطر الذي كان هدفاً لعدد كبير من المشركين قد تجمعوا وراء الباب يعتبر شجاعة فذة وجسارة عظيمة ، ولعل هذه أول تجربة كبيرة لقوة قلبه ورباطة جأشه ، وقد سجل له التاريخ بعد ذلك مواقف عالية في الشجاعة والإقدام .

وقول رسول الله ﷺ حينما عرض عليه أبوبكر إحدى الناقتين :

---

(١) الحديث رقم (٢) .

(٢) تابع للحديث رقم (١) .

«بالثمن» [1] بيان لاهتمام النبي ﷺ بالعمل الصالح فهو يريد أن تكون هجرته من ماله ليكسب العمل الصالح في الجهد البدني والمالي ، وإلا فإنه يعلم أن أبابكر لايهمه المال بقليل ولابكثير وأنه قد أعد تلك الراحلة عن طيب نفس .

وهذا مثل من أمثلة كون النبي ﷺ القدوة العظمى لهذه الأمة ، فينبغي للمسلم أن ينافس إخوانه على العمل الصالح ، وأن لاتستريح نفسه لكون غيره يبذل عنه المال فيما إذا كان بذل المال عملاً صالحاً .

وفي هذه الأخبار فضائل أخرى لأبي بكر رضي الله عنه ، منها أنه كلف ابنه عبد الله بأن يسمع ما يقوله المشركون وما يخططونه نهاراً ثم يأتيهما ليلاً فيزودهما بالأخبار .

ومنها أنه كلف مولاه عامربن فهيرة بأن يأتي بغنم أبي بكر ليلاً فيتزود هو ورسول الله ﷺ من حليبها ولحمها .

وتلك من فضائل أبي بكر رضي الله عنه الذي جنَّد في تلك الرحلة نفسه وأهله وماله في سبيل الله تعالى .

٤ - قال ابن إسحاق : فحدثني يزيد بن زياد عن محمد بن كعب القرظي قال : لما اجتمعوا له وفيهم أبو جهل بن هشام ، فقال وهم على بابه : إن محمداً يزعم أنكم إن تابعتموه على أمره كنتم ملوك العرب والعجم . ثم بُعثتم من بعد موتكم فجُعلتْ لكم جنان كجنان الأُرْدُنّ ،

---

(١) حديث رقم (٣) .

وإن لم تفعلوا كان له فيكم ذبح ، ثم بعثتم من بعد موتكم . ثم جُعلت لكم نار تحرقون فيها .

قال : وخرج عليهم رسول الله . فأخذ حفنة من تراب في يده . ثم قال : نعم أنا أقول ذلك . أنت أحدهم . وأخذ الله تعالى على أبصارهم عنه . فلا يرونه . فجعل ينثر ذلك التراب على رؤوسهم وهو يتلو هؤلاء الآيات من يس : ﴿ **يس والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين على صراط مستقيم تنزيل العزيز الرحيم** ﴾ إلى قوله : ﴿ **فأغشيناهم فهم لا يبصرون** ﴾[١] حتى فرغ رسول الله ﷺ من هؤلاء الآيات . ولم يبق منهم رجل إلا وقد وضع على رأسه تراباً . ثم انصرف إلى حيث أراد أن يذهب[٢] .

وهكذا حينما أظلم الليل نادى أهل الباطل بعضهم بعضاً واجتمعوا لتنفيذ الخطة المرسومة التي اتفقوا على تنفيذها في تلك الليلة ، والغرور يحدوهم ، والحبور بالأثم يغمرهم حتى قال أبو جهل هذا الكلام الساخر .

إن خروج النبي ﷺ وحده من بين جمع من أعدائه المسلحين الذين ينتظرون خروجه ليقتلوه يعتبر مثلاً عالياً للشجاعة الفذة .

وإن أبلغ صورة لهذه الشجاعة قوله لأبي جهل : نعم ، أنا أقول ذلك .

---

(١) سورة يس الآيات (١، ٩) .

(٢) سيرة ابن هشام ٢/ ١٠٧ .

لقد كان رسول الله ﷺ ثابت الجنان راسخ اليقين ، على ثقة كاملة بوعد ربه جل وعلا له بالنصر والتمكين .

ولقد اغتر أبو جهل بذلك الجمع من الشباب المسلحين الذي استطاع أن يجندهم لقتل رسول الله ﷺ فقال ذلك الكلام الساخر ، ولكن ما أن خرج عليهم رسول الله ﷺ حتى أعمى الله تعالى أبصارهم وطمس بصائرهم ، فذرَّ التراب على رؤوسهم ومر من بين أيديهم وهم لايبصرون .

وهذه معجزة ظاهرة من دلائل نبوته ﷺ ، ومثل واضح لمعية الله تعالى لأوليائه بالنصر والحماية .

قال ابن إسحاق في سياق رواية محمد بن كعب القرظي : فأتاهم آتٍ ممن لم يكن معهم فقال : ماتنتظرون هاهنا ؟ قالوا : محمداً ، قال : خيبكم الله ! قد والله خرج عليكم محمد ، ثم ما ترك منكم رجلاً إلا وقد وضع على رأسه تراباً ، وانطلق لحاجته ، أفما ترون مابكم ؟ قال : فوضع كل رجل منهم يده على رأسه فإذا عليه تراب ، ثم جعلوا يتطلعون فيرون علياً على الفراش مُتسجِّياً ببرد رسول الله ﷺ ، فيقولون : والله إن هذا لمحمد نائماً عليه برده ، فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا ، فقام علي رضي الله عنه عن الفراش ، فقالوا : والله لقد كان صدَقَنا الذي حدثنا (١) .

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ١٠٧ .

ولكن حتى بعد أن أيقنوا بتلك المعجزة الكبرى لرسول الله ﷺ فإنهم استمروا في المعركة معه وجدُّوا في البحث عنه ليقتلوه ، ولو عقلوا لعرفوا أنه في حماية الله تعالى ورعايته وأنهم لن يصلوا إليه مهما بذلوا من جهد ومحاولات .

لقد كان إفلات النبي ﷺ من بين أيديهم بداية واضحة لخذلانهم وفشل خطتهم ، ودليل ظاهر لكل ذي عقل سليم بأنه لم يكن في الميدان وحده وأنه مؤيد بقوة عظمى لايستطيعون إدراكها ولامجابهتها .

٥ وأخرج أبو عبد الله الحاكم رحمه الله تعالى من حديث عمرو بن ميمون عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : شَرَى عَليٌّ نفسه(١) ولبس ثوب النبي ﷺ ثم نام مكانه ، وكان المشركون يرمون رسول الله ﷺ ، وقد كان رسول الله ﷺ ألبسه برده ، وكانت قريش تريد أن تقتل النبي ﷺ فجعلوا يرمون علياً ويرونه النبي ﷺ وقد لبس برده ، وجعل علي رضي الله عنه يتضوَّر ، فإذا هو علي فقالوا : إنك للئيم إنك لتتضور وكان صاحبك لايتضور ولقد استنكرناه منك .

قال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وقد رواه أبو داود الطيالسي وغيره عن أبي عوانة بزيادة ألفاظ ، وأقره الإمام الذهبي(٢) .

---

(١) يعني باع نفسه إلى الله تعالى .

(٢) المستدرك ٣/ ٤ .

وأخرجه الإمام أحمد بنحوه وصححه الشيخ أحمد شاكر رحمه الله تعالى [1] .

وهذا الحديث الصحيح يفيد بأن النبي ﷺ نام على فراشه أول الليل ، وأن المشركين لما طوقوا بيته رأوا النائم على الفراش فتوقعوه هو فصاروا يرمونه بالحجارة ليقوم ويخرج إليهم ، ولكنه تحمل وقع الحجارة ولم يتحرك ، وهذا دليل على قوة احتماله وطول صبره ، ثم إنه قام وأمر علياً رضي الله عنه أن ينام في فراشه ذلك ، ثم خرج عليهم وحصل ماحصل من طمس أبصارهم وذَرِّ التراب على رؤوسهم والنجاة منهم .

ولكنهم لم يدركوا حقيقة ماحدث فاستمروا يرمون ذلك النائم على الفراش ، وأنه كان يتحرك ويضطرب وهم لايدرون أنه علي رضي الله عنه .

ولقد كان من حكمة أمر النبي ﷺ علياً بأن ينام على فراشه إيهام المشركين بأنه ﷺ مايزال داخل البيت ، وذلك يتيح له فرصة الذهاب إلى أبي بكر ثم اللجوء إلى الغار قبل أن يبدأ الكفار في البحث عنه .

٦ – أخرج أبو عبد الله الحاكم بإسناده عن محمد بن سيرين قال : ذُكر رجال على عهد عمر رضي الله عنه فكأنهم فضلوا عمر على أبي بكر رضي الله عنهما قال : فبلغ ذلك عمر رضي الله عنه فقال : والله لَلَيْلَة

---

(١) مسند أحمد بتحقيق شاكر ٥/٢٦ – ٢٧ .

من أبي بكر خير من آل عمر ، ولَيوم من أبي بكر خير من آل عمر ، لقد خرج رسول الله ﷺ لينطلق إلى الغار ومعه أبو بكر فجعل يمشي ساعة بين يديه وساعة خلفه حتى فطن له رسول الله ﷺ فقال : يا أبا بكر مالك تمشي ساعة بين يدي وساعة خلفي ؟ فقال : يارسول الله أذكر الطَّلَب فأمشي خلفك ثم أذكر الرَّصَد فأمشي بين يديك ، فقال : يا أبا بكر لو كان شيء أحببت أن يكون بك دوني ؟ قال : نعم والذي بعثك بالحق ما كانت لتكون من مُلمَّة إلا أحببت أن تكون بي دونك ، فلما انتهيا إلى الغار قال أبو بكر : مكانك يارسول الله حتى أستَبْرِئَ لك الغار فدخل واستبرأه حتى إذا كان في أعلاه ذكر أنه لم يسترئ الجِحَرة [1] فقال : مكانك يارسول الله حتى استبرئ الجِحَرة فدخل واستبرأ ثم قال : انزل يارسول الله فنزل .

فقال عمر : والذي نفسي بيده لتلك الليلة خير من آل عمر .

قال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد على شرط الشيخين لولا إرسال فيه ولم يخرجاه ، وقال الذهبي صحيح مرسل [2] .

وأخرجه الحافظ البيهقي عن شيخه الحاكم بهذا الإسناد نفسه [3] .

---

(١) بكسر الجيم وفتح الحاء جمع جُحْر ، والمراد أن يتأكد من خلوها من الهوامّ .

(٢) المستدرك ٣/ ٦ ، وفيه أخطاء تم تصحيحها من دلائل النبوة للبيهقي .

(٣) دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٤٧٦ .

وأشار إليه الحافظ ابن حجر من رواية البيهقي والبغوي [١] .

وقد ذكر في هذا الأثر ليلة أبي بكر الفاضلة ويومه الفاضل مجملاً ثم جاء البيان لليلة الفاضلة ولم يأت بيان اليوم الفاضل وهو يوم الردة حيث وقف أبو بكر للمرتدين والمتمردين بقوة وحزم .

وقد ذكر الحافظ البيهقي رواية أخرى فيها بيان هذا اليوم وقد جاء فيها : وأما يومه فلما توفي رسول الله ﷺ وارتدت العرب ، فقال بعضهم : نصلي ولانزكي ، وقال بعضهم : لانصلي ولانزكي ، فأتيته ولا آلُوهُ نصحاً ، فقلت : ياخليفة رسول الله تألَّف الناس وارفق بهم ، فقال : جَبَّار في الجاهلية خوَّار في الإسلام ! فبماذا أتألفهم أبشعر مفتعل أو بشعر مفترى ؟ قُبض النبي ﷺ وارتفع الوحي ، فو الله لومنعوني عِقالاً مما كانوا يعطون رسول الله لقاتلتهم عليه ، قال : فقاتلنا معه فكان والله رشيد الأمر فهذا يومه [٢] .

ولكن قال الإمام الذهبي عن هذا الخبر : وهو منكر سكت عنه البيهقي ، ثم قال : وآفته من هذا الراسبي يعني عبد الرحمن بن إبراهيم الراسبي قال : فإنه ليس بثقة مع كونه مجهولا [٣] .

وكون هذا الخبر فيه ضعف شديد في إسناده لايخفى على الحافظ

---

(١) فتح الباري ٧/ ٢٣٧ .

(٢) دلائل البيهقي ٢/ ٤٧٦ - ٤٧٧ .

(٣) تاريخ الإسلام / السيرة / ٢٢١ - ٢٢٢ .

البيهقي ولكنه ذكره لما فيه من بيان ما أُجمِل في الرواية السابقة ، ولكن كان ينبغي له أن يبين ضعف إسناده .

وهذا الخبر فيه مثال عالٍ من التضحية والفداء ، فقد جعل أبو بكر من نفسه درعا لوقاية النبي ﷺ ، فصار يمشي أحياناً أمامه ليتلقى هجوم الأعداء المترصدين له ، وأحياناً خلفه ليتلقى هجوم الأعداء الذين يطلبونه ، وقد ذكر وهو الصادق الصِّدِّيق بأنه يفدي رسول الله ﷺ بنفسه في أي مُلمَّة .

والمثال الآخر في دخوله الغار قبل النبي ﷺ واستبرائه الجحور للتأكد من سلامتها من الهوام ، وقد سبق في حديث أسماء رضي الله عنها أن أبا بكر لم يترك في الغار جحراً إلا أدخل فيه إصبعه مخافة أن يكون فيه هامَّة .

فهذا مثال واضح لتضحيته بنفسه في سبيل رسول الله ﷺ ، وذلك لاحتمال أن يكون في بعض تلك الجحور حية أو عقرب فتلسعه ، لكنه رضي الله عنه لم يُلق لهذا الاحتمال بالاً فداء للنبي ﷺ .

٧ - أخرج الإمام البخاري ومسلم - واللفظ له - من حديث أنس ابن مالك رضي الله عنه أن أبا بكر الصديق حدثه قال : نظرت إلى أقدام المشركين على رؤوسنا ونحن في الغار فقلت : يارسول الله لو أن أحدهم نظر إلى قدميه أبصرنا تحت قدميه فقال : « يا أبا بكر ماظنك باثنين الله ثالثهما ! » (١) .

---

(١) صحيح البخاري ، التفسير رقم ٤٦٦٣ ، مناقب الأنصار رقم ٣٩٢٢ (الفتح ٨/ ٣٢٥ ، ٧/ ٢٥٧) ، صحيح مسلم ، فضائل الصحابة رقم ٢٣٨١ ص ١٨٥٤ .

وذكر الحافظ ابن كثير نحوه من طريق الحافظ أبي بكر بن علي القاضي عن الحسن البصري قال : انطلق النبي ﷺ وأبوبكر إلى الغار . وجاءت قريش يطلبون النبي ﷺ وكانوا إذا رأوا على باب الغار نسج العنكبوت قالوا : لم يدخل أحد ، وكان النبي ﷺ قائماً يصلي وأبو بكر يرتقب ، فقال أبو بكر للنبي ﷺ : هؤلاء قومك يطلبونك . أما والله ماعلى نفسي أئِلُّ (١) ولكنه مخافة أن أرى فيك ما أكره . فقال له النبي ﷺ : « يا أبا بكر لاتخف إن الله معنا » وهذا مرسل عن الحسن ، وهو حسن بحاله من الشاهد ، وفيه زيادة صلاة النبي ﷺ في الغار . وقد كان عليه السلام إذا أحزنه أمر صلَّى (٢) .

وهكذا وصل المشركون إلى مشارف الغار فأعمى الله تعالى أبصارهم عن رؤية من بداخله ، وطمس بصائرهم عن التفكير في ماضي النبي ﷺ ، وما أجرى الله تعالى على يديه من المعجزات التي كانوا يعتبرونها من السحر ، فكان بإمكانهم أن يقدّروا أن نسيج العنكبوت نوع من ذلك .

وقول أبي بكر « أما والله ما على نفسي أئلُّ ولكن مخافة أن أرى فيك ما أكره » يدل على تجرده الكامل من حظِّ النفس وبيعه نفسه خالصة لله تعالى ولرسوله ﷺ ، فالقضية الوحيدة التي ملأت جوانحه وشغلت

---

(١) أي أحن وأبكي .

(٢) البداية والنهاية ٣/ ١٧٩ .

باله هي نجاة رسول الله ﷺ ليستمر باستمرار بقائه نزول النور الإلهي وإكمال هذا الدين .

وفي جواب النبي ﷺ دلالة ظاهرة على نبوته إذ أن أقوى الناس إيماناً لايصل إلى هذه الدرجة من اليقين التي كان يتصف بها رسول الله ﷺ فإن أبابكر كان أقوى هذه الأمة إيماناً كما ثبت عن رسول الله ﷺ ولم يصل إلى هذه الدرجة من اليقين .

٨ - قال ابن إسحاق : فحُدِّثت عن أسماء بنت أبي بكر أنها قالت : لما خرج رسول الله ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه أتانا نفر من قريش ، فيهم أبو جهل ابن هشام ، فوقفوا على باب أبي بكر ، فخرجت إليهم ، فقالوا : أين أبوك يابنت أبي بكر ؟ قالت : قلت : لا أدري والله أين أبي ! قالت : فرفع أبو جهل يده - وكان فاحشاً خبيثًا - فلطم خدِّي لطمة طرح منها قُرطي (١) .

وهذا مثل من أمثلة طغيان الكفار وجبروتهم ، ولقد كان من عادة العرب تكريم النساء ، والترفع عن الاعتداء عليهن لانهم يعتبرون أن ذلك مما يخل بالمروءة ويسقط الكرامة ، ولكن أبا جهل لخبثه وشدة حقده على رسول الله ﷺ وعلى الإسلام تناسى العرف السائد بين العرب وأفرغ حقده في لطم تلك الفتاة البريئة بعد أن عز عليه لطم الرجال والظفر بهم .

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ١١١ - ١١٢ .

٩ - قال ابن إسحاق : فحدثني يحيى بن عبّاد بن عبد الله بن الزبير أن أباه عبّادا حدثه عن جدته أسماء بنت أبي بكر قالت : لما خرج رسول الله ﷺ وخرج أبو بكر معه ، احتمل أبو بكر ماله كله ، ومعه خمسة آلاف درهم أو ستة آلاف ، فانطلق بها معه . قالت : فدخل علينا جدي أبو قحافة ، وقد ذهب بصره، فقال : والله إني لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه . قالت قلت : كلا يا أبت ! إنه قد ترك لنا خيراً كثيراً .

قالت : فأخذت أحجاراً فوضعتها في كُوَّة في البيت الذي كان أبي يضع ماله فيها ، ثم وضعت عليها ثوباً ، ثم أخذت بيده ، فقلت : يا أبت ،ضع يدك على هذا المال ، قالت : فوضع يده عليه ، فقال : لا بأس، إذا كان ترك لكم هذا فقد أحسن ، وفي هذا بلاغ لكم ، ولا والله ما ترك لنا شيئاً ، ولكني أردت أن أُسكِّن الشيخ بذلك (١) .

وأخرجه الإمام أحمد من طريق ابن إسحاق بهذا الإسناد (٢) .

وقال الهيثمي : رواه أحمد والطبراني ورجال أحمد رجال الصحيح غير ابن إسحاق وقد صرح بالسماع (٣) .

وأخرجه الحاكم من طريق يونس بن بكير عن ابن إسحاق بهذا الإسناد وقال : حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه وأقره

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ١١٣ .

(٢) الفتح الرباني ٢٠/ ٢٨٢ .

(٣) مجمع الزوائد ٦/ ٥٩ .

الإمام الذهبي [1] مع أنه قد سقط من هذا الإسناد أحد الرواة وهو عباد بن عبد الله بن الزبير وقد جاء الإسناد كاملا في رواية ابن هشام وأحمد والطبراني ، ولا يخفى ذلك على الحافظين الحاكم والذهبي ولكن لعل ذلك سقط من أحد النساخ .

وهكذا يبذل أبو بكر رضي الله عنه ماله في سبيل الله تعالى كما بذل نفسه ، فقد حمل معه ماله كله لينفق منه في تلك الرحلة الميمونة التي كان يُعدُّ لها نفسه وأسرته وماله .

إن الإيمان الذي يصل إلى حد بذل النفس والمال وكل الإمكانات من أجل نصر القضية التي يؤمن بها صاحبها لابد أن يصل إلى نتائج إيجابية فعالة ، فكيف إذا كانت هذه الجهود تبذل لنصر دين الله تعالى والحال أن من نصر هذا الدين كان الله تعالى معه بنصره وحمايته ؟ .

١٠ - أخرج الإمام مسلم من حديث البراء بن عازب قال : جاء أبو بكر الصديق إلى أبي في منزله . فاشترى منه رَحْلاً . فقال لعازب : ابعث معي ابنك يحمله معي إلى منزلي . فقال لي أبي : احمله فحملته .

وخرج أبي معه ينتقد ثمنه ، فقال له أبي : يا أبا بكر حدثني كيف صنعتما ليلة سريت مع رسول الله ﷺ ، قال : نعم ، أسرينا ليلتنا كلها ، حتى قام قائم الظهيرة ، وخلا الطريق لا يمر فيه أحد ، حتى رُفِعَتْ لنا

(١) المستدرك ٣/ ٥ .

صخرة طويلة لها ظل لم تأت عليه الشمس بَعْدُ فنزلنا عندها ، فأتيت الصخرة فسويت بيدي مكانا ينام فيه النبي ﷺ في ظلها ، ثم بسطت عليه فروة ، ثم قلت : نم يارسول الله وأنا أنفض لك ماحولك (١) . فنام .

وخرجت أنفض ماحوله ، فإذا أنا براعي غنم مقبل بغنمه إلى الصخرة يريد منها الذي أردنا ، فلقيته فقلت : لمن أنت يا غلام ؟ فقال لرجل من أهل المدينة ، قلت : أفي غنمك لبن ؟ قال : نعم ، قلت : أفتحلب لي ؟ قال : نعم ، فأخذ الشاة فقلت له : انفض الضرع من الشعر والتراب والقذى (قال فرأيت البراء يضرب بيده على الأخرى ينفض) فحلب لي في قعب (٢) معه كُثْبَةً من لبن ، قال : ومعي إداوة أرتوي فيها للنبي ﷺ ليشرب منها ويتوضأ .

قال : فأتيت النبي ﷺ وكرهت أن أوقظه من نومه ، فوافقته استيقظ ، فصببت على اللبن من الماء حتى برد أسفله ، فقلت : يارسول الله اشرب من هذا اللبن ، قال : فشرب حتى رضيت ، ثم قال : « ألم يأن للرحيل ؟ » قلت : بلى ، قال : فارتحلنا بعد مازالت الشمس (٣) .

هذه الرواية فيها تلخيص لبعض أحداث رحلة الهجرة النبوية وهي تبين شيئاً مما قام به أبو بكر رضي الله عنه في خدمة النبي ﷺ خلال هذه الرحلة .

---

(١) أي أنظر حتى لايكون هناك عدو .

(٢) القعب قدح من خشب مقعر .

(٣) صحيح مسلم ، الزهد رقم ٧٥ / ٢٠٠٩ .

ولئن بين أبو بكر شيئاً من ذلك فإن ماسكت عنه أعظم ، فكم هي الأعمال الصالحة التي اكتسبها أبو بكر خلال تلك الرحلة المباركة ورُفِعت له !

وقد تركت ذكر مايتعلق بخبر سراقة بن مالك من هذا الحديث لأنه سيأتي في موضعه إن شاء الله تعالى .

نزول رسول الله ﷺ على أم معبد :

١١ - ذكر هذا الخبر العلامة القسطلاني في « المواهب » ونسبه شارحه العلامة الزرقاني إلى الحاكم وذكر تصحيحه إياه ، والبيهقي وصاحب الغيلانيات ، ومن طريقه اليعمري عن أبي سليط الأنصاري البدري ، كما نسبه إلى ابن عبد البر وابن شاهين وابن السَّكن والطبراني وغيرهم عن أخي أم معبد حُبَيْش بن خالد الخزاعي صاحب رسول الله ﷺ قال : لما خرج ﷺ في الهجرة ومعه أبو بكر وابن فُهَيرة وابن أرَيقط يدلهم على الطريق مروا بقُدَيد على أم معبد عاتكة بنت خالد الخزاعية ، وكانت بَرْزَة جَلْدة (١) تحتبي بفناء القبة ، ثم تسقي وتطعم من يمر بها ، وكان القوم مُرْملين مُسْنِتين (٢) ، فطلبوا لبنا ، أو لحما ، أو تمرا ، يشترونه منها فلم يجدوا عندها شيئاً ، وقالت والله لو كان عندنا شيء ما أعوزناكم القرى (٣) .

---

(١) أي كبيرة تبرز للرجال ولاتحتجب ، وجلدة أي قوية .

(٢) مرملين أي قد فنيت ازوادهم ، ومسنتين أي أصابهم القحط .

(٣) أي ما أحوجناكم إلى طلب الكرم منا الذي يُلمح إليه طلب الشراء .

فنظر ﷺ إلى شاة في كسْر الخيمة خلَّفها الجهد عن الغنم ، فسألها ﷺ : « هل بها من لبن » ؟ قالت : هي أجهد من ذلك ، فقال ﷺ : « أتأذنين أن أحلبها ؟ » فقالت نعم بأبي أنت وأمي ، إن رأيت بها حلباً فاحلبها ، فدعا ﷺ بالشاة فاعتقلها ، ومسح ضرعها وسمَّى الله تعالى ، فتفاجَّت (١) ودرَّت ، ودعا بإناء يُربض الرَّهط (٢) فحلب فيه ثجّاً (٣) ، وسقى القوم حتى رووا ، ثم شرب ﷺ آخرهم ، ثم حلب فيه مرة أخرى عَلَلاً بعد نَهَل (٤) ثم غادره عندها .

وذهبوا ، فمالبث أن جاء أبو معبد زوجها يسوق أعنزا عجافا ، يتساوكن (٥) هزلا فلما رأى اللبن أبو معبد عجب وقال : ماهذا يا أم معبد ؟ أنَّى لك هذا والشاة عازب حِيال (٦) ، ولاحلوب في البيت فقالت أم معبد : لا والله ، إلا أنه مر بنا رجل مبارك من شأنه كذا وكذا ، فقال أبو معبد : صفيه يا أم معبد فقالت : رأيت رجلا ظاهر الوضاءة مُبلج (٧) الوجه ، حسن الخَلْق ، لم تَعِبْه ثُجْلة (٨) ، ولم تُزْربه صَعْلة (٩) ،

(١) يعني فرجت رجليها .

(٢) أي يشبع الجماعة حتي يستريحوا من الشبع .

(٣) أي حلبا قويا .

(٤) يعني فشربوا ثانيا بعد الأول .

(٥) أي يتمايلن من الضعف .

(٦) أي ليست بذات لبن .

(٧) أي مشرق الوجه .

(٨) الثجلة عظم البطن .

(٩) يعني صغر الرأس أو نُحُول البدن .

وسيم قسيم (١) ، في عينيه دعج (٢)، وفي أشفاره وطف (٣) ، وفي صوته صحَل (٤) ، أحور ، أكحل أزجّ ، أقرن (٥) شديد سواد الشعر ، في عنقه سطع (٦) ، وفي لحيته كثاثة ، إذا صمت فعليه الوقار ، وإذا تكلم سما وعلاه البهاء ، وكأن منطقه خرزات نُظمْنَ يتحدرن ، حلو المنطق ، فصل لانزر ولاهذر (٧) أجهر الناس وأجمله من بعيد ، وأحلاه وأحسنه من قريب ، ربعة لاتشنؤه من طول ، ولاتقتحمه عين من قصر ، غصن بين غصنين ، فهو أنضر الثلاثة منظرا ، وأحسنهم قدرا ، له رفقاء يحفون به ، إذا قال استمعوا لقوله ، وإذا أمر تبادروا لأمره ، محفود محشود (٨) لاعابس ولامُفنِّد(٩) .

---

(١) أي حسن الوجه .

(٢) أي شدة في سوادها .

(٣) الوطف كثرة شعر العينين .

(٤) أي لم يكن حاد الصوت .

(٥) الحور شدة سواد العين مع شدة بياضها ، والكحل شدة سواد أجفان العين ، والزجج دقة الحاجبين في طول . والأقرن المقترن الحواجب .

(٦) أي طول .

(٧) أي وسط لاقليل ولاكثير .

(٨) محفود أي مخدوم ، ومحشود يعني عنده حَشْد وهم الجماعة .

(٩) المفنّد هو الذي يكثر اللوم .

فقال أبو معبد : هذا والله صاحب قريش ، لو رأيته لاتَّبعته [1] .

وجاء في رواية أبى عبد الله الحاكم : ولقد هممت أن أصحبه ولأفعلن إن وجدت إلى ذلك سبيلا ، وأصبح صوت بمكة يسمعون الصوت ولايدرون من صاحبه وهو يقول :

جزى الله رب الناس خير جزائه — رفيقين حلاَّ خيمتَي أم معبد
هما نزلاها بالهدى واهتدت به — فقد فاز من أمسى رفيق محمد
فيا لَقُصَيٍّ مازوى الله عنكم — به من فعال لاتُجَارَى وسؤدد
لِيَهْن أبا بكر سعادة جده — بصحبته من يسعد الله يسعد
ويَهْن بني كعب مقام فتاتهم — ومقعدها للمؤمنين بمرصد
سلوا أختكم عن شاتها وإنائها — فإنكمُ إن تسألوا الشاة تشهد
دعاها بشاة حائل فتحلّبت — عليه صريحاً ضَرَّة الشاة مزبد
فغادره رهناً لديها لحالب — يردِّدها في مصدر بعد مورد

فلما سمع حسان الهاتف بذلك شبَّب يجاوب الهاتف فقال :

لقد خاب قوم زال عنهم نبيهم — وقُدِّس من يسري إليهم ويغتدي
ترحَّل عن قوم فضلَّت عقولهم — وحلَّ على قوم بنور مجدَّد
هداهم به بعد الضلالة ربهم — فأرشدهم من يتبع الحق يرشد

---

(١) شرح المواهب اللدنية ١/ ٣٤٠ - ٣٤٣ .

وذكره الهيثمي وقال : رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح غير حزام بن هشام بن حبيش وأبيه وكلاهما ثقة - مجمع الزوائد ٨/ ٣١٣- .

وهل يستوي ضُلاَّل قوم تسفهوا عَمًى وهداة يهتدون بمهتد
وقد نزلت منه على أهل يثرب رِكابُ هدًى حلَّت عليهم بأسعد
نبي يرى مالا يرى الناس حوله ويتلو كتاب الله في كل مشهد
وإن قال في يوم مقالة غائب فتصديقها في اليوم أو في ضحى الغد[1]

وقال الحافظ ابن كثير عن أم معبد : وقصتها مشهورة مروية من طرق يشد بعضها بعضا ، وقد ذكر عددا من هذه الطرق [2] .

وفي هذه الرواية موقف يذكر لحسان بن ثابت رضي الله عنه حيث مدح النبي ﷺ وأشاد بالإسلام وضلل أعداءه .

١٢ - أخرج الإمام البيهقي بإسنادين عن عبد الرحمن بن أبي ليلى من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال : خرجت مع رسول الله ﷺ من مكة فانتهينا إلى حي من أحياء العرب ، فنظر رسول الله ﷺ إلى بيت مُنْتحياً فقصد إليه ، فلما نزلنا لم يكن فيه إلا امرأة ، فقالت : ياعبد الله ! إنما أنا امرأة ، وليس معي أحد ، فعليكما بعظيم الحي إذا أردتم القِرَى ، قال : فلم يجبها وذلك عند المساء .

فجاء ابن لها بأعنز له يسوقها ، فقالت له : يابني انطلق بهذه العنز والشفرة إلى هذين الرجلين فقل لهما تقول لكما أمي : اذبحا هذه وكلا

(١) المستدرك ٣/ ٩-١١ .

(٢) البداية والنهاية ٣/ ١٨٨ - ١٩٢ .

وأطعمانا ، فلما جاء ، قال له النبي ﷺ : انطلق بالشفرة وجئني بالقدح ، قال : إنها قد عزبَتْ وليس لها لبن ، قال : انطلق ، فانطلق فجاء بقدح فمسح النبي ﷺ ضرعها ، ثم حلب حتى ملأ القدح ، ثم قال : انطلق به إلى أمك ، فشربَتْ حتى رويت ، ثم جاء به فقال : انطلق بهذه وجئني بأخرى ، ففعل بها كذلك ، ثم سقى أبا بكر ، ثم جاء بأخرى ففعل بها ذلك ، ثم شرب النبي ﷺ .

قال : فبتنا ليلتنا ، ثم انطلقنا فكانت تسميه المبارك وكَثُرَتْ غنمها ، حتى جلبت جلباً إلى المدينة ، فمر أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، فرآه ابنها فعرفه ، فقال يا أمه إن هذا الرجل الذي كان مع المبارك ، فقامت إليه ، فقالت : ياعبد الله من الرجل الذي كان معك ؟ قال : وماتدرين من هو ؟ قالت : لا ، قال : هو النبي ﷺ ، قالت : فأدخلني عليه ، قال : فأدخلها عليه ، فأطعمها وأعطاها .

زاد ابن عبدان في روايته : قالت : فدُلَّني عليه فانطلقتْ معي وأهدت له شيئاً من أقط ومتاع الأعراب قال : فكساها وأعطاها قال : ولا أعلمه إلا قال أسلمت .

قال البيهقي : وهذه القصة وإن كانت تنقص عما روينا في قصة أم معبد ويزيد في بعضها فهي قريبة منها ويشبه أن يكونا واحدة (١) ، ورجح الزرقاني تعدد القصة لاختلاف بعض تفاصيل الخبرين ونقل عن الحافظ ابن حجر القول باحتمال التعدد (٢) وهو الظاهر .

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٤٩١ - ٤٩٢ .

(٢) شرح المواهب ١/ ٣٤٩ .

وذكر الحافظ ابن كثير هذه الرواية وحسَّن إسنادها (٣).

في هذا الخبر أن النبي ﷺ قصد ذلك البيت المنفرد البعيد عن الحي ، ولما أخبرته المرأة بعظيم الحي وأشارت عليه بأن يذهب إليه لم يفعل ذلك ، وهذا التصرف هو الموافق للحكمة فإن زعماء قريش قد أرسلوا إلى زعماء القبائل وأغروهم بذلك الجُعْل الكبير من الإبل في مقابل أن يأتوا برسول الله ﷺ ، فكان الأمر يقتضي أخذ الحيطة والحذر ، والابتعاد عن مضارب كبار القوم .

وفي هذا الخبر حدثت معجزة عظيمة لرسول الله ﷺ حيث مسح على ضروع تلك الشياه الخالية من اللبن فدرَّت حالاً وشربوا جميعاً من حليبها ، وقد تكررت هذه المعجزة لرسول الله ﷺ في هذه الرحلة وفي غيرها .

كما أن هذا الخبر يشتمل على معجزة أخرى للنبي ﷺ وهي ما حصل لغنم تلك المرأة من البركة والنماء ، حتى سَمَّت النبي ﷺ بسبب ذلك ، الرجل المبارك .

وفي هذا الخبر من المواقف ما حصل من رسول الله ﷺ من إكرام تلك المرأة حينما وفدت إلى المدينة والاهتمام بها .

---

(١) البداية والنهاية ٣/ ١٨٩ - ١٩٠ .

- **خبر سراقة بن مالك المُدلجي مع رسول الله ﷺ :**

١٣ - أخرج الإمام البخاري من حديث سراقة بن مالك بن جعشم المدلجي أنه قال : « جاءنا رُسُل كفار قريش يجعلون في رسول الله ﷺ وأبي بكر دية كل واحد منهما لمن قتله أو أسره . فبينما أنا جالس في مجلس من مجالس قومي بني مدلج إذ أقبل رجل منهم حتى قام علينا ونحن جلوس فقال : ياسُراقة ، إني قد رأيت آنفاً أسْوِدةً بالساحل أراها محمداً وأصحابه .

قال سراقة : فعرفت أنهم هم ، فقلت له : إنهم ليسوا بهم ، ولكنك رأيت فلانا وفلاناً انطلقوا بأعيننا ثم لبثتُ في المجلس ساعة ، ثم قمت فدخلت فأمرت جاريتي أن تخرج بفرسي - وهي من وراء أكمة - فتحبسها علي .

وأخذتُ رمحي فخرجت به من ظهر البيت فخططت بزُجِّه الأرض [1] ، وخفضت عاليه ، حتى أتيت فرسي فركبتها ، فرفعتها تقرِّب بي ، حتى دنوت منهم ، فعثرَتْ بي فرسي ، فخررت عنها ، فقمت فأهويت يدي إلى كنانتي فاستخرجت منها الأزلام ، فاستقسمت بها : أضُرُّهم أم لا ؟ فخرج الذي أكره ، فركبت فرسي - وعصيت الأزلام - تقرِّب بي ، حتى إذا سمعت قراءة رسول الله ﷺ وهو لايلتفت ، وأبو بكر يكثر الالتفات ، ساخت يدا فرسي في الأرض حتى

---

(١) أي وضع حديدة الرمح على الأرض حتى لايراه قومه .

بلغتا الركبتين فخررت عنها ، ثم زجرتها ، فنهضت فلم تكد تُخرج يديها ، فلما استوت قائمة إذا لأثر يديها عُثان ساطع في السماء مثل الدخان (١) ، فاستقسمت بالأزلام فخرج الذي أكره .

فناديتهم بالأمان فوقفوا ، فركبت فرسي حتى جئتهم . ووقع في نفسي حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم أنْ سيظهر أمر رسول الله ﷺ ، فقلت له : إن قومك قد جعلوا فيك الدية . وأخبرتهم أخبار ما يريد الناس بهم ، وعرضت عليهم الزاد والمتاع ، فلم يرزآني (٢) ، ولم يسألاني إلا أن قال : أخْفِ عنا . فسألته أن يكتب لي كتاب أمن ، فأمر عامر بن فهيرة فكتب في رقعة من أَدَم(٣) ، ثم مضى رسول الله ﷺ (٤) .

١٤ - وأخرجه الإمام مسلم من حديث أبي بكر رضي الله عنه وجاء فيه : فلما دنا دعا عليه رسول الله ﷺ . فساخ فرسه في الأرض إلى بطنه . ووثب عنه . وقال يامحمد ! قد علمت أن هذا عملك . فادع الله أن يخلصني مما أنا فيه . ولك عليَّ لأُعمِّين على مَنْ ورائي (٥) . وهذه كنانتي . فخذ سهماً منها . فإنك ستمر على إبلي وغلماني بمكان كذا وكذا . فخذ منها حاجتك . قال : « لاحاجة لي في إبلك » .

---

(١) أي غبار يشبه الدخان .

(٢) يعني لم يأخذا مني شيئاً .

(٣) أي رقعة من جلد .

(٤) صحيح البخاري ، مناقب الأنصار رقم ٣٩٠٦ .

(٥) لأعمين على من ورائي : يعني لأخفين عمن ورائي ممن يطلبكم ، وألبِّس عليهم حتى لايتبعكم أحد .

وفي رواية أخرى لمسلم قال : فرجع لايلقى أحداً إلا قال : قد كُفيتم ماههنا فلا يلقى أحداً إلا رده ، قال : ووفى لنا (١) .

١٥ – وأخرجه ابن إسحاق من حديث الزهري بإسناد الإمام البخاري نفسه وزاد في آخره : « حتى إذا كان فتح مكة على رسول الله وفرغ من حنين والطائف خرجت ومعي الكتاب لألقاه ، فلقيته بالجعرانة . قال : فدخلت في كتيبة من خيل الأنصار . فجعلوا يقرعونني بالرماح . ويقولون إليك إليك . ماذا تريد ؟ قال : فدنوت من رسول الله ﷺ وهو على ناقته ، والله لكأنّي أنظر إلى ساقه في غرزه كأنها جُمَّارة (٢) .

قال : فرفعت يدي بالكتاب ، ثم قلت : يارسول الله هذا كتابك لي ، أنا سراقة ابن جعشم قال : فقال رسول الله ﷺ : يوم وفاء وبر ، ادْنُهْ ، قال : فدنوت منه فأسلمت .

ثم تذكرت شيئاً أسأل رسول الله ﷺ عنه فما أذكره ، إلا أني قلت : يارسول الله ، الضالة من الإبل تغشى حياضي ، وقد ملأتها لإبلي ، هل لي من أجر في أن أسقيها ؟ قال : نعم في كل ذات كبد حرَّى أجر ، قال : ثم رجعت إلى قومي ، فسقت إلى رسول الله ﷺ صدقتي (٣) .

وأخرج الإمام الطبراني من حديث أسماء نحو حديث الإمام البخاري وابن إسحاق .

---

(١) صحيح مسلم ، الزهد رقم ٧٥/٢٠٠٩ (ص ٢٣١٠ - ٢٣١١) .

(٢) الجمَّار هو لب النخل ولونه أبيض بحمرة .

(٣) سيرة ابن هشام ٢/ ١١٥ - ١١٦ .

ذكره الحافظ الهيثمي وقال : فيه يعقوب بن حُمَيد بن كاسب وثقه ابن حبان وغيره ، وضعفه أبو حاتم وغيره ، وبقية رجاله رجال الصحيح[1] .

هذا الحديث يشتمل على معجزة عظيمة وآية باهرة حيث دعا رسول الله ﷺ على ذلك الفارس فحصل له ما حصل .

وهذه حلقة من حلقات المعركة التي أثارها كفار قريش ضد النبي ﷺ فخسروا فيها ونجح في الخلاص منهم وممن سخَّروه لتعويق هجرته ، ولو أدركوا من البداية أنهم يحاربون الله تعالى لوفَّروا على أنفسهم الجهد والمال ، وإن هذا الانكسار والتغير الذي حصل لفارس من أقوى وأشجع فرسان العرب دليل واضح على أن معركة أعداء الإسلام مع الله تعالى بالدرجة الأولى ، لأنه سبحانه مع أوليائه بنصره وحمايته ولن يخذلهم إذا صدقوا معه .

١٦ - أخرج الإمام البخاري من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال : « أقبل نبي الله ﷺ إلى المدينة وهو مردف أبا بكر ، وأبو بكر شيخ يُعرَف ونبي الله ﷺ شاب لايعرف . قال : فيلقى الرجل أبا بكر فيقول : يا أبابكر من هذا الرجل الذي بين يديك ؟ فيقول : هذا الرجل يهديني السبيل ، قال : فيحسب الحاسب أنه إنما يعني الطريق ، وإنما يعني سبيل الخير . فالتفت أبو بكر فإذا هو بفارس قد لحقهم ، فقال : يارسول الله ، هذا فارس قد لحق بنا ، فالتفت نبي الله ﷺ فقال : اللهم اصرعه ،

(١) مجمع الزوائد ٦/ ٥٣ - ٥٤ .

فصرعه الفرس ، ثم قامت تحمحم ، قال : يانبي الله مُرْني بما شئت . قال : فقف مكانك ، لاتتركن أحداً يلحق بنا .

قال : فكان أول النهار جاهداً على نبي الله ﷺ وكان آخر النهار مَسْلَحةً له (١) .

١٧ - وقال الحافظ ابن كثير في سياق خبر سراقة بن مالك ولما رجع سراقة جعل لايلقى أحداً من الطلب إلا رده وقال : كفيتم هذا الوجه ، فلما ظهر أن رسول الله ﷺ قد وصل إلى المدينة جعل سراقة يقص على الناس ما رأى وما شاهد من أمر النبي ﷺ وما كان من قضية جواده واشتهر هذا عنه . فخاف رؤساء قريش معرَّته ، وخشوا أن يكون ذلك سبباً لإسلام كثير منهم ، وكان سراقة أمير بني مُدْلج ورئيسهم ، فكتب أبو جهل - لعنه الله - إليهم :

بني مدلج إني أخافُ سفيهكم ... سراقة مُستغوٍ لنصر محمد
عليكم به ألاَّ يفرق جمعكم ... فيصبح شتى بعد عزٍّ وسؤدد

قال : فقال سراقة بن مالك يجيب أبا جهل في قوله هذا :

أبا حكم والله لو كنت شاهداً ... لأمر جوادي إذ تَسوخ قوائمه

---

(١) صحيح البخاري ، مناقب الأنصار ، رقم ٣٩١١ (٧/ ٢٤٩) ، وقوله « وابو بكر شيخ » يعني قد ظهر فيه الشيب وقوله «يُعرَف» يبينه ما جاء في رواية الإمام أحمد عن أنس وفيها « وكان أبو بكر يختلف إلى الشام فكان يعرف » - مسند أحمد ٣/ ٢٨٧ - ، وقوله « مسلحة له» أي يدافع عنه بسلاحه . وقوله « ونبي الله ﷺ شاب » يعني لم يظهر فيه الشيب مع كونه أكبر من أبي بكر بسنتين وأشهرُ .

عجبت ولم تشكك بأن محمداً رسول وبرهان فمن ذا يقاومه

عليك فكفَّ القوم عنه فإنني إخالُ لنا يوماً ستبدو معالمه

بأمر تَوَدُّ النصر فيه فإنهم وإنَّ جميع الناس طرًّا[1] مسالمه[2]

وذكر الحافظ ابن حجر شعر سراقة هذا في ترجمته[3] .

في هذا الخبر نجد الفرق واضحا بين أبي جهل وسراقة بن مالك ، فسراقة لَمَّا شاهد معجزة واحدة من معجزات النبي ﷺ دخل قلبَه الإسلام وصار من جنوده ، بينما نجد أبا جهل قد شاهد الكثير من المعجزات النبوية سواء منها ما كان معه أو مع غيره فلم يسلم وظل يقود العداء الشرس ضد النبي ﷺ ، وإن هذا لهو الفرق بين المتجرد من الهوى المنحرف ومن استحوذ الهوى المنحرف على قلبه ، فسراقة لم يحمل في قلبه بغضَ النبي ﷺ وإرادة حربه وعدائه ، بينما حمل أبو جهل بغضَه ورفع لواء عدائه وحربه وامتلأ قلبه حسدا وضِغنًا عليه ، فلم تَعُد الآيات تؤثر على قلبه إلا بزيادة في الحقد وإرادة الشر .

١٨ - وذكر الحافظ ابن حجر رواية عن الحسن البصري : أن رسول الله ﷺ قال لسراقة بن مالك « كيف بك إذا لبست سوارَيْ كسري ؟ » قال : فلما أُتِيَ عمر بسواري كسرى ومنطقته وتاجه دعا سراقة فألبسه وكان رجلاً أزبَّ كثير شعر الساعدين فقال له : ارفع يديك وقل الحمد

(١) يعني كلهم .

(٢) البداية والنهاية ٣/ ١٨٤ .

(٣) الاصابة ٢/ ١٨ رقم ٣١١٥ .

لله الذي سلبهما كسرى بن هرمز وألبسهما سراقة الأعرابي ، قال : وروى ذلك عنه ابن أخيه عبد الرحمن بن مالك بن جعشم [١] .

وهذه معجزة أخرى لرسول الله ﷺ حيث أخبر سراقة بأنه سيلبس سواري كسرى ، إذ لايتصور من إنسان عادي وهو في قلة من أنصاره وقد خرج في خوف وخفية من قومه أن يخبر بزوال دولة الفرس على يد أنصاره وحصول سراقة على سواري كسرى ، فلا يمكن أن يكون هذا الخبر إلا بوحي من الله تعالى .

ويتم ما أخبر به رسول الله ﷺ ، وتزول دولة الفرس على يد الصحابة رضي الله عنهم ، وتصل غنائمهم إلى المدينة في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فيدعو سراقة ويلبسه سواري كسرى .

- خبر الراعي مع رسول الله ﷺ :

١٩ - أخرج أبو عبد الله الحاكم من حديث قيس بن النعمان قال : لما انطلق النبي ﷺ وأبو بكر مستخفيين مرّاً بعبد يرعى غنما فاستسقياه من اللبن فقال : ماعندي شاة تحلب غير أن ههنا عَناقاً [٢] حملت أول الشتاء وقد أخدجت [٣] ومابقي لها لبن ، فقال : ادع بها ، فدعا بها فاعتقلها النبي ﷺ ومسح ضرعها ودعا حتى أنزلت .

قال : وجاء أبو بكر رضي الله عنه بمِجَنّ فحلب فسقى أبا بكر ثم

---

(١) الاصابة ٢/ ١٨ - ١٩ رقم ٣١١٥ .

(٢) العناق هي الأنثى من الماعز .

(٣) أي اسقطت مافي بطنها .

حلب فسقى الراعي ثم حلب فشرب ، فقال الراعي : بالله من أنت فوالله مارأيت مثلك قط ، قال : أوتُراك تكتم عليّ حتى أخبرك ؟ قال : نعم ، قال : فإني محمد رسول الله ، فقال : أنت الذي تزعم قريش أنه صابئ ، قال : إنهم ليقولون ذلك ، قال : فأشهد أنك نبي وأشهد أن ماجئت به حق وأنه لايفعل مافعلت إلا نبي وأنا متبعك ، قال : إنك لاتستطيع ذلك يومك فإذا بلغك أني قد ظهرت فأتنا .

قال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وأقره الذهبي [1] .

وقال البوصيري : رواه أبو يعلى بإسناد رواته ثقات [2] .

ورواه الحافظ البزار من حديث قيس بن النعمان قال : لما انطلق رسول الله ﷺ وأبوبكر متسخفيين نزلا بأبي معبد . . ثم ذكر خبراً يشبه هذا الخبر .

ذكره الحافظ الهيثمي وقال : ورجاله رجال الصحيح[3] .

وقوله : « نزلا بأبي معبد » لعله وهم من أحد الرواة لأن هذا الخبر مخالف في تفاصيله لأخبار أم معبد المشهورة السابقة ، ومن ذلك أن جميع أخبار أم معبد تدور على أنها هي صاحبة القصة وليس فيها أن أبا

---

(١) المستدرك ٣/ ٩ .

(٢) المطالب العالية ٤/ ٢٠٩ .

(٣) مجمع الزوائد ٦/ ٥٨

معبد لقي النبي ﷺ وخاطبه وأسلم على يديه في تلك الساعة ، فهذا الخبر مشبه لخبر الراعي وألفاظ الخبرين تكاد تكون واحدة .

هذا الخبر فيه معجزة ظاهرة لرسول الله ﷺ حيث مسح ضرع عَنَاق لا لبن فيها ودعا الله تعالى فدرَّت بالحليب فشرب هو وصحبه والراعي .

وقد اعترف الراعي بأن هذا التسخير لايكون لبشر عادي ، وأن من تم على يديه ذلك نبي مرسل من الله تعالى فآمن به بعد أن عرَّفه رسول الله ﷺ بنفسه ، وقد تم هذا الإقرار السريع من الراعي لتجرده من الهوى المنحرف ، بينما كان أصحاب الهوى المنحرف من المشركين يتهمون رسول الله ﷺ بالسحر كلما أجرى الله تعالى على يديه آية من الآيات .

وفي هذا الخبر وأخبار سابقة نجد أمثلة من تواضع النبي ﷺ حيث كان يحلب الشياه بنفسه ويقدم أصحابه بالسقي ويكون آخرهم .

- خبر اللصَّين ومواقف لرسول الله ﷺ :

٢٠ - أخرج عبد الله بن الإمام أحمد بإسناده عن فائد مولى عبادل قال : خرجت مع إبراهيم ابن عبد الرحمن بن عبد الله بن أبي ربيعة فأرسل إبراهيم بن عبد الرحمن إلى بن سعد حتى إذا كنا بالعَرْج (١) أتانا ابن سعد ، وسعدٌ الذي دل رسول الله ﷺ على طريق ركوبة (٢) فقال إبراهيم : أخبرني ماحدثك أبوك ؟ .

---

(١) هي قرية بين مكة والمدينة على أيام من المدينة .

(٢) هي ثنية عند العرج وهي الطريق الجبلي .

قال ابن سعد حدثني أبي أن رسول الله ﷺ أتاهم ومعه أبو بكر وكان لأبي بكر عندنا بنت مسترضعة وكان رسول الله ﷺ أراد الاختصار في الطريق إلى المدينة فقال له سعد : هذا الغائر [1] من ركوبة وبه لِصَّان من أسلم يقال لهما المُهَانان فإن شئت أخذنا عليهما ، فقال رسول الله ﷺ : خُذْبنا عليهما ، قال سعد : فخرجنا حتى أشرفنا إذا أحدهما يقول لصاحبه : هذا اليماني[2] ، فدعاهما رسول الله ﷺ فعرض عليهما الإسلام فأسلما ثم سألهما عن أسمائهما فقالا نحن المهانان ، فقال : بل المُكرمان ، وأمرهما أن يقدما عليه المدينة [3] .

في هذا الخبر أن رسول الله ﷺ فضَّل الطريق المختصر إلى المدينة لما تجاوز المراحل الأولى من الطريق ، مع أن الدليل ذكر له أن الطريق المختصر فيه خطر الهجوم عليهم من لصَّين مشهورين هناك ، وهذا دليل على شجاعته ﷺ وإقدامه على المخاطر عندما تكون فيها المصلحة ، وذلك من قوة توكله على الله تعالى .

وفيه اهتمامه ﷺ بالدعوة إلى الله تعالى حيث اغتنم الفرصة فدعا اللصين المذكورين إلى الإسلام فأسلما ، وإن في إسلام هذين اللصين مع ما ألفاه من حياة البطش والسلب والنهب دليلاً على سرعة إقبال النفوس على اتباع الحق إذا وُجد من يمثله بصدق وإخلاص ، وتجردت نفس السامع من الهوى المنحرف .

---

(١) هو جبل قرب المدينة .

(٢) يعني القادم من جهة اليمن ، وكانوا يعبِّرون عن جهة الجنوب باليمن

(٣) الفتح الرباني ٢٠/ ٢٨٩ .

وإن في إسلام هذين اللصين تقريعا وتوبيخاً لكفار مكة الذين بقي عندهم رسول الله ﷺ ثلاث عشرة سنة يدعوهم إلى الله تعالى فما لانت قلوبهم ولا استنارت بصائرهم ، حيث أصبح اللصوص المهانون المنبوذون أسرع منهم استجابة لنداء الحق وتأثرًا بدعاته .

وإن في اهتمام الرسول الله ﷺ بتغيير اسمَي هذين اللصين من المهانَيْن إلى المكْرَمَيْن دليلاً على اهتمامه بسمعة المسلمين ومراعاته مشاعرهم إكراماً لهم ورفعاً من معنويتهم .

وإن في رفع معنوية الإنسان تقوية لشخصيته ودفعا له إلى الأمام ليبذل كل طاقته في سبيل الخير والصلاح .

- وصول النبي ﷺ إلى المدينة :

٢١ - أخرج الإمام البخاري من حديث عروة بن الزبير : « أن رسول الله ﷺ لقيَ الزبير في ركب من المسلمين كانوا تجاراً قافلين من الشام ، فكسا الزبير رسول الله وأبا بكر ثياب بياض .

وسمع المسلمون بالمدينة مخرج رسول الله ﷺ من مكة ، فكانوا يغدون كل غداة إلى الحرة فينتظرونه ، حتى يردَّهم حر الظهيرة ، فانقلبوا يوماً بعد ما أطالوا انتظارهم ، فلما أوَوْا إلى بيتوتهم أوفَى رجل من يهود على أُطُم من آطامهم (١) لأمر ينظر إليه ، فبصُرَ رسول الله ﷺ وأصحابه مبيِّضين يزول بهم السراب ، فلم يملك اليهودي أن قال بأعلى صوته : يامعاشر العرب ، هذا جَدُّكم الذي تنتظرون (٢) .

(١) أي حصن من حصونهم .

(٢) أي هذا حظكم وصاحبكم .

فثار المسلمون إلى السلاح ، فتلقوا رسول الله بظهر الحرة ، فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بهم في بني عمرو بن عوف ، وذلك يوم الإثنين من شهر ربيع الأول ، فقام أبو بكر للناس ، وجلس رسول الله ﷺ صامتاً ، فطفق من جاء من الأنصار - ممن لم ير رسول الله ﷺ - يُحيِّي أبا بكر ، حتى أصابت الشمس رسول الله ﷺ ، فأقبل أبو بكر حتى ظلَّل عليه بردائه ، فعرف الناس رسول الله ﷺ عند ذلك .

فلبث رسول الله ﷺ في بني عمرو بن عوف بضع عشرة ليلة ، وأسَّس المسجد الذي أُسِّس على التقوى ، وصلى فيه رسول الله ﷺ . ثم ركب راحلته ، فسار يمشي معه الناس ، حتى بركت عند مسجد الرسول ﷺ بالمدينة ، وهو يصلي فيه يومئذ رجال من المسلمين ، وكان مرْبَدًا للتمر (١) لسهيل وسهل غلامين يتيمين في حجر أسعد بن زرارة ، فقال رسول الله ﷺ حين بركت به راحلته : هذا إن شاء الله المنزل .

ثم دعا رسول الله ﷺ الغلامين فساومهما بالمربد ليتخذه مسجداً ، فقالا : لا ، بل نهبه لك يارسول الله ، فأبى رسول الله ﷺ أن يقبله منهما هبة حتى ابتاعه منهما ، ثم بناه مسجداً ، وطفق رسول الله ﷺ ينقل معهم اللبنَ في بُنْيانه ويقول - وهو ينقل اللبن : -

هذا الحِمالُ لا حِمال خَيبرْ (٢) هـــــذا أبـرُّ ربـنا وأطـهر

---

(١) يعني المكان الذي يجفف فيه التمر .

(٢) يعني هذا المحمول وهو لبن البناء هو الحمال المعتبر لأنه يراد به ثواب الآخرة ، بخلاف حمال خيبر من التمر ونحوه فإنه يراد منفعة الدنيا .

ويقول : اللـهم إن الأجرَ أجرُ الاخرة   فارحم الأنصار والمهاجرة

فتمثل بشعر رجل من المسلمين لم يُسَمَّ لي [١] .

في هذا الحديث بيان خبر وصول النبي ﷺ إلى المدينة ، وهو يصور مدى حب الأنصار له حيث كانوا يخرجون كل يوم لانتظاره إلى أن يمسهم حر الشمس .

وقد استقبلوا رسول الله ﷺ استقبالاً كبيراً وكان عدد الذين استقبلوه خمسمائة[٢] .

ويصور البراء بن عازب رضي الله عنه الموقف بقوله : « ثم قدم رسول الله ﷺ فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم برسول الله ﷺ حتى جعل الإماء يقلن : قدم رسول الله [٣] .

وصار الناس يهتفون « جاء نبي الله جاء نبي الله »[٤] .

ومما يشتمل عليه هذا الحديث بيان تواضع النبي ﷺ العظيم حيث لم يكن في لباسه مختلفا عن أبي بكر رضي الله عنه ، حتى أصبح الذين لايعرفونه يحيُّون أبا بكر يظنون أنه رسول الله ﷺ .

لقد كان بإمكان النبي ﷺ أن يظهر بهيئة متميزة ، ولو فعل ذلك لم

---

(١) صحيح البخاري ، مناقب الأنصار ، رقم ٣٩٠٦ (٧/ ٢٣٩) .

(٢) فتح الباري ٧/ ٢٥١ .

(٣) صحيح البخاري رقم ٣٩٢٤ (٧/ ٢٦٠) .

(٤) صحيح البخاري رقم ٣٩١١ (٧/ ٢٥٠) .

يوجّه إليه نقد لكون الرؤساء عادة يُعرفون بتميزهم ، ولكن رسول الله ﷺ الذي جعله الله تعالى هاديا وقدوة في الخير لم يصنع شيئاً من ذلك تواضعا لله جل وعلا ، وليكون أسوة لأمته في هذا الخلق النبيل .

ومما يشتمل عليه هذا الحديث من المواقف ما كان من رسول الله ﷺ من الاهتمام ببناء المساجد والإسراع في ذلك فقد بقي في بني عمرو بن عوف بضع عشرة ليلة فقط ،فأسس في حيِّهم مسجد قباء الذي ذكره الله تعالى بقوله : ﴿ **لمسجد أُسِّسَ على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه** ﴾(1) .

ثم لما تحول رسول الله ﷺ إلى داخل المدينةقام بتأسيس المسجد النبوي حال وصوله ، وهذا يدلنا على أهمية بناء المساجد وأنها المَعْلَم الأول من معالم الإسلام .

ولقد كان رسول الله ﷺ مشاركاً لأصحابه في بناء المسجد ينقل معهم اللَّبِن حتى قام المسجد واكتمل بناؤه ، وكان في الصحابة رضي الله عنهم- الذين كانوا يفدونه بأرواحهم- مايكفي ويغني ، ولكنه ﷺ كان حريصاً على السبق إلى الأعمال الصالحة ، والمنافسة عليها ، فما كان ليفرِّط بتلك المناسبة الجليلة ، ولقد ضرب بذلك مثلاً عالياً في القدوة الحسنة ، ليسير على دربه المسلمون وخاصة أصحاب المسئولية منهم لأنهم ممن يقتدى بهم .

ولقد كان إسهام النبي ﷺ في بناء المسجد دافعاً قوياً للصحابة

---

(1) سورة التوبة آية ١٠٨ .

ليواصلوا العمل ، كما جاء في قول أحدهم :

لئـن قعدنـا والـنبي يعمل ذاك إذاً لَلْعمـلُ المضـلَّل

ولقد كانوا في غاية النشاط والحماس وهم يبنون المسجد ، يصور ذلك قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه :

لايستوي من يعمر المساجدا يـدأب فيهـا قائما وقـاعدا

ومن يُرى عن التراب حائدا [١]

وممن أُثر عنهم التنافس في هذا العمل الصالح عمار بن ياسر رضي الله عنهما ، كما أخرج الإمام أحمد بإسناده عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : « أمرنا رسول الله ﷺ ببناء المسجد فجعلنا ننقل لبنة لبنة ، وكان عمار ينقل لبنتين لبنتين ، فَتَتَّرب رأسه ، قال : فحدثني أصحابي ولم أسمعه من رسول الله ﷺ أنه جعل ينفض رأسه ويقول : ويحك يابن سمية تقتلك الفئة الباغية » [٢] .

وهذه الجملة رواها الإمام مسلم من حديث أم سلمة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال لعمار : « تقتلك الفئة الباغية » [٣] .

وهذا من دلائل النبوة فقد قتل عمار في الفتنة التي كانت في عهد علي رضي الله عنه .

---

(١) فتح الباري ٧/ ٢٤٧ .

(٢) مسند أحمد ٣/ ٥ .

(٣) صحيح مسلم ، الفتن ، رقم ٢٩١٦ (٤/ ٢٢٣٦) .

وهكذا وصل رسول الله ﷺ إلى المدينة بعد هذه الرحلة الشاقة المحفوفة بالمخاطر .

وقد يقول قائل : لماذا يتعرض رسول الله ﷺ لهذه المخاطر والمشاقّ والمواقف المخيفة والله قادر على أن يحمله إلى المدينة في لمح البصر ؟!

فيقال : إن الله تعالى قادر - وهو القادر على كل شيء - أن يحمل رسوله ﷺ على البراق الذي حمله ليلة الإسراء ، وعلى ماهو أعظم وأسرع من ذلك ، ولكن الله تعالى جعل نبيه ﷺ قدوة عُظْمَى للناس ، فلذلك شرع له فعل الأسباب التي يفعلها الناس عادة .

ولو تمت الهجرة بخارق للعادة لم تحصل تلك المواقف العالية والعبر العظيمة التي استفدناها من هذه الهجرة المباركة ولم تكن تلك الدروس العالية التي تم بها إسلام من أسلم وظلت دروسا خالدة مع الزمن تُقوِّي الإيمان وتبعث الثقة واليقين .

هذا وإن أحداث الهجرة من أولها إلى آخرها دليل على قوة توكل النبي ﷺ على ربه جل وعلا ، فحينما خرج من بيته وحده لم يتردد ولم يخامره شعور بالخوف من المشركين لقوة يقينه بأن الله تعالى معه بنصره وتأييده ، وحينما شعر أبو بكر بوجود المشركين حول الغار وبكى خوفا على رسول الله ﷺ أجابه ﷺ بلغة الواثق بربه ثقة تامة ، المتوكل عليه توكلا كاملا : يا أبا بكر ماظنك باثنين الله ثالثهما ، لاتحزن إن الله معنا .

وحينما لحق بهما سراقة بن مالك كان ﷺ رابط الجأش ثابت الجناب ، وهذا مظهر من مظاهر التوكل التام على الله تعالى .

ولقد كانت أحداث الهجرة مثالا حياً في الجمع بين فعل الأسباب والتوكل على الله تعالى ، فقد قام النبي ﷺ بفعل الأسباب الممكنة حينما اختفى هو وصاحبه في الغار ، وكان مصاحبا للتوكل على الله تعالى من أول لحظة خطا فيها خطوات الهجرة إلى نهايتها .

وحينما أنهى رسول الله ﷺ فعل الأسباب الممكنة واستقر في الغار مع صاحبه تمحَّضَ التفكير للتوكل على الله تعالى لأنه قد انتهى دور الأسباب المصاحب للتوكل ، وأصبح النظر منصرفاً إلى التوكل على الله تعالى وحده فلذلك قال النبي ﷺ لأبي بكر : « ما ظنك باثنين الله ثالثهما» ولم يذكر فعل أسباب أخرى حال كونهما في الغار .

وقد كانت مدة إقامة النبي ﷺ في مكة ثلاث عشرة سنة ،كما أخرج الإمام البخاري من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال : بُعث رسول الله ﷺ لأربعين سنة فمكث بمكة ثلاث عشر سنة يُوحَى إليه، ثم أمر بالهجرة فهاجر عشر سنين ، ومات وهو ابن ثلاث وستين(١) .

* * *

(١) صحيح البخاري ، مناقب الأنصار ، رقم ٣٩٠٢ .

٢٠ - هجرة علي بن أبي طالب

قال محمد بن إسحاق رحمه الله تعالى : وأقام علي بن أبي طالب عليه السلام بمكة ثلاث ليال وأيامها حتى أدى عن رسول الله ﷺ الودائع التي كانت عنده للناس ، حتى إذا فرغ منها لحق برسول الله ﷺ ، فنزل معه على كلثوم بن هدْم .

فكان علي بن أبي طالب - وإنما كانت إقامته بقباء ليلة أو ليلتين - يقول : كانت بقباء امرأة لازوج لها مسلمة ، قال : فرأيت إنساناً يأتيها من جوف الليل فيضرب عليها بابا ، فتخرج إليه فيعطيها شيئاً معه فتأخذه . قال : فاستربت بشأنه ، فقلت لها : يا أَمَةَ الله ، من هذا الرجل الذي يضرب عليك بابك كل ليلة فتخرجين إليه فيعطيك شيئاً لا أدري ماهو ، وأنت امرأة مسلمة لازوج لك ؟ قالت : هذا سهل بن حنيف بن واهب ، قد عرف أني امرأة لا أحد لي ، فإذا أمسى عَدَا على أوثان قومه فكسرها ، ثم جاءني بها ، فقال : احتطبي بهذا ، فكان علي رضي الله عنه يأثرُ ذلك من أمر سهل بن حنيف حين هلك عنده بالعراق .

قال ابن إسحاق : وحدثني هذا من حديث علي رضي الله عنه ، هندُ بن سعد بن سهل بن حنيف رضي الله عنه [1] .

في هذا الخبر مواقف إسلامية عالية :

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ١١٩ - ١٢٠ .

الأول : في بقاء علي بن أبي طالب رضي الله عنه وحده في مكة بعد هجرة النبي ﷺ وقد هاجر قبل ذلك المسلمون ولم يبق في مكة إلا مفتون أو محبوس ، وهذا دليل على شجاعته وجسارته حيث كان مُعَرَّضا لنقمة زعماء قريش منه ، ثم في سفره بعد ذلك وحده إلى المدينة .

الثاني : في اهتمامه الدقيق بأمور المسلمين ، فقد لاحظ وضع تلك المرأة مع قلة إقامته في دار قومها فسألها عن أمرها ، وهذا التحري الدقيق والاهتمام البالغ من نتائج التربية النبوية العالية ، فأفراد المسلمين يعتبرون بالنسبة للمسلم كأفراد أسرته يغار عليهم ، ويسد حاجتهم ويصلح مافسد من أمرهم .

الثالث : موقف يذكر لسهل بن حنيف رضي الله عنه جمع فيه بين عملين صالحين : تحطيم الأصنام ، ودفع حطامها لتلك المرأة الفقيرة لتتخذ منه وقوداً لنارها ، وما أعظم أن يجمع المسلم بين جهاد أعداء الإسلام وإزالة معالم الوثنية وبين الإحسان إلى المسلمين والبرِّ بهم .

الرابع : في بقاء علي رضي الله عنه على ذكر هذا العمل الصالح عقودا من الزمن وثنائه على سهل بن حنيف رضي الله عنه بعد ذلك الزمن الطويل ، وإنما يقدِّر العمل الصالح وفضل أهل الفضل من كان عميق الشعور بذلك .

* * *

٢١ - مثل في التضحية

(هجرة صهيب بن سنان)

أخرج أبو عبد الله الحاكم من حديث صهيب بن سنان رضي الله عنه قال قال : رسول الله ﷺ : « رأيت دار هجرتكم سبخة بين ظهراني حرة فإما أن تكون هَجَرا أو تكرن يثرب » .

قال : وخرج رسول الله ﷺ إلى المدينة ، وخرج معه أبو بكر رضي الله عنه ، وكنت قد هممت بالخروج معه فصدني فتيان قريش فجعلت ليلتي تلك أقوم ولا اقعد ، فقالوا : شغله الله عنكم ببطنه ولم أكن شاكيا ، فقاموا فلحقني منهم ناس بعدما سرت بريدا ليردوني ، فقلت لهم : هل لكم أن أعطيكم أواقيَ من ذهب وتخلون سبيلي وتَفُونَ لي ؟ فتبعتهم إلى مكة فقلت لهم : احفروا تحت أسكفَّة الباب فإن تحتها الأواق ، واذهبوا إلى فلانة فخذوا الحلتين ، وخرجت حتى قدمت على رسول الله ﷺ قبل أن يتحوَّل منها - يعني قباء - فلما رآني قال : يا أبا يحيى ربح البيع ، ثلاثاً ، فقلت : يارسول الله ماسبقني إليك أحد وما أخبرك إلا جبريل عليه السلام .

قال الحاكم هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه وأقره الذهبي (١) .

وأخرجه الإمام أحمد من حديث أبي عثمان النهدي ، وفيه أن كفار

---

(١) المستدرك ٣/ ٤٠٠ .

قريش قالوا : أتيتنا صعلوكا حقيرا ثم أصبت بين أظهرنا المال و بلغت الذي بلغت ثم تريد أن تخرج أنت ومالك ؟ والله لايكون ذلك ، قال : فقال صهيب : أرأيت إن جعلت لكم مالي أتخلون أنتم سبيلي ؟ قال فقالوا : نعم فخلع لهم ماله ، قال : فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال : ربح صهيب ، ربح صهيب (١) .

وأخرج أبو عبد الله الحاكم من حديث عكرمة قال : لما خرج صهيب مهاجرا اتبعه أهل مكة فنثل كنانته فأخرج منها أربعين سهما فقال : لا تصلون إليَّ حتى أضع في كل رجل منكم سهما ، ثم أصير بعدُ إلى السيف فتعلمون أني رجل ، وقد خلَّفت بمكة قينتين فهما لكما .

قال (وحدثنا) حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس نحوه ، ونزلت على النبي ﷺ ﴿ **وَمِنَ الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله** ﴾ الآية فلما رآه النبي ﷺ قال : أبا يحيى ربح البيع قال : وتلا عليه الآية .

قال الحاكم : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه (٢) .

وقوله « فتعلمون أني رجل » يعني رجل الحرب ، وقد جاء في رواية ذكرها الحافظ ابن حجر « فقال : يامعشر قريش إني من أرماكم» (٣) .

---

(١) فضائل الصحابة ٢/ ٨٢٨ ، وقال محققه الدكتور وصي الله : مرسل رجاله ثقات .

(٢) المستدرك ٣/ ٣٩٨ .

(٣) الاصابة ٢/ ١٨٨ رقم ٤١٠٤ .

في هذا الأثر موقف جليل لصهيب بن سنان رضي الله عنه حيث ضحى بماله وفدى به دينه ، وهو نموذج لعموم المهاجرين الذي تركوا أموالهم التي لايمكن نقلها كالبيوت وبعض أموالهم الأخرى التي غلبهم عليها الكفار ، كما تركوا مصالحهم التجارية حيث كان أهل مكة يتمتعون برحلتي الشتاء والصيف لليمن والشام ووفادة العرب على مكة .

لقد هاجروا وتركوا مصالحهم وأموالهم ابتغاء رضوان الله تعالى والسعادة في الآخرة .

ولقد امتدح الله تعالى صهيبا وأمثاله بقوله تعالى ﴿ **ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله والله رَءُوف بالعباد** ﴾ (٢) .

وموقف جهادي رائع لصهيب ، حيث أعلن الحرب ضد الكفار وهو وحده وهم جميع ، وقد خضعوا له وتركوه يهاجر إبقاء على أنفسهم ، ورغبة في الحصول على ماله الذي دلهم عليه وتنازل عنه لهم .

وهذا دليل على أن الكفار ينظرون أوّلاً وقبل كل شيء إلى مصالحهم الخاصة ، من وقاية أنفسهم وحصولهم على أكبر قدر ممكن من متاع الدنيا ، أما النظر إلى المبادئ المقدسة عندهم فهو أمر ثانوي ، بخلاف المسلمين الذين يعتبرون الإسلام هو المطلب الأول والقضية الكبرى كما فعل صهيب وغيره من الصحابة رضي الله عنهم ، وهذا هو

---

(١) سورة البقرة آية ٢٠٧ .

أحد أسرار انتصار المسلمين الساحق على الكفار رغم ضعف المسلمين الواضح من الناحية المادية .

وإلى جانب ما في هذا الأثر من موقف جليل لصهيب رضي الله عنه فإن فيه معجزة للنبي ﷺ حيث قال لصهيب : يا أبا يحيى ربح البيع ، فأخبر عن أمر غيبي ، وقد عبر عن هذه المعجزة صهيب بقوله : يارسول الله ما سبقني إليك أحد وما أخبرك إلا جبريل عليه السلام .

ونجد في عبارة النبي ﷺ معاني سامية من مواساة المنكوبين ، ورفع معنوية المقهورين ، فإن أولئك الرعيل المختار لو أُعطِي أحدهم أضعاف أضعاف ما فقد من الدنيا لم يَزِنْ عنده البشارة برضوان الله تعالى والسعادة الأخروية .

تم بحمد الله هذا الجزء ويليه الجزء

الرابع وبه ابتداء موضوعات

العهد المدني

فهرس الموضوعات

السيرة النبوية

(٤)

الطبعة الأولى

١٤١٨ هـ - ١٩٩٧م

رقم الإيداع ٥٦٣٢ / ٩٧

الترقيم الدولى

977 - 253 - 151 - 8

دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع

١ شارع منشا - محرم بك - الإسكندرية

ت : ٤٩٠١٩١٤ فاكس : ٥٩٥١٦٩٥

مكتب توزيع القاهرة ت : ٣٨٣٢٧٤٧

التاريخ الإسلامي

مواقف وعبر

السيرة النبوية

(٤)

تأليف

دكتور عبد العزيز بن عبد الله الحميدي
الأستاذ بكلية الدعوة وأصول الدين بجامعة أم القرى

دار الدعوة
للطبع والنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

مواقف وعبر

ما بين الهجرة وغزوة بدر

١- رسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة

أخرج أبو عبد الله الحاكم من حديث أبي أمامة الباهلي عن أبي أيوب قال لما نزل عليّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قلت : بأبي أنت وأمي إني أكره أن أكون فوقك وتكون أسفل مني ، فقال رسول الله ﷺ : « إني أرفق بي أن أكون في السفليِّ لما يغشانا من الناس » ، قال : فلقد رأيت جرة لنا انكسرت فأهريق ماؤها فقمت أنا وأم أيوب بقطيفة لنا ما لنا لحاف غيرها ننشف بها الماء فَرَقًا أن يصل إلى رسول الله ﷺ شيء يؤذيه .

قال الحاكم هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ، وأقره الذهبي (١) .

وأخرجه ابن إسحاق من طريق أبي رهم السماعي عن أبي أيوب رضي الله عنه وذكر مثله (٢) .

وقد ذكر ابن إسحاق أن رسول الله ﷺ لما نزل عن ناقته ، بادر أبو أيوب الأنصاري فاحتمل رحله فوضعه في بيته (٣) .

وهذا سَبْق من أبي أيوب خالد بن زيد الأنصاري إلى هذا الخير الكبير ، فحاز شرف نزول المصطفى ﷺ في بيته ، وقد ذكر ابن إسحاق

---

(١) المستدرك ٣/ ٤٦٠ - ٤٦١ .

(٢) سيرة ابن هشام ٢/ ١٢٥ .

(٣) سيرة ابن هشام ٢/ ١٢٢ .

قبل ذلك أن جميع الأنصار الذين مرَّ رسول الله ﷺ بدورهم كانوا يعرضون عليه النزول عندهم فيقول « خَلُّوا سبيلها فإنها مأمورة » يعني ناقته ، حتى وصلت إلى موضع مسجده فبركت فيه (١) .

وإن ما قام به أبو أيوب الأنصاري من إكرام النبي ﷺ إلى الحد الذي ذكره في هذه الرواية يعتبر من مواقفه المأثورة رضي الله عنه .

وأخرج أبو عبد الله الحاكم بإسناده عن سماك بن حرب قال : سمعت جابر بن سمرة يقول : نزل رسول الله ﷺ على أبي أيوب ، وكان إذا أكل طعاما بعث إليه بفضله فينظر إلى موضع يد رسول الله ﷺ فيأكل من حيث موضع يده ، فصنع ذات يوم طعامًا فيه ثوم فأرسل به إليه ، فردَّه رسول الله ﷺ ، فأتى النبي ﷺ فقال : يارسول الله لم أر أثر أصابعك ! فقال : إنه كان فيه ثوم (قال شعبة) في حديثه : أحرام هو ؟ فقال رسول الله ﷺ : لا (وقال حماد) في حديث : يارسول الله بعثت إلي بما لم تأكل ؟ فقال : إنك لست مثلي إنه يأتيني الملك .

قال الحاكم : هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه وأقره الإمام الذهبي (٢) .

وأخرجه ابن إسحاق من حديث أبي أيوب رضي الله عنه وذكر مثله (٣) .

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ١٢١ - ١٢٢ .

(٢) المستدرك ٣/ ٤٦٠ .

(٣) سيرة ابن هشام ٢/ ١٢٦ .

وهذا مثل آخر من عناية أبي أيوب رضي الله عنه برسول الله ﷺ وحبه الكبير له ، فقد كان يتبرك بفضلته من الطعام .

وكونه ﷺ يُفْضل من الطعام دليل على أن السنَّة أن يأكل الإنسان قدر طاقته من الطعام ، وأن إبقاء شيء من الطعام لايعتبر جحوداً للنعمة ما لم يكن في ذلك سرف أو خيلاء .

* * *

٢ - مثل من زهد النبي ﷺ
(بناء بيوته في المدينة)

قال السهيلي رحمه الله تعالى : وأما بيوته عليه الصلاة والسلام فكانت تسعة بعضها من جريد مطيَّن بالطين ، وسقفها جريد ، وبعضها من حجارة مرضومة بعضها فوق بعض مسقفة بالجريد أيضًا .

قال : وقال الحسن بن أبي الحسن (١) : كنت أدخل بيوت النبي ﷺ وأنا غلام مراهق فأنال السقف بيدي (٢) .

وذكر محمد بن يوسف الصالحي من طريق محمد بن عمر الواقدي عن معاذ بن محمد الأنصاري قال : سمعت عطاء الخراساني قال : أدركت حجر أزواج النبي ﷺ من جريد على أبوابها المسوح من شعر أسود ، فحضرت كتاب الوليد بن عبد الملك يقرأ ، يأمرنا بهدم حجر أزواج النبي ﷺ (٣) ، فما رأيت يومًا كان أكثر باكيا من ذلك اليوم .

قال عطاء : فسمعت سعيد بن المسيب يقول يومئذ : والله لوددت أنهم تركوها على حالها ، ينشأ نَاشئٌ من أهل المدينة ويقدم القادم من الآفاق فيرى ما اكتفى به رسول الله ﷺ في حياته ، فيكون ذلك مما يزهد الناس في التفاخر والتكاثر .

قال معاذ : وقال يومئذ أبو أمامة رضي الله عنه : ليتها تُركت فلم

(١) يعني الإمام الحسن البصري رحمه الله تعالى .

(٢) الروض الأنف ٤/ ٢٦٧ .

(٣) يعني لإضافة مكانها إلى المسجد النبوي .

تهدم حتى يفصل الناس عن البناء ويروا ما رضي الله تعالى لنبيه ﷺ ومفاتيح خزائن الدنيا بيده [1] .

وهكذا كانت بيوت النبي ﷺ في غاية البساطة بينما كانت المدينة تشتهر بالحصون العالية التي كان يتخذها علْيَةَ القوم تباهيًا بها في السلم واتقاء بها في الحرب ، وكانوا من تفاخرهم بها يضعون لها أسماء ، كما كان حصن عبد الله بن أُبَيّ ابن سلول اسمه مزاحم ، وكما كان حصن حسان بن ثابت رضي الله عنه اسمه فارع .

ولكن النبي ﷺ بني بيوته بذلك الشكل البسيط جدًا ، وكان باستطاعته أن يبني لنفسه قصورًا شاهقة ، ولو أنه أشار إلى رغبته بذلك مجرد إشارة لسارع الأنصار في بنائها له ، كما كان بإمكانه أن يشيِّدها من أموال الدولة العامة كالفيء ونحوه ، ولكنه ﷺ لم يفعل ذلك لأنه القدوة العليا لأمته في التواضع والزهد في الدنيا وجمع الهمة لعمل الآخرة .

* * *

---

(١) سبل الهدى والرشاد ٣/ ٣٤٨ - ٣٤٩ .

٣ - مثل من جهاد النفس وتحكيم العقل

(إسلام عبد الله بن سلام)

إن مواقف الصحابة رضي الله عنهم في نصرة الإسلام قد أخذت أشكالاً متعددة ، وإن إسلام عبد الله بن سلام رضي الله عنه يتسم بطابع الانتصار في جهاد النفس وانتزاعها من سيطرة الهوى والتقليد الأعمى ، فقد كان عبد الله بن سلام من علماء اليهود وسادتهم ، فأيقن بأن الإسلام هو الدين الحق وعرف أنه الدين الذي بشر به أنبياء بني اسرائيل عليهم السلام ، فأظهر إسلامه وتحدى بذلك قومه من اليهود .

وكان من خبر إسلامه ما أخرجه الإمام محمد بن إسحاق رحمه الله تعالى قال : « وكان من حديث عبد الله بن سلام - كما حدثني بعض أهله عنه وعن إسلامه ، وكان حبراً عالما - قال : لما سمعت برسول الله ﷺ عرفت صفته واسمه وزمانه الذي كنا نتوكَّف له »(١) .

وهذا دليل على أن رسول الله ﷺ معروف بعينه لدى اليهود من الأوصاف التي كانت مُبَيَّنة في التوراة والإنجيل ، وهذا من علامات نبوة رسول الله ﷺ البارزة ، قال تعالى في ذلك ﴿ **أولَم يكُنْ لهم آية أن يَعْلَمه علماء بني إسرائيل** ﴾(٢) .

« قال : فكنت مُسرّاً لذلك صامتا عليه حتى قدم رسول الله ﷺ المدينة ، فلما نزل بقباء في بني عمرو بن عوف أقبل رجل حتى أخبر

---

(١) أي ننتظره .

(٢) الشعراء / ١٩٧ .

بقدومه وأنا في رأس نخلة لي أعمل فيها ، وعمتي خالدة بنت الحارث تحتي جالسة ، فلما سمعْتُ الخبر بقدوم رسول الله ﷺ كبَّرت ، فقالت لي عمتي حين سمعت تكبيري : خيَّبك الله ، والله لو كنت سمعت بموسى بن عمران قادمًا مازدت ، قال : فقلت لها : أي عمة هو والله أخو موسى بن عمران وعلى دينه ، بعث بما بعث به » .

يعني بذلك أنهما على دين التوحيد الذي بعث الله به جميع الرسل وإن اختلفت شرائعهم فيما يتعلق بتنظيم حياة الناس .

قال : فقالت : أيْ ابن أخي أهو النبي الذي كنا نُخْبَره أنه يُبعث مع نفس الساعة ؟ قال فقلت لها : نعم ، قال فقالت : فذاك إذًا .

وهذا دليل على أن بعثة النبي ﷺ معلومة لدى جميع اليهود ، وليست خاصة بعلمائهم ، وأنه يبعث قبيل الساعة ، وهذا موافق لقول رسول الله ﷺ « بعثت أنا والساعة كهاتين ، ويقرن بين إصبعيه السبابة والوسطى » اخرجه الشيخان (١) .

« قال : ثم خرجت إلى رسول الله ﷺ فأسلمت ثم رجعت إلى أهل بيتي فأمرتهم فأسلموا » (٢) .

---

(١) صحيح البخاري ، الرقاق رقم ٦٥٠٣ (١١/ ٣٤٧) صحيح مسلم ، الجمعة رقم ٨٦٧ (ص٥٩٢) .

(٢) قد جاء دكر إسلام عبد الله بن سلام مجملا في هذه الرواية ، ولكنه جاء مفصلا في رواية الإمام البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه وفيها : فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إني سائلك عن ثلاث لايعلمهنَّ إلا نبي : فما أوَّلُ أشراط الساعة ؟ وما أوَّل طعام أهل الجنة ؟ ومايَنزِعُ الولدُ إلى أبيه أو إلى أمه ؟ . =

قال : وكتمت إسلامي من يهود ، ثم جئت رسول الله ﷺ فقلت له : يارسول الله إن يهود قوم بُهْت (١) وإني أحب أن تدخلني في بعض بيوتك تغيِّبني عنهم ، ثم تسألهم عني حتى يخبروك كيف أنا فيهم قبل أن يعلموا بإسلامي ، فإنهم إن علموا به بهتوني وعابوني » .

وهذه شهادة من عالم كان من علماء اليهود تدل على مدى الانحدار الخلقي الذي آل إليه أمر اليهود ، حيث أصبحوا لاعهد لهم ولاذمة ، وإذا كانت هذه حال أسلاف اليهود وهم أقرب إلى عهد رسالتهم فكيف بخَلَفهم في هذا الزمن ؟ ! .

« قال : فأدخلني رسول الله ﷺ في بعض بيوته ، ودخلوا عليه فكلموه وسألوه . ثم قال لهم : أيُّ رجل فيكم الحصين بن سلام (٢) ؟ قالوا : سيدنا وابن سيدنا وحبرنا وعالمنا (٣) .

قال : فلما فرغوا من قولهم خرجت عليهم فقلت : يامعشر يهود

= قال : أخبرني بهنَّ جبريل آنفًا . قال : جبريل ؟ قال : نعم . قال : ذاك عدوُّ اليهود من الملائكة . فقرأ هذه الآية ﴿ من كان عدوًا لجبريل فإنه نزله على قلبك ﴾ ، أما أول أشراط الساعة فنارٌ تحشُر الناس من المشرق إلى المغرب ، وأما أولُ طعام أهل الجنة فزيادةُ كبد الحوت ، وإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزعَ الولدُ ، وإذا سبقَ ماء المرأة نَزعت . قال : أشهدُ أن لا إله إلا الله وأشهدُ أنك رسول الله ، وسيأتي تخريجه في نهاية عرض هذا الخبر .

(١) يعني يفترون الكذب .

(٢) كان هذا اسمه قبل الإسلام .

(٣) جاء في رواية الإمام البخاري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لهم : « أفرأيتم إن أسلم ؟ قالوا : حاشا لله ما كان ليسلم ، قال : يا ابن سلام اخرج عليهم .

اتقوا الله واقبلوا ما جاءكم به فو الله إنكم لتعلمون إنه لرسول الله تجدونه مكتوبا عندكم في التوراة باسمه وصفته ، فإني أشهد أنه رسول الله وأوصي به وأصدقه وأعرفه ، فقالوا : كذبت ثم وقعوا بي (١) .

قال : قلت لرسول الله ﷺ : ألم أخبرك يارسول الله أنهم قوم بهت أهل غدر وكذب وفجور ؟ » .

وهكذا تحقق ظنه فيهم وبقيت شهادة عليهم من أحد علمائهم الذي كانوا يعتبرونه من سادتهم .

« قال : فأظهرت إسلامي وإسلام أهل بيتي وأسلمتْ عمتي خالدة بنت الحارث فحسن إسلامها » (٢) .

ومما يدل على أن اليهود كانوا يعرفون رسول الله ﷺ بعينه ، وأنهم تحققوا من أنه هو النبي المنتظر ما جاء في شهادة صفية بنت حيي رضي الله عنها قالت : كنت أحَبَّ ولد أبي إليه وإلى عمي أبي ياسر لم ألقهما قط مع وَلَد لَهُمَا إلا أخذاني دونه ، قالت : فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة ،

---

(١) يعني سبوه وشتموه .

(٢) سيره ابن هشام ٢/ ١٥٠ ، وقد أخرج الإمام البيهقي رواية ابن إسحاق من طريق عبد الله بن الأجلح عن محمد بن إسحاق قال : حدثني عبد الله بن أبي بكر عن يحيى بن عبد الله عن رجل من آل عبد الله بن سلام قال : كان من حديث عبد الله بن سلام . وذكر مثله - دلائل النبوة ٢/ ٥٣٠ - .

وأخرجه الإمام البخاري باختصار في صحيحه ، كتاب التفسير ، رقم ٤٤٨٠(٨/ ١٦٥) ، وقد قدَّمتُ رواية ابن إسحاق بالذكر لكونها أكثر تفصيلاً للواقع التاريخي للخبر ، وذكرت ما في رواية البخاري من الزوائد المفيدة .

ونزل قباء في بني عمرو بن عوف ، غدا عليه أبي حيي بن أخطب وعمي أبو ياسر بن أخطب مغلسين [1] .

قالت : فلم يرجعا حتى كانا مع غروب الشمس ، قالت : فأتيا كالَّين ، كسلانين ساقطين ، يمشيان الهوينى قالت : فهششت لهما كما كنت أصنع ، فو الله ما التفت إليّ واحد منهما مع مابهما من الغم ، قالت : وسمعت عمي أبا ياسر وهو يقول لأبي حيي بن أخطب : أهو هو ؟ قال : نعم والله ، قال : أتعرفه وتُثْبتُه ؟ قال : نعم ، قال : فما في نفسك منه ؟ قال : عداوته والله مابقيت [2] .

فهذا شاهد يدل على معرفة اليهود اليقينية برسول الله ﷺ ، وعلى ما جُبلت عليه قلوبهم من التنكر للحق واتباع الهوى .

أما عبد الله بن سلام رضي الله عنه فقد كان من القلائل الذين برئوا من هذه الصفات السيئة ، وعمرت قلوبهم بالتجرد والطهارة من الحقد والحسد ، فقد سارع إلى اعتناق الإسلام مع أنه كان سيداً من سادات اليهود ، ولم يمنعه مركزه في قومه من أن يدخل في الإسلام ويكون جنديًا من جنوده .

*　　*　　*

---

(١) يعني في وقت الغلس وهو ظلمة آخر الليل .

(٢) سيرة ابن هشام ٢/ ١٥٣ .

٤ - مثل من دعوة رسول الله ﷺ

(خبر عبد الله بن أُبَيّ في عدم إجابة الدعوة)

أخرج الإمام أبو عبد الله البخاري من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما : « أن رسول الله ﷺ ركبَ على حمار على قطيفة فَدَكية ، وأردَف أسامة بن زيد وراءهُ ، يعود سعد بن عبادة في بني الحارث بن الخزرج قبل وقعة بدر ، قال : حتى مر بمجلس فيه عبد الله بن أبي ابن سلول ، وذلك قبل أن يُسلم عبد الله بن أبي ، فإذا في المجلس أخلاطٌ من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان واليهود والمسلمين ، وفي المجلس عبد الله بن رواحة ، فلما غَشيت المجلس عَجاجةُ الدابة خمَّرَ عبد الله بن أبي أنفَهُ بردائه ثم قال : لاتُغَبِّروا علينا ، فسَّلم رسول الله ﷺ عليهم ثم وقف فنزل ، فدعاهم إلى الله ، وقرأ عليهم القرآن ، فقال عبد الله بن أبي ابن سلول : أيُّها المرءُ ، إنه لا أحسن مما تقولُ إن كان حقا فلا تُؤذنا به في مجلسنا ، ارجع إلى رَحلك فمن جاءك فاقصُص عليه . فقال عبدُالله بن رواحة : بلى يارسول الله فاغشنا به في مجالسنا ، فإنا نحب ذلك . فاستبَّ المسلمون والمشركون واليهودُ حتى كادوا يتشاورون ، فلم يزل النبي ﷺ يُخفِّضُهم حتى سكنوا . ثم ركب النبي ﷺ دابته فسار حتى دخل على سعد بن عبادة ، فقال له النبي ﷺ : ياسعد ألم تسمع ماقال أبوحُباب - يريد عبد الله بن أبي - قال كذا وكذا . قال سعدُ بن عبادة : يارسول الله اعفُ عنه واصفح عنه ، فو الذي أنزل عليك الكتاب ، لقد جاء اللهُ بالحق الذي أنزلَ عليك ولقد اصطلحَ أهلُ هذه البحيرة على أن يُتَوِّجوهُ فيعصِّبونه بالعصابة ، فلما أبى الله ذلك بالحق الذي أعطاك الله شرقَ بذلك ، فذلك فعل به مارأيت . فعفا عنه رسولُ الله ﷺ . وكان النبي

ﷺ وأصحابه يعفونَ عن المشركين وأهل الكتاب كما أمرهم الله ، ويصطبرون على الأذى ، قال الله عز وجل ﴿ **ولتسمعُنَّ من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذًى كثيرا** ﴾ الآية - آل عمران / ١٨٦ - وقال الله ﴿ **ودَّ كثيرٌ من أهل الكتاب لو يردُّونكم من بعد إيمانكم كفارًا حسدًا من عند أنفُسهم** ﴾ إلى آخر الآية - البقرة / ١٠٩ - .

وكان النبي ﷺ يتأوَّل العفو ما أمرَهُ الله به ، حتى أذن الله فيهم ، فلما غزا رسولُ الله ﷺ بدرًا فقتل الله به صناديد كفار قريش قال ابن أبي ابنُ سلول ومن معه من المشركين وعبَدة الأوثان : هذا أمرٌ قد توَجَّه ، فبايعوا الرسول ﷺ على الإسلام ، فأسلموا »[(١)] .

هذه الواقعة جرت قبل أن يُظهر عبد الله بن أُبي الإسلام نفاقا ، كما هو ظاهر في الخبر .

وكان ابن أُبيّ قبل إظهاره الإسلام يمثل زعامة بقية الوثنيين في المدينة من الأوس والخزرج .

ولما رآه النبي ﷺ جالسًا مع أصحابه اغتنم هذه الفرصة ودعاه ومن معه إلى الإسلام ، ولكن ابن أُبي كان لئيما مستكبرًا فأساء الرد على رسول الله ﷺ .

وكان ﷺ حليما صبورا حكيما حينما لم يرد عليه ، وقد تولى الرد عليه عبد الله بن رواحة ومن معه من المسلمين رضي الله عنهم حيث أظهروا السرور والاعتزاز بدعوة الإسلام .

* * *

---

(١) صحيح البخاري ، رقم ٤٥٦٦ ، كتاب التفسير (٨/ ٢٣٠) .

موقف لأسعد بن زرارة
(أول جمعة أقيمت بالمدينة)

قال ابن إسحاق : وحدثني محمد بن أبي أمامة سهل بن حنيف عن أبيه أبي أمامة عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك قال : كنت قائد أبي ، كعب بن مالك ، حين ذهب بصره ، فكنتُ إذا خرجت به إلى الجمعة فسمع الأذان بها صلى على أبي أمامة (١) ، أسعد بن زرارة . قال : فمكث حينًا على ذلك : لايَسْمع الأذان للجُمعة إلا صَلّى عليه واستغفر له ، قال : فقلت في نفسي : والله إن هذا بي لَعَجْز ، ألا أسأله ماله إذا سَمع الأذان للجمعة صلى على أبي أمامة أسعد بن زرارة ؟ قال : فخرجت به في يوم جمعة كما كنت أخرج ، فلما سَمع الأذان للجمعة صَلّى عليه واستغفر له ، قال : فقلت له : ياأبت ، مالك إذا سمعتَ الأذان للجمعة صليتَ على أبي أمامة ؟ قال : فقال : أي بنُيّ ، كان أوَّلَ من جَمَّع بنا بالمدينة في هَزْم النبيت ، من حَرّة بني بَيَاضَة ، يقال له (٢) : نَقيع الخَضمات ، قال : قلت : وكم أنتم يومئذ ؟ قال : أربعون رجلا (٣) .

وهذا موقف يذكر لأسعد بن زرارة رضي الله عنه الذي كان من أبرز الدعاة إلى الإسلام في المدينة ، وكان من الستة الذين هم أول من أسلم في المدينة ونقلوا الإسلام إليها ، ومن الإثني عشر الذين بايعوا بيعة

(١) يعني دعا له وترحم عليه .

(٢) يعني في مكان يقال له .

(٣) سيرة ابن هشام ٢/ ٤٩ - ٥١ .

العقبة الأولى وفي بيته في المدينة نزل مصعب بن عمير رضي الله عنه الذي أوفده رسول الله ﷺ للدعوة في المدينة وإمامة أهلها ، وكان بعد ذلك من أبرز من حضروا بيعة العقبة الثانية ، وكان من النقباء الإثني عشر الذين اختارهم رسول الله ﷺ ليكونوا مسئولين عن قومهم .

وموقف آخر لكعب بن مالك رضي الله عنه حيث ظل يذكر فضل أهل الفضل حتى أواخر حياته ، ويكرر ذكر أبي أمامة أسعد بن زرارة كل جمعة ويستغفر له ، وهذا دليل على عمق تخلقه بخلق الوفاء الذي يعتبر من أبرز الأخلاق التي يقوم عليها بناء الأمم .

* * *

٦ - المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار

لما قدم النبي ﷺ المدينة آخى بين المهاجرين والأنصار ، فجعلَ كل واحد من المهاجرين أخًا لواحد من الأنصار .

وقد ذكر ابن إسحاق أسماء عدد من المهاجرين والأنصار الذين اخى بينهم رسول الله ﷺ (١) .

وأخرج ابن سعد من طريق شيخه الواقدي بأسانيده عن محمد بن إبراهيم التيمي ويحيى بن زيد بن ثابت وضمرة بن سعيد قالوا : لما قدم رسول الله ﷺ المدينة آخى بي المهاجرين بعضهم لبعض ، وآخى بين المهاجرين والأنصار ، آخى بينهم على الحق والمواساة ، ويتوارثون بعد الممات دون ذوي الأرحام وكانوا تسعين رجلاً ، خمسة وأربعون من المهاجرين ، وخمسة وأربعون من الأنصار ، ويقال : كانوا مائة ، خمسون من المهاجرين وخمسون كانوا من الأنصار (٢) ، وكان ذلك قبل وقعة بدر ، وأنزل الله تعالى ﴿ **وأُولُو الأرحام بعضهم أولَى ببعض في كتاب الله إن الله بكل شيء عليم** ﴾ [الأنفال/ ٧٥] . فنسخت هذه الآية ما كان قبلها وانقطعت المؤاخاة في الميراث ، ورجع كل إنسان إلى نسبه وورثه ذوو رحمه (٣) .

وأخرج الإمام أبو داود الطيالسي من حديث عكرمة عن ابن عباس

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ١٣٥ .

(٢) وهذا حسب ماروي من العدد ، ولايعني ذلك الحصر إذ أن المؤاخاة قد شملت كل المهاجرين مع اعدادهم من الأنصار .

(٣) طبقات ابن سعد ١/ ٢٣٨ .

قال : آخى رسول الله ﷺ بين أصحابه وورَّث بعضهم من بعض حتى نزلت ﴿ **وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض** ﴾ فتركوا ذلك وتوارثوا بالنسب [١] .

وأخرجه الإمام الطبراني من طريق أبي داود الطيالسي بإسناده وذكر مثله [٢] .

وقال الحافظ الهيثمي عن إسناد الطبراني : رجاله رجال الصحيح [٣] .

وقد بين حبر الأمة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما الأمور التي قامت عليها هذه الأخوَّة وذلك فيما أخرجه الإمام البخاري عنه في قول الله تعالى ﴿ **ولكلٍّ جعلنا موالي مما ترك الوالدان والأقربون والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم إن الله كان على كل شيء شهيدًا** ﴾[٤] أنه قال : ﴿ **ولكل جعلنا موالي** ﴾ قال : ورثة ﴿ **والذين عاقدت أيمانكم** ﴾ كان المهاجرون لما قدموا المدينة يرث المهاجر الأنصاري دون ذوي رحمه للأخوة التي آخى النبي صلى الله عليه وسلم بينهم فلما نزلت ﴿ **ولكل جعلنا موالي** ﴾ نَسَخت ، ثم قال : ﴿ **والذين عاقدت أيمانكم [فآتوهم**

---

(١) منحة المعبود في ترتيب مسند الطيالسي أبي داود ٢/ ١٩ رقم ١٩٥٢ .

(٢) معجم الطبراني ١١/ ٢٨٤ رقم ١١٧٤٨ .

(٣) مجمع الزوائد ٧/ ٢٨ .

(٤) النساء/ ٣٣ .

نصيبهم] ﴾ [١] من النصر والرفادة والنصيحة وقد ذهب الميراث ويوصَى له [٢] .

والرِّفادة هي الإعانة بالعطية [٣] .

ومن هذه الرواية يتبين لنا أن الأمور التي عقدت من أجلها هذه الأخوة هي التوارث والنصر والرفادة والنصيحة بين المتآخين ، وأن التوارث نُسخ مع استحباب الوصية للأخ بشيء من المال ، وبقيت الحقوق الأخرى .

ومن هذه المؤاخاة يتبين لنا مثل من الجهد الكبير الذي قام به رسول الله ﷺ في تثبيت دعائم ذلك المجتمع الإسلامي الناشيء في المدينة النبوية .

كما أن هذه المؤاخاة تشتمل على موقف مشكور من الأنصار رضي الله عنهم حيث رضوا بما يترتب عليها من التوارث مع أنهم هم أصحاب الأموال غالبًا .

ولقد رُويت أخبار رائعة لما جرى بين أفراد هؤلاء الإخوة من المواساة والإيثار والنصيحة والثقة .

---

(١) هذه الجملة من الآية ليست في رواية البخاري ، وهي في رواية الطبراني بنفس إسناد البخاري ولابد من إضافتها لأن قوله « من النصر » متعلق بـ (آتوهم) وليس بـ (عاقدت) ، انظر فتح الباري ٨/ ٢٤٩ .

(٢) صحيح البخاري ، التفسير ، رقم ٤٥٨٠ (٨/ ٢٤٧) .

(٣) فتح الباري ٨/ ٢٤٩ .

ومن أمثلة آثار هذه المؤاخاة في مجال التناصح ما أخرجه الإمام البخاري من حديث أبي جحيفة رضي الله عنه قال :

آخى النبي ﷺ بين سلمان وأبي الدرداء ، فزار سلمان أبا الدرداء ، فرأى أم الدرداء متبذِّلة فقال لها : ما شأنك ؟ قالت : أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا . فجاء أبو الدرداء فصنع له طعاما فقال له : كل ، قال فإني صائم قال : ما أنا بآكل حتى تأكل قال : فأكل فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم ، قال : نم ، فنام . ثم ذهب يقوم ، فقال نم . فلما كان آخر الليل قال سلمان قم الآن فصلَّيا . فقال له سلمان : إن لربك عليك حقا ، ولنفسك عليك حقا ، ولأهلك عليك حقا ، فأعط كل ذي حق حقه . فأتى النبي ﷺ فذكر ذلك له فقال له النبي ﷺ صدق سلمان » (١) .

ومن أمثلة آثارها في مجال الثقة ماذكره ابن إسحاق رحمه الله من خبر بلال بن رباح رضي الله عنه قال : فلما دوَّن عمر بن الخطاب الدواوين بالشام ، وكان بلال قد خرج إلى الشام فأقام بها مجاهدا ، فقال عمر لبلال : إلى مَنْ تجعل ديوانك يابلال ؟ قال : مع أبي رويحة (٢) لا أفارقه أبدا ، للأخوة التي كان رسول الله ﷺ عقد بينه وبيني ، فضُمَّ إليه ، وضُمَّ ديوان الحبشة إلى خثعم لمكان بلال منهم ، فهو في خثعم إلى هذا اليوم بالشام (٣) .

(١) صحيح البخاري ، الصوم رقم ١٩٦٨ (٤/٢٠٩) .

(٢) هو أبو رويحة عبد الله بن عبد الرحمن الخثعمي رضي الله عنه .

(٣) سيرة ابن هشام ٢/١٣٨ .

وهذا دليل على عمق آثار هذه المؤاخاة حيث ظل بلال على ذكر لها بعد تلك المدية الطويلة .

ومن ذلك ما أخرجه الإمام البخاري من حديث إبراهيم بن سعد عن أبيه عن جده قال : لما قدموا المدينة [يعني المهاجرين] آخى رسول الله ﷺ بين عبد الرحمن [يعني ابن عوف] وسعد بن الربيع ، فقال لعبد الرحمن : إني أكثر الأنصار مالاً فأقسمُ مالي نصفين ، ولي امرأتان فانظر أعجبهما إليك فسمِّها لي أطلقها فإذا انقضت عدتها فتزوجها ، قال : بارك الله لك في أهلك ومالك ، أين سوقكم ؟ فدلُّوه على سوق بني قينقاع فما انقلب إلا ومعه فضل من أقط وسمن [1] .

فهذا نموذج من المواساة والإيثار ، وهو مثل لحياة حافلة بالأمثلة العالية التي قدَّمها الأنصار رضي الله عنهم .

* * *

(١) صحيح البخاري / مناقب الأنصار رقم ٣٧٨٠ (٧ / ١١٢) .

٧ - مواقف من إيثار الأنصار

حينما هاجر المهاجرون إلى المدينة النبوية لم يكن معهم مال يكفيهم لضرورات المعيشة فقام الأنصار بإيوائهم وإعاشتهم خير قيام ، وضربوا أمثلة عالية في إيثار المهاجرين على أنفسهم .

ولقد ذكرهم الله تعالى بالصفات العالية في القرآن الكريم فقال سبحانه ﴿ **والذين تبوّؤوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويُؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يُوْقَ شُحَّ نفسه فأولئك هم المفلحون** ﴾ (١) .

أي والأنصار الذين اتخذوا المدينة مباءة لهم يعني مسكنا ثابتا ، والذين آمنوا بالإسلام وثبتوا عليه في المدينة قبل قدوم المهاجرين إليها ﴿ **يحبون من هاجر إليهم** ﴾ من إخوانهم أهل مكة وغيرهم من المسلمين .

ومن مظاهر حب الأنصار للمهاجرين أنهم قدموهم في الولاء والنصرة على حلفائهم من اليهود ، بل قدموهم على أقاربهم الذين لم يدخلوا في الإسلام .

ومن مظاهر هذا الحب أنهم تنازلوا لهم عن محبوبات الدنيا التي يتنافس الناس عليها عادة من الأموال والمساكن ونحو ذلك .

﴿ **ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا** ﴾ فإذا قدَّم النبي ﷺ المهاجرين بشيء من أمور الدنيا المعنوية كالولايات أو المادية كأموال الفيء

---

(١) الحشر / ٩ .

فإن الأنصار لايجدون في صدورهم أي شيء من التأثر والكراهية فضلاً عن الحسد ، وهذا دليل على كمال حبهم إياهم وطهارة قلوبهم نحوهم .

﴿ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ﴾ يعني ويقدِّمون إخوانهم المهاجرين على أنفسهم بمتاع الدنيا وإن كان هؤلاء الأنصار فقراء يحتاجون إلى ذلك المتاع .

إن الإيثار درجة أعلى من المواساة ، والأنصار قد واسوا إخوانهم المهاجرين بأنفسهم ، وزادوا على ذلك بأن آثروهم على أنفسهم بخير الدنيا ، وهذا شاهد على صدق محبتهم وقوة إيمانهم .

ولقد رُويت نماذج عالية من مواقف الأنصار في الكرم والمواساة والإيثار ، فمن ذلك ما أخرجه الإمام البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : « قالت الأنصار للنبي ﷺ : اقسم بيننا وبين إخواننا النخيل ، قال : لا ، فقالوا : تكفوننا المؤونة ونشرككم في الثمرة ، قالوا : سمعنا وأطعنا (1) .

فهذا الحديث يفيد أن الأنصار عرضوا على النبي ﷺ أن يتولى قسمة أموالهم بينهم وبين إخوانهم المهاجرين ، وقد كانت أموالهم هي النخيل ، فأبى عليهم النبي ﷺ ، وأراد أمرا تكون فيه المواساة من غير إجحاف بالأنصار بزوال ملكية أموالهم منهم ، فقال الأنصار للمهاجرين : تكفوننا المؤونة - أي العمل في النخيل من سقيها وإصلاحها - ونشرككم في الثمرة ، فلما قالوا ذلك رأى رسول الله ﷺ أن هذا الرأي يضمن سد

---

(1) صحيح البخاري / المزارعة رقم ٢٣٢٥ (٥/ ٨) .

حاجة المهاجرين مع الإرفاق بالأنصار فأقرهم على ذلك فقالوا جميعًا : سمعنا وأطعنا .

وسيأتي في ثناء المهاجرين على الأنصار أن الأنصار قد قاموا بالمؤونة وأشركوا المهاجرين في الثمرة ، ولعل المهاجرين كانوا يساعدونهم في العمل ولكن كان أكثر العمل عند الأنصار .

ومن ذلك ما أخرجه الإمام البخاري من حديث خارجة بن زيد في بيان خبر عثمان بن مظعون ، وفيه أن الأنصار اقترعوا على سكنى المهاجرين (١) .

وهذا يفيد أن الأنصار قد تنافسوا على إسكان المهاجرين في بيوتهم ، وأنهم قد رضوا بالقرعة فيما بينهم .

ولقد أراد النبي ﷺ أن يكافيء الأنصار على تلك المكارم العظيمة التي قدموها لإخوانهم المهاجرين ، وقد أخرج الإمام البخاري في ذلك من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال : « دعا النبي ﷺ الأنصار إلى أن يُقطع لهم البحرين ، قالوا : لا ، إلا أن تقطع لإخواننا من المهاجرين مثلها ، قال : إمَّا لاَ فاصبروا حتى تلقوني فإنه سيصيبكم بعدي أثرة » (٢) .

وهكذا ضرب الأنصار مثلا عاليًا في مواساة إخوانهم المهاجرين مع وجود ما يسوِّغ قبولهم ذلك الإقطاع الذي كان مكافأة لهم على ما سبق من تفضلهم وتكرمهم .

وكان شكر المهاجرين للأنصار عاليًا ، ولقد سجلوا ذلك بثنائهم

---

(١) صحيح البخاري / مناقب الأنصار ، رقم ٣٩٢٩ (٧ / ٢٦٤) .

(٢) صحيح البخاري / مناقب الأنصار ، رقم ٣٧٩٤ (٧/ ١١٧) .

عليهم عند النبي ﷺ ، وقد أخرج خبر ذلك الإمام أحمد من حديث أنس ابن مالك رضي الله عنه قال : قال المهاجرون : يارسول الله ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساة في قليل ولا أحسن بذلا في كثير ، ولقد كفونا المؤونة وأشركونا في المَهْنأ (١) ، حتى لقد حسبنا أن يذهبوا بالأجر كله ، قال : لا ، ما أثنيتم عليهم ودعوتم الله عز وجل لهم (٢) .

وفي إشارة المهاجرين إلى الأجر الأخروي بيان لعمق تصورهم للحياة الآخرة وهيمنة هذا التصور على تفكيرهم .

ولقد كان إيثار الأنصار على أنفسهم عظيما ، يبين ذلك ما أخرجه الإمام البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه « أن رجلاً أتى النبي ﷺ ، فبعث إلى نسائه ، فقلنَ : ما معنا إلا الماء ، فقال رسول الله ﷺ من يَضُمُّ - أو يضيف - هذا ؟ فقال رجل من الأنصار : أنا . فانطلق به إلى امرأته فقال : أكرمي ضيف رسول الله ﷺ . فقالت : ما عندنا إلا قوت صبياني . فقال : هَيِّئي طعامَك ، وأصبحي سراجك ، ونوِّمي صبيانك إذا أرادوا عشاءَ . فهيأت طعامها ، وأصبحت سراجها ، ونومت صبيانها ، ثم قامت كأنها تُصلح سراجها فأطفأته ، فجعلا يريانه أنهما يأكلان ، فباتا طاويين . فلما أصبح غدا إلى رسول الله ﷺ فقال : ضحك الله الليلة -أو عجب- من فعالكما . فأنزل الله ﴿ **ويُؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يُوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون** ﴾ (٣) .

---

(١) يعني كفونا العمل واشركونا في الثمرة .

(٢) مسند الإمام أحمد ٣/ ٢٠٠ - ٢٠١ ، واخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه من حديث أنس بمثله - ٩ / ٦٨ رقم ٦٥٦١ .

(٣) صحيح البخاري ، لفضائل الأنصار ، رقم ٣٧٩٨ (٧/ ١١٩) .

٨ - مثل من جهود النبي ﷺ وصحابته في جهاد المنافقين

قال محمد بن إسحاق رحمه الله تعالى - بعد أن ذكر أسماء عدد من المنافقين- :

وكان هؤلاء المنافقون يحضُرون المسجدَ فيستمعون أحاديث المُسلمين ويَسْخَرون منهم ويَستهزئون بدينهم ، فاجتمع يومًا في المسجد منهم ناسٌ ، فرآهم رسول الله ﷺ يتحدثون بينهم خافضي أصواتهم ، قد لصق بعضهم ببعض ، فأمر بهم رسول الله ﷺ فأخرجوا من المسجد إخراجًا عنيفًا .

فقام أبو أيوب ، خالد بن زيد بن كليب ، إلى عمرو بن قيس ، أحد بني غنم بن مالك بن النجار - وكان صاحب آلهتهم في الجاهلية - فأخذ برجله فسحبه ، حتى أخرجه من المسجد ، وهو يقول : أتخرجني يا أبا أيوب من مِرْبد بني ثعلبة ! ثم أقبل أبو أيوب أيضًا إلى رافع بن وديعة ، أحد بني النجّار ، فلبّبه بردائه ثم نَتَره نترًا شديدًا ، ولطم وجهه ، ثم أخرجه من المسجد وأبو أيوب يقول له : أفّ لك منافقًا خبيثًا ! أدْرَاجَك (١) يامنافق من مسجد رسول الله ﷺ .

وقام عُمَارة بن حَزم إلى زَيد بن عَمْرو ، وكان رجلاً طويل اللحية ، فأخذ بلحيته فقاده بها قَودًا عنيفًا حتى أخرجه من المسجد ، ثم جمع عُمارة يَدَيه جميعا فَلَدَمَهُ بهما في صدره لَدْمة خَرّ منها (٢) ، قال :

---

(١) قال ابن هشام : أي ارجع من الطريق التي جئت منها .

(٢) قال ابن هشام : اللدم الضرب ببطن الكف .

يقول : خدَشْتني ياعُمَارة ، فقال : أبعدك الله يامنافق ، فما أعدّ الله لك من العذاب أشدّ من ذلك ، فلا تقربنّ مسجدَ رسول الله ﷺ .

وقام أبو محمد - رجل من بني النجّار ، كان بدريًا ، وأبو محمد مَسْعود بن أوْس بن زيد بن أصْرم بن زيد بن ثَعلبة بن غَنْم بن مالك ابن النجار - إلى قيس بن عَمْرو بن سَهْل ، وكان قَيْس غلامًا شابًا ، وكان لايُعْلَم في المُنافقين شابّ غيره ، فجعل يدفع في قَفاه حتى أخرجه من المسجد .

وقام رجل من بَلْخُدْرة بن الخَزْرج ، رَهْط أبي سعيد الخدري ، يقال له : عبد الله بن الحارث - حين أمَر رسول الله ﷺ بإخراج المنافقين من المسجد - إلى رجل يُقال له : الحارث بن عمرو ، كان ذا جُمّة (١) ، فأخذ بجمته فسَحبه بها سحبًا عنيفًا ، على ما مرّ به من الأرض ، حتى أخرجه من المسجد . قال : يقول المنافق : لقد أغلظت يابن الحارث ، فقال له : إنك أهل لذلك ، أي عدوّ الله ، لما أنزل الله فيك ، فلا تقربن مسجد رسول الله ﷺ ، فإنك نجس .

وقام رجل من بني عمرو بن عوف إلى أخيه زُوَيّ بن الحارث ، فأخرجه من المسجد إخراجًا عنيفًا وأففّ منه ، وقال : غلب عليك الشيطانُ وأمْرُه .

فهؤلاء من حضر المسجدَ يومئذ من المنافقين ، وأمر رسول الله ﷺ بإخراجهم (٢) .

---

(١) الجمة ما سقط من شعر الرأس على المنكبين .

(٢) سيرة ابن هشام ٢/ ١٦٧ - ١٦٩ .

هذا الخبر يدل على انحطاط مستوى هؤلاء المنافقين في السلوك ، حيث كانوا يسخرون من المؤمنين ويهزؤون بهم .

وقد كان أمر النبي ﷺ بإخراجهم نوعا من جهادهم وتطهيراً للمسجد من عبثهم .

وإن ما قام به هؤلاء الصحابة من إخراج المنافقين من المسجد بعنف يعتبر شاهدا على قوة إيمانهم وإخلاصهم لدينهم حيث إن المنافقين المذكورين من قبائلهم ، فلم تأخذهم في الله لومة لائم .

* * *

٩ – موقف لرسول الله ﷺ في الحكم بما أنزل الله

(حكمه على اليهود بما في توراتهم)

أخرج مسلم بسنده عن البراء بن عازب رضي الله عنه أنه قال : مُرَّ على النبي ﷺ بيهودي محمَّما [١] مجلودا فدعاهم النبي ﷺ فقال : «هكذا تجدون حد الزاني في كتابكم ؟ قالوا نعم . فدعا رجلا من علمائهم [٢] فقال : « أنشدك بالله الذي أنزل التوارة على موسى أهكذا تجدون حد الزاني في كتابكم ؟ » قال لا ولولا أنك نشدتني بهذا لم أخبرك نجده الرجم ولكنه كثر في أشرافنا فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد ، قلنا تعالوا فلنجتمع على شيء نقيمه على الشريف والوضيع فجعلنا التحميم والجلد مكان الرجم فقال رسول الله ﷺ « اللهم إني أول من أحيا أمرك إذْ أماتوه » فأمر به فرجم .

فأنزل الله عز وجل ﴿ **يا أيها الرسول لا يَحزُنْكَ الذين يسارعون في الكفر** ﴾ إلى قوله ﴿ **إن أوتيتم هذا فخذوه** ﴾ يقول : ائتوا محمدا ﷺ فإن أمركم بالتحميم والجلد فخذوه وإن أفتاكم بالرجم فاحذروا فأنزل الله تعالى ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون** ﴾ [٥/ ٤٤] ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون** ﴾ [٥/ ٤٥] ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون** ﴾ [٥/ ٤٧] في الكفار كلها [٣] .

---

(١) أي مسود الوجه كما ذكر صاحب القاموس .

(٢) هو عبد الله بن صوريا الأعور كما في رواية الطبري – تفسير الطبري ٦/ ٢٣٢ – .

(٣) صحيح مسلم ، كتاب الحدود ، رقم ١٧٠٠ (ص ١٣٢٧) .

وهكذا عندما ضعف إيمان اليهود بدينهم رأوا أنه ليس بإمكانهم تطبيق حدود الله تعالى على جميع من يرتكبون الجرائم سواء كانوا أغنياء أو فقراء ، أقوياء أو ضعفاء ، فاصطلحوا فيما بينهم على حدود يمكن أن تقام على الأغنياء والأقوياء ، كما تقام على الفقراء والضعفاء ، وذلك كحد الزنى ، حيث أبدلوا الرجم بالجلد مع تسويد الوجه كما جاء في هذه الرواية .

وكان موقف رسول الله ﷺ منهم في هذا التلاعب بشريعة الله قويا حازما حيث قال : « اللهم إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه » وأمر بذلك الزاني فرجم .

وهكذا ضرب النبي ﷺ لأمته مثلاً عاليًا في تطبيق حدود الله تعالى على الكبير والصغير .

* * *

١٠ - مثل من مقدرة النبي ﷺ على إخماد الفتنة وموقف للأنصار بالسمع والطاعة

حينما انتشر الإسلام في المدينة وهاجر إليها رسول الله ﷺ ، والتفَّ حوله المؤمنون من الأنصار إلى جانب إخوانهم المهاجرين ، وتكوَّن منهم مجتمع إسلامي متماسك غاظ ذلك اليهود ، وعرفوا أنهم لا يستطيعون مقاومة المسلمين بالقوة ، فقد كانوا يعلمون عجزهم قبل ذلك عن التغلب على الأوس والخزرج لو فُرض أنهم اجتمعوا ، فكيف بهم وقد اجتمعوا وانضم إليهم المهاجرون ، فلجئوا إلى سلاحهم القديم الذي تفننوا فيه ونجحوا في تفريق القبائل والأمم بواسطته وهو سلاح الغزو الفكري .

وقد تفتق ذهن أحد شيوخهم الكبار في السن عن حيلة هدف بها إلى تفريق مجتمع الأنصار ، وذلك بإثارة العصبية القبلية بينهم ليعودوا إلى جاهليتهم ، فتعود الحروب بينهم كما كانت ، ويخسر النبي ﷺ بذلك أقوى أنصاره ، وفي بيان هذا الخبر يقول محمد بن إسحاق رحمه الله تعالى :

ومَرَّ شأس بن قَيْس وكان شيخًا قد عسا (١) ، عظيم الكُفْر شديد الضِّغن على المسلمين ، شديد الحَسد لهم ، على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ من الأوس والخزرج ، في مجلس قد جمعهم يتحدثون فيه ، فغاظه ما رأى من أُلفتهم وجماعتهم ، وصلاح ذات بينهم على الإسلام ،

---

(١) أي كبرت سنه .

بعد الذي كان بينهم في الجاهلية . فقال : قد اجتمع مَلأ بني قيلة [١] بهذه البلاد ، لا والله مالنا معهم إذا اجتمع مَلؤُهم بها من قرار ، فأمر فتى شابًا من يهود كان معهم ، فقال : اعْمدْ إليهم ، فاجلس معهم ثم اذكر يوم بُعاث وماكان قَبله ، وأنْشدهم بعض ماكانوا تَقاولوا فيه من الأشعار .

وكان يوم بعاث يوما اقتتلت فيه الأوس والخزرج ، وكان الظفر فيه يومئذ للأوس على الخزرج ، وكان على الأوس يومئذ حضير بن سماك الأشهلي ، أبو أُسَيد بن حضير ، وعلى الخزرج عمرو بن النُّعمان البَيَاضى ، فقُتلا جميعًا .

قال ابن إسحاق : ففعل ، فتكلم القومُ عند ذلك وتنازعوا وتفاخروا حتى تواثب رجلان من الحيّين علي الرُّكب : أوس بن قَيْظى ، أحد بني حارثة ابن الحارث ، من الأوس ، وجبّار بن صخر ، أحد بني سَلمَة من الخزرج ، فتقاولا ثم قال أحدهما لصاحبه : إن شئتم رَدَدْناها الآن جذَعة [٢] ، فغضب الفريقان جميعًا وقالوا قد فَعَلْنَا ، موعدكم الظاهرة - والظاهرة : الحرّة - السِّلاحَ السّلاحَ ، فخرجوا إليها .

فبلغ ذلك رسولَ الله ﷺ ، فخرج إليهم فيمن معه من أصحابه المهاجرين حتى جاءهم ، فقال : يامعشر المسلمين ، اللهَ اللهَ أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للإسلام ، وأكرمكم به ،

---

(١) هي أم الأوس والخزرج ، اللّذين ينتسب إليهما الأنصار ، والنسبة إلى الأم تعني شيئًا من التحقير عند العرب .

(٢) أي رددنا الحرب فتية قويه .

وقطع به عنكم أمر الجاهلية ، واستنقذكم به من الكفر ، وألّفَ به بين قلوبكم ؟ .

فعرف القومُ أنها نزغة من الشيطان ، وكيدٌ من عدوهم ، فبكوا وعانق الرجالُ من الأوس والخزرج بعضهم بعضًا ، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين ، قد أطفأ الله عنهم كيد عدوّ الله شأس ابن قيس .

فأنزل الله تعالى في شأس بن قيس وماصَنع : ﴿ **قل يا أهل الكتاب لِمَ تكفرون بآيات الله والله شهيدٌ على ما تعملون ، قل : يا أهل الكتاب لِمَ تَصُدُّون عن سبيل الله من آمن تَبغونها عِوجًا وأنتم شُهداء وما الله بغافل عما تعملون** ﴾ (١) .

وأنزل الله في أوس بن قيظى وجبار بن صخر ومن كان معهما من قومهما الذين صنعوا عمّا أدخل عليهم شأسُ من أمر الجاهلية : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إن تُطيعوا فريقًا من الذين أتوا الكتاب يَرُدُّوكم بعد إيمانكم كافرين . وكيف تكفرون وأنتم تُتلَى عليكَم آيات الله وفيكم رسوله ؟ ومن يعتصم بالله فقد هُدِيَ إلى صراط مستقيم . يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولاتموتنّ إلا وأنتم مسلمون** ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ **وأولئك لهم عذاب عظيم** ﴾ (٢) .

---

(١) آل عمران / ٩٨ - ٩٩ .

(٢) يعني قوله تعالى ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعًا ولاتفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون . ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون=

فهذا الخبر فيه موقفان :

الموقف الأول : في اهتمام النبي ﷺ بأمور المسلمين وإشفاقه عليهم ، وفزعه مما يصيبهم من الفتن والمصائب ، فقد أسرع في الحضور إلى هؤلاء الأنصار الذين ثارت بينهم العصبية القبلية ، وذكَّرهم بالله تعالى الذي هداهم من الضلالة ، وجمعهم بعد الفرقة .

والغالب على هؤلاء الصحابة أنهم - وقد تقابلوا في الميدان - قد غاب عن قلوبهم استحضار عظمة الله تعالى ورقابته عليهم ، لأن من عُمر قلبه بذكر الله جل وعلا فإن سلوكه يكون منبثقا من الخضوع له تعالى ، بفعل أوامره والتماس رضاه ، واجتناب نواهيه والبعد عن سخطه ، فكانت أول كلمة قالها رسول الله ﷺ « الله الله » أي تذكروا عظمة الله وجلاله ، وأخضعوا تصرفاتكم لما يحبه ويرضاه .

ثم ذكرهم بأن الأمر الذي أقدموا عليه هو من دعوى الجاهلية ، وأنكر عليهم أن يُقدموا على ذلك مع وجوده بينهم ، وهذا يعني أنه إذا فعلتم هذا المنكر مع وجودي بين ظهرانيكم فكيف الحال مع عدم وجودي بينكم ؟ ! .

ثم ذكَّرهم بالإسلام . . هذا الدين العظيم الذي هداهم الله تعالى إليه ، والذي هو أغلى قيمة يمكن تصورها في الحياة . . إن الناس بدونه أشبه شيء بالبهائم ، بل قد يكونون أضل منها ، فلذلك ذكر النبي ﷺ

=بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون . ولاتكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ماجاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم ﴾ ال عمران / ١٠٠ - ١٠٥ ، سيرة ابن هشام ٢ / ٢١١ - ٢١٤ .

امتنان الله جل وعلا عليهم بهذا الدين وإكرامهم به ، حيث رفعهم به إلى أعلى درجات الإنسانية .

ثم ذكَّرهم بما يتعلق بموضوعهم من فضائل الإسلام ، فقد قطع الله تعالى به عنهم أمر الجاهلية بما فيها من عداوة وحروب انتقامية ، وأنقذهم به من الكفر الذي يعتبر انحرافا عن الهدف الأعلى الذي خُلق الإنسان من أجله ، وانحطاطا إلى درجة إبليس وجنوده من الشياطين ، كما ذكَّرهم بنعمة التأليف بين قلوبهم بهذا الدين . . هذه المعجزة التي لم يستطيعوا الوصول إليها قبل ذلك . فكيف بعد هذا كله ينسون هذه النعم العظيمة ، ويهيمن على قلوبهم التعصب لأمور الجاهلية التي أنقذهم الله منها ؟ ! .

وبعد هذا التذكير العظيم الذي تركز في كلمات معدودات سرت في كيان أولئك الصحابة روح جديدة مسحت كل أثر لأمر الجاهلية ، وشعروا بأنهم قد ارتكسوا قبل ذلك في ظلمة حالكة وأشفوا على هلاك محقق ، فأنقذهم الله تعالى بكلمات نبيه ﷺ العالية المعبرة ، وروحه القوية المؤثرة ، وهيئته الوثابة المنذرة ، فنزعوا عما هم فيه حالاً ، وأدركوا أن ما وقعوا فيه كان من وساوس الشيطان وكيد عدوهم من اليهود ، فبكوا ندمًا على ما قارفوا من الإثم ، وعانق بعضهم بعضا ، تعبيراً عن زوال كل دَرَن طرأ على قلوبهم .

إن بكاء الرجال حدث جليل ، وخصوصًا إذا صدر من مثل هؤلاء الأبطال الذين يندفعون إلى الحرب بمثل هذه السرعة ، فإن الدمع عند هؤلاء وأمثالهم عزيز ، لأن نفوسهم قد تشكلت على حب البطش

والانتقام ، لولا ما كان من تهذيب الإسلام والتربية النبوية ، فإذا بكوا فإنما يكون بكاؤهم لأمر جسيم هيمن على مشاعرهم ، وحوّل ما كان في قلوبهم من القساوة وحب الانتقام إلى لين ولطف وأحاسيس جياشة نحو الود والصفاء .

ومن هنا ندرك عظمة الرسول ﷺ ومقدرته الخارقة في الإقناع ، وتغيير المشاعر ، وتحويل الاتجاهات الشريرة حالاً إلى اتجاهات نحو الخير والصلاح .

الموقف الثاني : موقف أولئك الصحب الكرام من الأنصار الذين سارعوا إلى الأوبة والتوبة ، واقتلعوا وساوس الشيطان من جذورها ، ووضعوا عصبية الجاهلية تحت أقدامهم ، فما أن رأوا رسول الله ﷺ وسمعوا كلامه حتى تحوّلوا إلى أناس من نوع آخر ، وهجمت على مشاعرهم بسرعة فائقة أحاسيس الرحمة والمودة ، فنكسوا أسلحتهم إجلالاً لرسول الله ﷺ ولشرف الكلام النوراني الذي سمعوه، وجرت بينهم مظاهر الأخوة الفائقة، والمحبة الصادقة، ورجعوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين .

إن تراجع هؤلاء الصحابة عن أفكارهم وقناعاتهم بهذه السرعة دليل على تجرد قلوبهم من اتباع الهوى ، وعمرانها بتوحيد الله تعالى والإخلاص له ، وإن ما طرأ عليهم إنما كان استجابة لغضب مهيمن سرعان ما انقشع بسماع الموعظة المؤثرة فتغير سلوكهم حالاً ، لأن قلوبهم كانت معمورة بالتجرد والصفاء رضي الله عنهم جميعًا .

* * *

١١ – مواقف لرسول الله ﷺ في بناء المجتمع الإسلامي
(صحيفة المعاهدة بين أهل المدينة)

قال ابن إسحاق : وكتب رسول الله ﷺ كتابًا بين المهاجرين والأنصار ، وادَعَ فيه يهود وعاهدهم ، وأقرهم على دينهم وأموالهم ، وشرط لهم واشترط عليهم :

بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من محمد النبيِّ ﷺ ، بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويَثرب ، ومن تبعهم ، فلحق بهم ، وجاهد معهم إنهم أمة واحدة من دون الناس .

المهاجرون من قريش على ربعتهم ، يتعاقلون بينهم [١] ، وهم يَفْدون عانَيهم [٢] بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

وبنو عَوْف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكلّ طائفة تَفْدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

ثم ذكر فروع قبيلتي الأوس والخزرج على نحو ماذكر في المهاجرين إلى أن قال : وإن المؤمنين لايتركون مُفْرحًا [٣] بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل .

وأن لايحالف مؤمنٌ مولى مؤمن دونه وإن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دَسيعة ظلم ، أو إثم ، أو عدوان ، أو فساد بين

(١) جاء في النهاية لابن الأثير « على رباعتهم » وقال : أي يكونون على ماكانوا عليه من أخذ الديات وإعطائها ، ويتعاقلون أي يدفعون العقل وهو الدية – النهاية ٣/ ٢٧٩ – وكذلك جاءت « على رباعتهم » في رواية الزهري – الأموال لابن زنجويه ١/ ٤٦٧ – .

(٢) أي أسيرهم .

(٣) قال ابن هشام : المُفرَح المثقل بالدين الكثير العيال .

المؤمنين [١] ، وإن أيديهم عليه جميعًا ، ولو كان وَلَدَ أحدهم .

ولا يَقْتل مؤمنٌ مؤمنًا في كافر ، ولا ينصر كافرًا على مؤمن وإن ذمة الله واحدة يُجير عليهم أدناهم ، وإن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس [٢] .

وإنه من تَبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا مُتَناصر عليهم .

وإن سلْم المؤمنين واحدة ، لايسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم [٣] .

وإن كلّ غازية غزت معنا يُعقب بعضُها بعضا ، وإن المؤمنين يُبيء بعضُهم عن بعض [٤] بما نال دماءهم في سبيل الله .

وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدي وأقْومه ، وإنه لايجير مشرك مالاً لقريش ولا نفسًا ، ولايحول دونه على مؤمن ، وإنه من اعتبط مؤمنًا قتلا عن بَيّنة فإنه قَودٌ به [٥] إلا أن يرضي وليّ المقتول ، وإن المؤمنين عليه كافة ، ولايحل لهم إلا قيامٌ عليه .

(١) الدَّسيعة هي العطية ، وتطلق على دفع المكروه أي منْ طلب عطية أو دفع مكروه على وجه الظلم والإثم والعدوان والفساد- النهاية ٢/ ١١٧ .

(٢) أي يتولى بعضهم بعضا بالمحبة والنصرة دون سائر الناس .

(٣) أي أنه لايجوز أن يتولى فرد أو أفراد من المسلمين قضايا السلم مع الأعداء ، بل إن هذا الأمر من شأن جماعة المسلمين وإمامهم .

(٤) يعني أن دماءهم متكافئة ، يقال باء الرجل بصاحبه إذ قتل به كفؤا - عيون الأثر ١/ ٩ .

(٥) أي من قتل مؤمنا بلا جناية كانت منه ولا جريرة توجب قتله فإن القاتل يقاد به فيقتل - النهاية ٣/ ١٧٢ .

وإنه لايحلّ لمؤمن أقرّ بما في هذه الصحيفة ، وآمن بالله واليوم الآخر ، أن ينصر مُحْدثا ولايُؤْويه ، وإنه مَن نصره أو آواه ، فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ، ولايؤخذ منه صَرف ولاعدل (١) ، وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء ، فإنّ مردّه إلى الله عزّ وجل ، وإلى محمد ﷺ .

وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين مادامو محاربين ، وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ، ومواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم ، فإنه لايوتغ إلا نفسه وأهل بيته (٢) .

ثم ذكر يهود بني النجار وبني الحارث وبني ساعدة وبني جشم وبني الأوس وبني ثعلبة وجفنة وبني الشطبية وأن لهم ما ليهود بني عوف ، إلى أن قال : وإن البر دون الإثم ، وإن موالي ثعْلبة كأنفسهم ، وإن بطانة يهود كأنفسهم ، وإنه لايخرج منهم أحد إلا بإذن محمد ﷺ ، وإنه لاينحجز على ثأر جُرْح (٣) وإنه من فَتك فبنفسه فتك ، وأهل بيته ، إلا من ظُلم وإن الله على أبرّ هذا .

وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم ، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصّحيفه ، وإن بينهم النصح والنصيحة والبرّ دون الإثم ، وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه ، وإن النصر للمظلوم .

(١) تقدم أن الصرف التوبة ، والعدل الفدية وقيل الصرف الفريضة والعدل النافلة ، والأول أقرب .

(٢) أي لايهلك إلا نفسه وأهل بيته .

(٣) الجرح الإصابة والهزيمة ، والمقصود النهي عن التمسك بثأر الجاهلية .

وإن اليهود ينفقون مع المومنين مادموا محارَبين وإن يثرب حرامٌ جوفها لأهل هذه الصحيفة ، وإن الجار كالنفس غير مُضارّ ولا آثم ، وإنه لاتجار حُرمة إلا بإذن أهلها .

وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يْخاف فساده فإنّ مَرَدَّه إلى الله عزّ وجلّ ، وإلى محمد رسول الله ﷺ ، وإن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبرّه .

وإنه لاتُجار قريش ولا من نصرها ، وإن بينهم النصر على مَنْ دَهَم يثرب ، وإذا دُعوا إلى صلح يصالحونه وَيلْبسونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه ، وإنهم إذا دَعَوْا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين ، إلا مَن حارب في الدين ، على كلّ أناس حصّتهم من جانبهم الذي قبلهم ، وإن يهود الأوس ، مواليهم وأنفسهم ، على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البَرِّ المحْض من أهل هذه الصحيفة (١) .

وإن البرّ دون الإثم ، لايكسب كاسبٌ إلا على نفسه وإن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبرّه ، إنه لايحول هذا الكتابُ دون ظالم أو آثم ، وإن الله جار لمن برّ واتقى ، ومحمد رسول الله ﷺ (٢) .

---

(١) قال ابن هشام : ويقال : مع البَرَّ المحسن من أهل هذه الصحيفة . وماذكره ابن هشام أوضح في المعنى ، وقد جاء كذلك في رواية الزهري - الأموال لابن زنجويه - ١/ ٤٧٠ - .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ١٣٠ - ١٣٤ .

وقد ذكر هذه الصحيفة ابن سيد الناس - عيون الأثر ١/ ١٩٧ . وابن كثير - البداية والنهاية ٣/ ٢٢٣ - ٢٢٤ .

وبعد : فهذا كتاب عظيم اشتمل على قضايا كثيرة بالغة الأهمية في النواحي الاجتماعية والسياسية والإدارية والجهادية وسأقف وقفات سريعة مع بعض فقرات هذه الصحيفة لالتماس بعض المواقف النافعة .

١ - قول الرسول ﷺ عن المسلمين من أهل المدينة « إنهم أمة واحدة من دون الناس » فالمسلمون أمة متميزة على جميع الناس في جميع نواحي الكمال البشري .

أمة موحِّدة يعبدون إلها واحدا جل جلاله . . بينما يتخبط الناس في متاهات من الشرك والحيرة والضلال .

أمة تمتاز بأهدافها العالية ، ومناهجها القويمة . . يتنافس أفرادها على أعمال الآخرة ، ويسخِّرون دنياهم لآخرتهم ، بينما يتنافس الناس على دنياهم .

٢ - « وإن المؤمنين لايتركون مُفْرَحًا بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل » فهم لايتركون المُثْقَل بالديون كثير العيال يصارع مشكلاته وحده ، ويوزع فكره بين همّ سداد الدين ، وهمّ الإنفاق على العيال ، بل يسارعون إلى مد أيديهم إليه لسداد دينه ، والرفع من مستواه المعيشي ، ويتنافسون على هذا المطلب النبيل .

= وقد اخرجها كل من أبي عبيد القاسم بن سلام وحميد بن زنجويه في كتابيهما - الأموال لأبي عبيد / ٩٤ رقم ٥١٧ ، الأموال لابن زنجويه ، تحقيق الدكتور شاكر فياض ٢/ ٤٦٦ رقم ٧٥٠ .
وقد ذكر هذه الصحيفة الدكتور أكرم ضياء العمري في كتابه « المجتمع المدني في عهد النبوة » ص ١٠٧ ، فأجاد في تحقيقها وأفاد وردَّ على من حكم عليها بأنها موضوعة .

٣ - « وإن المؤمنين المتقين على من بَغَى منهم أو ابتغى دسيعة ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين ، وإن أيديهم عليه جميعًا ولو كان ولد أحدهم » .

فالمؤمنون وصف عام يشمل من وُجد عندهم أصل الإيمان وإن لم يكن مؤثرًا على سلوكهم تأثيرًا قويًا ، بينما المتقون هم الذين بلغ عندهم الإيمان درجة التأثير القوي على سلوكم ، فَتَكَوَّن عندهم وازع ديني يدفعهم إلى امتثال الواجبات واجتناب المنهيات ، وهؤلاء هم الجديرون بأن يُلقَى عليهم هذا التوجيه النبوي الكريم .

فهؤلاء المتقون يد واحدة على من بغى منهم فجاوز حدود الاستقامة ، إما بفعل مباشر منه أو بطلب شيء لا يحل له من عطية مال أو حق معنوي يكون فيه ظالما معتديًا على غيره مفسدًا بذلك مجتمع المؤمنين ، فإن أيدي هؤلاء المؤمنين المتقين تتحول إلى يد واحدة تأخذ على يد الظالم ولو كان من ابنائهم حتى تردَعَه عن الظلم .

٤ - « ولايَقتُل مؤمن مؤمنا بكافر ، ولاينصر كافرا على مؤمن » .

وفي هذا بيان واضح لحرمة المسلم وقيمته الكبرى ، فهو إنسان كغيره من حيث التكوين ، ولكنه حينما يحل الإيمان في قلبه يتبدَّل إلى إنسان آخر .

إنه يحمل الجوهرة العظمى التي لامثيل لها في حياة الناس ، وهل أعظم من أنه قد انفتح له الطريق النوراني الذي بينه وبين الله تعالى ؟ ! .

فمهما كانت عظمة الكافر في عرف أهل الدنيا فإن دمه لا يكافيء أدنى فرد مسلم .

ولايجوز لمؤمن أن ينصر كافرا على مؤمن ، لأن ذلك يُخل بعقيدته التي من أصولها الولاء للمؤمنين والبراء من الكافرين .

٥ - « وإن ذمة الله واحدة ، يجير عليهم أدناهم ، وإن المؤمنين موالي بعض دون الناس » .

فأمر المؤمنين واضح لكبيرهم وصغيرهم ، لأنهم إنما ينفذون شريعة الله تعالى ، وهي معلومة لكل من يدخل في مجال الجهاد فيما يتعلق بأمور السلم والحرب ، ولاتتغير بتغير الأمير أو القائد ، وإنما تنقسم إلى أمور واضحة لكل أفراد المسلمين المشاركين في الجهاد ، وأمور فيها غموض ، فهي تحتاج إلى اجتهاد من علماء الدين ، فإذا كانت في الأمور الواضحة فإن الحديث عنها لايختلف سواء تحدث بها أكابر المسلمين أو أصاغرهم .

ومن هذا المنطلق استطاع ربعي بن عامر أن يحدِّد لقائد الفرس رستم مدة الهدنة يوم القادسية ، وأن ينذره بالحرب في موعد معين مع أن ربعي بن عامر ليس أمير الجيش ولا من قادته ، وإنما هو موفد إلى جيش الفرس ، حيث قال لرستم : إن مما سنّ لنا رسول الله ﷺ وعمل به أئمتنا أن لانُمكِّن الأعداء من آذاننا ولانؤجِّلهم عند اللقاء أكثر من ثلاث ، فنحن مترددون عنكم ثلاثا ، فانظر في أمرك وأمرهم . . إلى أن قال : أنا كفيل لك بذلك عن أصحابي وعلى جميع من ترى ، قال : - يعني رستم - : أسيّدهم أنت ؟ قال : لا ، ولكن المسلمين كالجسد بعضهم من بعض ، يجير أدناهم على أعلاهم (١) .

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٥٢٠ .

فقول ربعي « يجير أدناهم على أعلاهم » مأخوذ مما جاء في هذه الصحيفة .

وهذا لايعني أن يُقرِّر فرد أو أ فراد من المسلمي قضايا السلم أو الحرب مع الأعداء بمقتضى رأيه أو آراء أفراد آخرين ، والذي تم من ربعي ابن عامر كان تطبيقا لسنة رسول الله ﷺ ، وإذ لم يكن في الأمر نص شرعي فإن الأمر يكون بالشورى بين القائد وأهل الحل والعقد لأن ذلك يحتاج إلى نظر من أهل العلم والرأي ، وفي ذلك يقول الرسول ﷺ في هذه الصحيفة « وإن سلْم المؤمنين واحدة ، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم » .

٦ - « وأنه من اعتبط مؤمنا قتلا عن بينة فإنه قود به إلا أن يرضى ولي المقتول ، وإن المؤمنين عليه كافة ، ولايحل لهم إلا قيام عليه » .

وبهذا أقر النبي ﷺ قواعد الأمن للمجتمع المسلم ، فقد كان الناس في الجاهلية لايأمنون على أنفسهم ، حيث كان المبدأ السائد فيهم هو الأخذ بالثأر من أي فرد من أفراد القبيلة التي اعتدى أحد أفرادها ، فالإنسان لايأمن على نفسه وإن حفظ نفسه وأسرته من الاعتداء ، لأن أي فرد من أفراد القبيلة يَعتدي يكون جميع أفراد القبيلة معرضين للقتل .

ولقد أبطل الإسلام مبدأ الأخذ بالثأر ، وشرع القصاص من المعتدي دون أفراد قبيلته .

ويُبيِّن النبي ﷺ أن على المسلمين كافة أن يكونوا جميعا ضد المعتدي ، وأنه لايجوز لهم السكوت عنه حتى يُحكم عليه بحكم الشريعة ، وإن كان من أقرب الناس إليهم .

ولاشك أن تطبيق هذا الحكم ينتجُ عنه استتباب الأمن في المجتمع ، وهذا هو الذي تم في المجتمع الإسلامي منذ أن طبق المسلمون هذا الحكم .

١٢ — وفد النصارى وخبر المباهلة

قال ابن إسحاق : وقَدم على رسول الله ﷺ وفْدُ نصارى نجْرَان ، ستُّون راكبًا ، فيهم أربعة عشر رجلا من أشرافهم ، في الأربعة عشر منهم ثلاثةُ نفر إليهم يؤول أمْرُهم : العاقب ، أميرُ القوم وذو رَأيهم ، وصاحب مشُورتهم والذي لايصدُرون إلا عن رأيه واسمُه عبد المسيح ، والسيّد ثمالُهم [١] وصاحب رحلهم ومجتمعهم واسمه الأيهم ، وأبو حارثة بن علقمة أحد بني بكر بن وائل أُسقفهم [٢] وحبرهم وإمامهم وصاحب مدرَاسهم .

وكان أبو حارثة قد شرف فيهم ، ودرس كتبهم ، حتى حسن علمه في دينهم ، فكانت ملوك الروم من أهل النصرانية قد شرفوه ومولوه وأخدموه ، وبنوا له الكنائس ، وبسطوا عليه الكرامات ، لما يبلغهم عنه من علمه واجتهاده في دينهم .

فلما وجَّهوا إلى رسول الله ﷺ من نجران ، جلس أبو حارثة على بغلة له موجِّهًا إلى رسول الله ﷺ ، وإلى جَنْبه أخٌ له ، يقال ل : كُوز بن عَلقمة [٣] ، فعثرت بغلة أبي حارثة ، فقال كوز : تعس الأبْعد يريد رسول الله ﷺ ، فقال له أبو حارثة : بل أنت تعست فقال ولمَ يا أخي ؟ قال : والله إنه للنَّبي الذي كنّا ننتظرهُ ، فقال له كوز : ما يمنعك منه وأنت تعلم هذا ؟ قال : ما صنع بنا هؤلاء القوم ، شرَّفونا ومَوَّلونا وأكرمونا ،

(١) أي قوامهم وغياثهم .

(٢) أي زعيمهم الديني .

(٣) قال ابن هشام : ويقال : كُرْز .

وقد أَبَوْا إلاّ خلافه ، فلو فعلتُ نزعوا منّا كلَّ ماترى ، فأضمر عليها منه أخوه كوز بن عَلقمة ، حتى أسلم بعد ذلك ، فهو كان يُحدّث عنه هذا الحديث فيما بلغني .

وهكذا كان كثير من علماء النصارى واليهود يعتقدون في رسول الله ﷺ أنه النبي المنتظر الذي بشَّر به أنبياؤهم ، ولكن لم ينفعهم هذا الاعتقاد ولم يُعتبروا به مسلمين لأنهم لم يدخلوا في الإسلام .

قال ابن هشام : وبلغني أن رؤساء نجران كانوا يتوارثون كتبًا عندهم ، فكلما مات رئيسٌ منهم فأفضت الرياسة إلى غيره ، ختم على تلك الكتب خاتمًا مع الخواتم التي كانت قبله ولم يكسرها ، فخرج الرئيس الذي كان على عهد النبي ﷺ يمشي فعثر ، فقال له ابنه : تعس الأبعدُ ! يريد النبي ﷺ ، فقال له أبوه : لاتفعل ، فإنه نبي ، واسمه في الوضائع ، يعني في الكتب ، فلما مات لم تكن لابنه همَّة إلا أن شد فكسر الخواتم ، فوجد فيها ذكر النبي ﷺ ، فأسلم فحُسن إسلامُه وحج ، وهو الذي يقول :

إليـك تَعْدو قَلقًا وَضينُها (١) مُعْتَرِضًا في بطنها جَنينُها
مُخالفًا دينَ النصارى دينُها (٢)

ومن هذا الخبر وأمثاله يتبين لنا أن كثيرًا من علماء أهل الكتاب كانوا

(١) قال ابن هشام : الوضين الحزام .

(٢) وقد أخرج هذا الخبر الإمام البيهقي من طريق شيخه الحاكم بإسناده عن يونس بن بكير عن ابن إسحاق قال . حدثنا بريدة بن سفيان عن ابن البيلماني عن كرز بن علقمة - دلائل النبوة ٥/ ٣٨٢ - ٣٨٣ .

يعرفون الرسول ﷺ ويعلمون انطباق الصفات التي جاءت في كتبهم عليه ، كما جاء في قول الله تعالى ﴿ **أوَلمْ يكُنْ لهم آيةً أن يَعلَمه علماء بني إسرائيل** ﴾ الشعراء / ١٩٧ فمنهم من هداه الله تعالى كهذا الرجل وكعبد الله بن سلام ، ومنهم من اتبعوا أهواءهم وهم الأكثر .

ومن هذا نعلم خطورة اتباع الهوى حيث يقود صاحبه إلى الشقاء الدائم في حياة الخلود ويحرمه من النعيم الخالد في تلك الدار ، فما أشقى هؤلاء الذين اتبعوا أهواءهم وألغوا تحكيم عقولهم ! .

قال ابن إسحاق : وحدثني محمد بن جعفر بن الزبير قال : لما قدموا على رسول الله ﷺ المدينة فدخلوا عليه مسجده حين صلى العصر ، عليهم ثياب الحبرات ، جُبَب وأرْدية ، في جَمال رجال بني الحارث بين كعب . قال : يقول بعض من رآهم من أصحاب النبي ﷺ يومئذ : ما رأينا بعدهم وفداً مثلهم وقد حانت صلاتهم ، فقاموا في مسجد رسول الله ﷺ يصلون ، فقال رسول الله ﷺ : دعُوهم فصلّوا إلى المشرق .

ثم ذكر ابن إسحاق أسماء زعمائهم الأربعة عشر ، وذكر شيئًا من اعتقادهم ، ثم ذكر نزول سورة آل عمران فيهم من أولها ، إلى آية المباهلة وهي قوله تعالى : ﴿ **فمن حاجّك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا نَدْعُ ابناءنا وابناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهلْ فَنَجْعَلْ لَعنة الله على الكاذبين** ﴾ - آية ٦١ -(١) .

---

(١) قال ابن هشام : قال أبو عبيدة : نبتهل ندعو باللعنة .

إلى أن ذكر أخر هذه الآيات التي نزلت فيهم وهي قول الله تعالى **﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألاّ نعبد إلا الله ولانشرك به شيئا ولايتّخذَ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولّوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون﴾** آية ٦٤ .

قال : فدعاهم إلى النَّصَف وقطع عنهم الحجة .

فلما أتى رسول الله ﷺ الخبرُ من الله عنهم ، والفَصْلُ من القضاء بينه وبينهم ، وأمر بما أمر به من مُلاعنتهم إنْ ردّوا ذلك عليه ، دعاهم إلى ذلك ، فقالوا له : يا أبا القاسم ، دعنا ننظر في أمرنا ، ثم نأتيك بما نريد أن تفعل فيما دعوتنا إليه . فانصرفوا عنه ، ثم خَلَوا بالعاقب ، وكان ذا رأيهم ، فقالوا : ياعبد المسيح ، ماذا ترى ؟ فقال : والله يامعشر النصارى لقد عرَفتم إن محمداً لنبي مُرْسل ، ولقد جاءكم بالفصل من خَبَر صاحبكم ، ولقد علمتم ما لاعن قومٌ نبيًا قطُّ فبقى كبيرُهم ، ولانَبَت صغيرُهم ، وإنه للاستئصال منكم إن فعلتم ، فإن كنتم قد أبيتم إلا إلف دينكم ، والإقامة إلى بلادكم فوادعوا الرجل ثم انصرفوا إلى بلادكم ، فأتَوا رسول الله ﷺ ، فقالوا : يا أبا القاسم ، قد رأينا ألا نُلاَعنك ، وأن نَتْركك على دينك ، ونرجع على ديننا ، ولكن ابعث معنا رجلاً من أصحابك تَرْضاه لنا ، يحكم بيننا في أشياء اختلفنا فيها من أموالنا ، فإنكم عندنا رضًى .

قال محمدُ بن جعفر : فقال رسول الله ﷺ ائْتوني العشيّةَ أبعثْ معكم القويَّ الأمين ، قال : فكان عمرُ بن الخطاب يقول : ما أحببت

الإمارة قطُّ حبّي إياها يومئذ ، رجاءَ أن أكون صاحبها ، فرُحْتُ إلى الظُّهر مهجِّراً (١) ، فلما صلى بنا رسولُ الله ﷺ الظهر سلّم ، ثم نظر عن يمينه وعن يساره ، فجعلت أتطاول له ليراني ، فلم يزلْ يلتمس ببصره حتى رأى أبا عُبيدة بن الجرّاح ، فدعاه فقال : اخْرُج معهم فاقض بينهم بالحقّ فيما اختلفوا فيه . قال عمر : فذهب بها أبو عبيدة » (٢) .

وهذه منقبة عظمى لأبي عبيدة عامر بن الجراح رضي الله عنه حيث حاز على الوصفين اللازمين للقيام بأي عمل من الأعمال ، وهما القوة والأمانة كما قال الله تعالى حكاية عن ابنة شعيب ﴿ **يا أبت استأجره إنّ خير من استأجرتَ القويُّ الأمين** ﴾ - القصص ٢٦ - فالقوة تعني المقدرة على تحمل المسئولية وأدائها ويدخل في ذلك الخبرة الكافية في العمل ، والأمانة تعني الاستعداد الكامل لتنفيذ الحق ، والتجرد الكامل من اتباع الهوى .

* * *

---

(١) يعني مبكراً .

(٢) سيرة ابن هشام ٢/ ٢٣٧ - ٢٥٥ وأخرج هذا الخبر مختصرا الإمام البخاري في صحيحه ، كتاب المغازي ، رقم ٤٣٨٠ (٨/ ٩٣) .

١٣ - موقف لسعد بن معاذ في تحدي الكفار

أخرج الإمام أبو عبد الله البخاري من حديث عبد الله بن مسعود أن سعد بن معاذ حدثه أنه كان صديقا لأمية بن خلف، وكان أمية إذا مرَّ بالمدينة نزل على سعد، وكان سعد إذا مر بمكة نزل على أمية، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة انطلق سعد معتمرا فنزل على أمية بمكة فقال لأمية: انظر لي ساعة خلوة لعلي أن أطوف بالبيت، فخرج به قريبا من نصف النهار، فلقيهما أبو جهل فقال: يا أبا صفوان من هذا معك؟ فقال: هذا سعد، فقال له أبو جهل: ألا أراك تطوف بمكة آمنا وقد آويتم الصباة وزعمتم أنكم تنصرونهم وتعينونهم! أما والله لولا أنك مع أبي صفوان ما رجعت إلى أهلك سالما، فقال له سعد - ورفع صوته عليه: أما والله لئن منعتني هذا لأمنعنك ماهو أشد عليك: طريقك على المدينة، فقال له أمية: لاترفع صوتك ياسعد على أبي الحكم سيد أهل الوادي، فقال سعد: دعنا عنك يا أمية فو الله لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنهم قاتلوك، قال: بمكة؟ قال: لا أدري، ففزع لذلك أمية فزعًا شديدًا وفي رواية قال: فو الله مايكذب محمد إذا حدث.

فلما رجع أمية إلى أهله قال: يا أم صفوان ألم تَرَيْ ما قال لي سعد؟ قالت: وما قال لك؟ قال: زعم أن محمدًا أخبرهم أنهم قاتليَّ، فقلت له: بمكة؟ قال: لا أدري، فقال أمية: والله لا أخرج من مكة، فلما كان يوم بدر استنفر أبو جهل الناس قال: أدركوا عيركم، فكره أمية أن يخرج فأتاه أبو جهل فقال: يا أبا صفوان إنك متى يراك الناس قد

تخلفت وأنت سيد أهل الوادي تخلفوا معك ، فلم يزل به أبو جهل حتى قال : أما إذا غلبتني فو الله لأشترين أجود بعير بمكة يعني لينجو عليه إذا أراد - ثم قال أمية : يا أم صفوان جهزيني فقالت له : يا أبا صفوان وقد نسيت ما قال لك أخوك اليثربي ؟ قال : لا أريد أن أجوز معهم إلا قريبا ، فلما خرج أمية أخذ لاينزل منزلا إلا عقل بعيره فلم يزل بذلك حتى قتله الله عز وجل ببدر »(١) .

وهكذا رأينا سعد بن معاذ رضي الله عنه يظهر الاعتزاز بإسلامه ويتحدى الكفار فيطوف حول الكعبة نهارًا ، وإنها لمغامرة جريئة لأنه سيد الأنصار وأعظمهم نصرًا للإسلام وإيواء رسول الله ﷺ ، وإن في مجادلته أبا جهل مع ماعرف عنه من التصلب في عداء المسلمين دلالة ظاهرة على قوة إيمان سعد ورسوخ يقينه .

وفي تهديده بقطع الطريق على تجار قريش إن منعوه من الطواف دليل على أهمية استيلاء المسلمين على المواقع المهمة التي تتوقف مصالح الأعداء على أمنها وسلامتها .

وفي واقعنا المعاصر نجد أن أكثر الحروب تقوم على المصالح الاقتصادية ، فالدول التي تستولي على قدر أكبر من القوة المالية تكون هي الأقوى في الهيمنة على الأرض والسيطرة على الناس ، ولكن هذه الدول القوية لاتقوم عادة إلا على وجود أمم تتسم بالضعف والجهل بالمصالح المادية ، وطرقها المتشعبة ، فتغتنم ذلك الأمم المتفتحة نحو الدنيا .

---

(١) صحيح البخاري رقم ٣٩٥٠ و ٣٦٣٢ .

والأمة الإسلامية اليوم لو توفر لها الوعي الصحيح والإيمان القوي فإنها تستطيع أن تشل حركة الأمم القوية الطاغية المعتدية على حقوق الأمم الأخرى .

وبالتالي فإن تلك الأمم الطاغية تخضع وتتنازل عن كثير من مظاهر طغيانها .

بل إن الأمر في هذا الزمن أيسر بكثير مما كان عليه في الأزمنة السابقة ، لأن حياة الأمم القوية تقوم على تصدير المنتجات للأمم الأخرى ، فلو أن هذه الأمم المستوردة أوقفت استيراد السلع مع الأمم الطاغية لاستطاعت أن تقضي على كثير من مصانعها وأن تشل حياتها ، وهذا العمل ميسور ، باستطاعة أي أمة أن تطبقه ، خصوصاً مع وجود التنافس الشديد بين الدول المصدرة ، وليس كل هذه الدول تحمل العدوان للمسلمين ، فبإمكان المسلمين أن يتاجروا مع الدول المسالمة لهم .

وقول سعد « دعنا عنك يا أمية فو الله لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول إنهم قاتلوك » براعة منه في صرف اهتمام الرجلين عن قضية طوافه التي يدور حولها النزاع إلى موضوع يهمهما أكثر من ذلك ، فاشتغلا به وتركا موضوع الجدال الأول .

وهو قبل ذلك توفيق من الله تعالى ، حيث ألهم سعداً هذه الفكرة التي كان بها خلاصه من ذلك المأزق ، وإنما يترتب توفيق الله تعالى على تقوى العبد المبنية على الإيمان والإخلاص كما قال الله تعالى ﴿ **ومن يتق**

الله يجعل له مخرجًا ﴾ – الطلاق ٢ – وقوله ﴿ **ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا** ﴾ – الطلاق / ٤ ، وقـولـه ﴿ **يا أيهـا الذين آمنوا إن تتقـوا الله يجعل لكم فرقانا** ﴾ – الأنفال / ٢٩ – ، وقـوله ﴿ **واتقوا الله ويعلمكم الله** ﴾ البقرة / ٢٨٢ .

ولاشك أن الصحابة رضي الله عنهم قد حظوا من الإيمان والتقوى بحظ وافر .

* * *

١٤ - المغازي والسرايا قبل بدر الكبرى

تبين لنا أنه لما هاجر المسلمون من مكة إلى المدينة سلبهم المشركون أكثر أموالهم ، ومع كون المشركين قد ظلموا المسلمين بذلك فإنهم قد فقدوا الوعي السياسي لمصالحهم ، لأن قوافل تجارة قريش إلى الشام تمر بالمدينة وضواحيها ، والتجارة إلى الشام هي أكبر مصادر الثروة عندهم ، وقد فاتهم التفكير السليم والتقدير الصحيح لمصالحهم التجارية ، حينما أقدموا على ذلك العمل الشنيع ، من سلب المسلمين أموالهم .

فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة ، واستقرَّ به المقام ، ووطَّد الأمور داخل المدينة بتقوية المجتمع الإسلامي ، وعقد المعاهدات بينه وبين يهود المدينة فكَّر في إنصاف المسلمين من أعدائهم من أهل مكة ، فصار يبعث السرايا لرَصْد قوافل قريش التجارية ومصادرتها .

ولو لم يكن من أهداف الإغارة على قوافل قريش التجارية إلا هذا المقصد لكان كافيا في تسويغها شرعا وعقلا ، لأنها من باب إنصاف المظلومين الذين لايمكن استرداد حقوقهم إلا من هذا الطريق ، فكيف ولهذا المسلك الحربي أهداف عالية ، من أبرزها محاولة إضعاف أكبر عدو للإسلام قد بدأ معركة الصراع مع المسلمين ، وقد كان العامل القوي في استكبار زعماء قريش وتطاولهم على المسلمين ما يتمتعون به من مال كثير قد تنامَى مع الزمن ، بسبب حياة الأمن التي يعيشونها في ظلال قدسية الحرم ، وما وُفِّقوا إليه من الرحلات التجارية الضخمة التي يشترك

فيها عادة كثير من أهل مكة . ولقد كانت خطورة هذا المال الضخم تتمثل في مقدرة أهل مكة على تمويل المعارك الكبرى مع أعدائهم ، فكان من الحكمة لمن دخل معهم في عداء حربي أن يقص من أجنحتهم التي تمكِّنهم من التحليق في أجواء العدوان والظلم .

ومن السذاجة والتخلف في الوعي السياسي أن يفوِّت هذه الفرصة مخاصمهم وهو يقدر عليها .

– سريَّة عبيدة بن الحارث إلى رابغ –

كان أول بعث بعثه رسول الله ﷺ سرية عبيدة بن الحارث إلى رابغ ، وسرية حمزة بن عبد المطلب إلى سيف البحر ، وكان تاريخهما متقاربا ، ونظرًا لتقارب وقتهما حصل الخلاف بين المؤرخين الأوائل في تحديد أول سرية بعثها رسول الله ﷺ ، هل هي سرية عبيدة كما سار على ذلك ابن إسحاق ، أو سرية حمزة كما سار على ذلك الواقدي .

وفي سرية عبيدة بن الحارث يقول محمد بن إسحاق رحمه الله تعالى :

وبعث رسول الله ﷺ ، في مُقامه ذلك بالمدينة (١) عُبيدة ابن الحارث بن المطلب بن عبد مناف بن قُصَيّ في ستين أو ثمانين راكبًا من المهاجرين ، ليس فيهم من الأنصار أحدٌ ، فسار حتى بلغ ماء بالحجاز بأسفل ثنيّة المُرَّة ، فلقى بها جَمْعا عظيما من قُريش ، فلم يكن بينهم قتال ، إلاّ أن سعد ابن أبي وقاص قد رَمى يومئذ بسَهم فكان أوَّلَ سهم رُمى به في الإسلام .

ثم انصرف القومُ عن القوم ، وللمسلمين حامية (٢) . وفرّ من المُشركين إلى المسلمين المِقْدادُ بن عمرو البهرْاني ، حليفُ بني زُهْرة ، وعُتْبة بن غَزْوانَ بن جابر المازني ، حليف بني نَوْفل بن عبد مناف ، وكانا

---

(١) الإشارة تعود إلى ما سبق أن ذكره ابن إسحاق من إقامة النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة في السنة الأولى من الهجرة إلى بداية السنة الثانية .

(٢) جاء في رواية الواقدي « ثم انصرف هؤلاء على حاميتهم وهؤلاء على حاميتهم » .

مُسلمين ، ولكنّهما خَرَجا ليتوصّلا بالكفار . وكان على القوم عكرمةُ بن أبي جَهْل .

قال ابن هشام : حدثني ابن أبي عمرو بن العَلاء عن أبي عمرو المدني : أنه كان عليهم مكْرَز بن حَفْص بن الأخْيف ، أخي بني مَعيص ابن عامر بن لُؤيّ بن غالب بن فهْر (١) .

وهكذا حاز سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه شرف السبق في الجهاد في سبيل الله تعالى ، بكونه أول من رمى بسهم في الإسلام .

وإن أهم ما حصل عليه المسلمون في هذه السرية نجاة المقداد بن عمرو وعتبة بن غزوان رضي الله عنهما ، حيث فرَّا من معسكر المشركين إلى معسكر المسلمين .

* * *

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٢٦٤ ، وانظر مغازي الواقدي ١/ ١٠ ، طبقات ابن سعد ٢/ ٧ ، تاريخ الإسلام للذهبي (المغازي ٤٦) ، البداية والنهاية ٣/ ٢٣٣ .

وقد ذكر الواقدي أن هذه السرية كانت في شهر شوال من السنة الأولى للهجرة .

- سرية حمزة بن عبد المطلب إلى سيف البحر -

قال محمد بن إسحاق رحمه الله تعالى :

وبعث في مقامه ذلك ، حمزةَ بن عبد المطلب بن هاشم ، إلى سيف البحْر ، من ناحية العيص ، في ثلاثين راكبًا من المهاجرين ، ليس فيهم من الأنصار أحد ، فلقي أبا جهل بن هشام بذلك الساحل في ثلاثمائة راكب من أهل مكة . فحجز بينهم مَجْديُّ بن عمرو الجهنيّ ، وكان مُوادعًا للفريقين جميعًا ، فانصرف بعضُ القوم عن بعض ، لم يكن بينهم قتالٌ .

وبعض الناس يقول : كانت رايةُ حمزة أول راية عقدها رسول الله ﷺ لأحد من المسلمين . وذلك أنَّ بعْثه وبعْث عُبيدة كانا معًا ، فشُبِّه ذلك على الناس (١) .

ولقد كانت مغامرة جريئة ، وتضحية كبيرة أن يعزم ثلاثون من المؤمنين على قتال عشرة أضعافهم من المشركين ، وهذا دليل على رسوخ إيمان هؤلاء الصحابة وقوة تعلقهم بالحياة الآخرة وضعف ارتباطهم بالحياة الدنيا ، وهذا يمنحهم درجة عالية من الإقدام والشجاعة .

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٣٦٩ ، وانظر مغازي الواقدي ١/ ٩ ، طبقات ابن سعد ٢/ ٦ ، تاريخ الإسلام للذهبي (المغازي/ ٤٥) ، البداية والنهاية ٣/ ٢٣٢ . وقد ذكر الواقدي أن هذه السرية كانت في شهر رمضان من السنة الأولى للهجرة .

- سرية عبد الله بن جحش إلى وادي نخلة -

لم يكتف النبي ﷺ ببعث السرايا لمحاصرة قريش من طريق تجارتهم نحو الشام ، بل إنه أرسل رهطا من المسلمين لاعتراض تجارة قريش فيما بين مكة والطائف ، وهذا طريق لم يكن في حساب مشركي مكة أن يقف لهم به المسلمون .

وفي ذلك يقول ابن إسحاق رحمه الله تعالى :

وبعث رسول الله ﷺ عبد الله بن جحش بن رئاب الأسدي في رجب مَقْفَلَه من بدر الأولى (١) وبعث معه ثمانية رهط من المهاجرين ليس فيهم من الأنصار أحد ، وكتب له كتاباً ، وأمَره أن لاينظر فيه حتى يسير يومين ثم ينظر فيه ، فَيَمضي لما أمره به ، ولايستكْره من أصحابه أحدًا .

ثم ذكر أسماء أصحاب السرية ، إلى أن قال :

فلما سار عبد الله بن جحش يومين فتح الكتاب ، فنظر فيه ، فإذا فيه : إذا نظرت في كتابي هذا فامْض حتى تنزل نَخْلة ، بين مكة والطائف ، فترصَّدْ بها قريشا وتعلَّم لنا من أخبارهم ، فلما نظر عبد الله ابن جحش في الكتاب قال : سمعا وطاعة ، ثم قال لأصحابه : قد أمرني رسولُ الله ﷺ أن أمضي إلى نَخْلة ، أرصد بها قريش ، حتى آتيه منهم بخبر ، وقد نهاني أن أستكره أحدًا منكم ، فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها فلينطلق ، ومن كره ذلك فليرجع فأما أنا فماض لأمر رسول الله ﷺ . فمضى ومضى معه أصحابه ، ولم يتخلف عنه منهم أحد .

---

(١) يعني من السنة الثانية للهجرة .

وسلك على الحجاز ، حتى إذا كان بمعدن فوق الفرع يقال له : بحران ، أضلّ سعدُ بن أبي وقاص وعُتْبة بن غَزْوان بعيراً لهما ، كانا يعْتقبانه ، فتخلفا عليه في طلبه ، ومضى عبد الله بن جحش وبقيةُ أصحابه حتى نزل بنخلة ، فمرت به عير لقريش تحمل زَبيبا وأدَما (١) ، وتجارة من تجارة قريش ، فيها عمرو بن الحَضْرمي .

قال ابن إسحاق ، وعثمان بن عبد الله بن المُغيرة ، وأخوه نوْفل بن عبد الله المَخزُوميّان ، والحكم بن كَيْسَان ، مولى هشام بن المغيرة .

فلما رآهم القوم هابُوهم وقد نزلوا قريبا منهم ، فأشرف لهم عُكاشة ابن محْصَن ، وكان قد حلق رأسه ، فلما رأوه أمنوا ، وقالوا : عُمَّار ، لابأس عليكم منهم .

وتشاور القوم فيهم وذلك في آخر يوم من رجب فقال القوم : والله لئن تركتم القوم هذه الليلة ليدخُلنّ الحرم ، فيمتَنعُنّ منكم به ، ولئن قَتلتموهم لتقتلنّهم في الشهر الحرام ، فتردّد القوم ، وهابوا الإقدام عليهم ، ثم شجّعوا أنفسهم عليهم ، وأجمعوا على قتل من قَدَروا عليه منهم ، وأخْذ ما معهم ، فرمى واقدُ بن عبد الله التَّميمي عمرو بن الحَضْرمي بسهم فقتله ، واستأسر عثمانُ بن عبد الله ، والحكم بن كَيْسان ، وأفلت القوم نوفل بن عبد الله فأعْجزهم ، وأقبل عبد الله بن جحش وأصحابه بالعير وبالأسيرين حتى قَدموا على رسول الله ﷺ المدينة . . إلى أن قال :

(١) يعني الجلود .

فلما قدموا على رسول الله ﷺ المدينة ، قال : ما أمرتُكم بقتال في الشهر الحرام ، فوقّف العير والأسيرين ، وأبى أن يأخذ من ذلك شيئًا ، فلما قال ذلك رسول الله ﷺ سُقط في أيدي القوم ، وظنّوا أنهم قد هَلكوا ، وعنّفهم إخوانُهم من المسلمين فيما صنعوا ، وقالت قريش : قد استحلّ محمد وأصحابُه الشهر الحرام ، وسفكوا فيه الدم ، وأخذوا فيه الأموال ، وأسرُوا فيه الرجال ، فقال من يردّ عليهم من المسلمين ، ممّن كان بمكة إنما أصابوا ما أصابوا في شعبان .

وقالت يهود - تفاءلُ بذلك على رسول الله ﷺ - عمرو بن الحضرمي قتله واقدُ بن عبد الله ، عمرو : عمرت الحرب ، والحضرمي : حضرت الحرب ، وواقد بن عبد الله : وقدت الحرب . فجعل الله ذلك عليهم لا لهم .

فلما أكثر الناس في ذلك أنزل الله على رسوله ﷺ : ﴿ **يسئلونكَ عن الشهر الحرام قِتالٍ فيه ، قُل : قِتالٌ فيه كبيرٌ ، وصَدٌّ عن سبيل الله وكُفرٌ به والمسجدِ الحرام وإخراجُ أهله منهُ أكبرُ عند الله** ﴾ - سورة البقرة ٢١٧ - ، أي إن كنتم قَتلتم في الشهر الحرام فقد صدوكم عن سبيل الله مع الكفر به ، وعن المسجد الحرام ، وإخْراجكم منه وأنتم أهله أكبر عند اللّه من قتل من قتلتم منهم ﴿ **والفتْنَةُ أكبر من القَتْل** ﴾ أي قد كانوا يفتنون المُسلم عن دينه حتى يردّوهُ إلى الكفر بعد إيمانه ، فذلك أكبر عند الله من القتل ﴿ **ولا يَزَالُونَ يُقَاتِلونكُمْ حَتَّى يَردُّوكم عن دينكُمْ إن استَطَاعوا** ﴾ أي ثم هم مقيمون على أخْبث ذلك وأعظمه ، غير تَائبين ولانازعين .

فلما نزل القرآن بهذا من الأمر ، وفرّج الله تعالى عن المسلمين ماكانوا فيه من الشفَق ، قَبَضَ رسولُ الله ﷺ العيرَ والأسيرَيْن ، وبعثت إليه قريشُ في فداء عثمان بن عبد الله والحكم بن كَيْسان ، فقال رسول الله ﷺ : لانُفْديكموهما حتى يقدَم صاحبانا - يعني سعدَ بن أبي وقاص ، وعُتبة بن غَزْوان - فإنا نخشاكم عليهما ، فإن تقتلوهما نقتل صاحبيكم فقدم سعدُ وعُتبة ، فأفْداهما رسول الله ﷺ منهم (١) .

فأما الحكم بن كَيْسان فأسلم فحُسن إسلامه ، وأقام عند رسول الله ﷺ حتى قُتل يوم بئر مَعُونة شهيداً . وأما عثمان بن عبد الله فَلحق بمكة ، فمات بها كافراً .

فلما تَجلّى عن عبد الله بن جحْش وأصحابه ما كانوا فيه حين نزل القرآن ، طَمعوا في الأجر ، فقالوا : يارسول الله ، أنطمع أن تكون لنا غزوة نُعْطَى فيها أجر المجاهدين ؟ فأنزل الله عزّ وجل فيهم : ﴿ **إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله ، أولئك يرجون رحمة الله ، والله غفور رحيم** ﴾ سورة البقرة / ٢١٨ فوضعهم الله عز وجل من ذلك على أعظم الرجاء .

---

(١) وكون سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان تأخر وصولهما بعد وصول السرية دليل على أنهما قد اجتهدا في اللحاق بالسرية بعد العثور على بعيرهما فلم يتمكنا من ذلك ، وهذا هو المظنون بهما رضي الله عنهما .

والحـديث في هذا عن الزهري ويزيد بن رُومـان ، عن عُـروة بن الزبير [1] .

قال ابن هشام : وهي أوّل غنيـمة غنمها المسلمون . وعمرو بن الحضْرمي أوّل من قتله المسلمون ، وعثمانُ بن عبد الله والحكم بن كَيْسان أوّل من أسر المسلمون [2] .

---

(١) وقال الحافظ ابن كثير : وهكذا ذكر موسى بن عقبة في مغازيه عن الزهري وكذا روى شعيب عن الزهري نحواً من هذا - البداية والنهاية ٣/ ٢٤٩ - ، وذكره الهيثمي وقال : رواه الطبراني ورجاله ثقات - مجمع الزوائد ٦/ ١٩٨ - .

(٢) سيرة ابن هشام ٢/ ٢٧٦ - ٢٨٢ .

مواقف وعبر من هذه السرية :

١ - جاء في هذا الخبر أن النبي ﷺ كتب لأمير السرية كتابا وأمره أن لاينظر فيه حتى يسير يومين ، وهذا مثل لتطبيق مبدإ مهم من مباديء الحرب ، وهو إخفاء الخطط الحربية ، ومنها خط السير ، حتي يكون الجيش في أمان من كيد الأعداء ، فالمدينة كانت آنذاك تضم اليهود والوثنين ومن المتوقع أن يسارع هؤلاء إلى إخبار أهل مكة بخط سير تلك السرية الموجهة ضدهم ، فلما سار أفراد السرية وهم بأنفسهم لايعلمون اتجاههم أصبح النبي ﷺ آمنا من انكشاف الهدف المقصود .

٢ - موقف أولئك الصحابة الذين سمعوا وأطاعوا جميعا وساروا إلى منطقة أعدائهم ، وتجاوزوها حتى كانوا من ورائهم ، وهذا شاهد على قوة إيمان الصحابة رضي الله عنهم ، واستهانتهم بأنفسهم في سبيل الله تعالى .

٣- في هذا الخبر عبرة للمسلمين بما قام به المشركون من تشويه إعلامي خطير لسمعة المسلمين ، حيث شهروا بهم فيما جرى من أصحاب تلك السرية من القتل وأخذ الأموال والسبي في الشهر الحرام .

وقد كان ذلك في آخر يوم من شهر رجب ، وقد جاء في رواية ابن إسحاق المذكورة أن المسلمين في مكة دافعوا عن إخوانهم أصحاب السرية بأن ذلك اليوم كان من شعبان ، فهذا يفيد بأن أولئك الصحابة لم يتأكد لهم أن ذلك اليوم من رجب .

والكفار عادة يغتنمون كل فرصة لتشويه سمعة المسلمين ، فحينما

ظفر كفار مكة بهذه المخالفة التي تعني انتهاكًا لأمر يقدسه العرب اغتنموا ذلك للتشهير بالمسلمين ، وقد طمعوا من خلال هذا الاتهام في أن يضعفوا من مكانة المسلمين ، وأن ينفروا الناس من قبول دعوة الإسلام .

ولقد حصل التساؤل من المسلمين فيما صنع أصحاب تلك السرية ، ولاموا إخوانهم على ماحدث .

ونزل القرآن في بيان هذا الأمر ، وفي الرد على مقالة المشركين وذلك في قول الله تعالى ﴿ **يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه** ﴾ الآيتين .

ولقد قام ابن إسحاق بتفسير هاتين الآيتين عى ضوء أحداث هذه السرية بما يكفي ويغني كما جاء في هذا الخبر .

٤ - وفي هذا الخبر عبرة مما جرى من اليهود من شماتة حاقدة ، حيث تفاءلوا من اسم القاتل من المسلمين والمقتول من المشركين بأن الحرب ستشتعل على المسلمين ، فجعل الله سبحانه الحرب عليهم لا على المسلمين .

وهذا الكلام من اليهود تعبير عن حقد دفين في نفوسهم على الإسلام والمسلمين .

– غزوات النبي ﷺ قبل بدر الكبرى –

ذكرنا سابقا أن النبي ﷺ بعد أن اطمأن به المقام في المدينة جهز عدداً من السرايا لاعتراض تجارة قريش ، ولغير ذلك من الأهداف الحربية .

ولم يكتف بذلك بل خرج بنفسه ﷺ في عدة غزوات قبل غزوة بدر الكبرى وهي على ماذكر المؤرخون : غزوة الأبواء وهي غزوة ودَّان ، وغزوة بواط ، وغزوة العُشَيرة .

ولقد كان من أهداف هذه الغزوات اعتراض قوافل قريش التجارية ، وتقرير العلاقات الحربية مع بعض القبائل القريبة من المدينة ومنها قبيلة جهينة وبني ضمرة .

وقد تمت الموادعة بين رسول الله ﷺ وقبيلة بني ضَمُرة في غزوة الأبواء ، وكُتب بينهم كتاب : على أن لا يكثّروا على رسول الله ﷺ ولايعينوا عليه أحدا (١) .

وهكذا نجد أن النبي ﷺ خرج للغزو أربع مرات قبل غزوة بدر الكبرى ، وذلك ما بين شهر صفر من السنة الثانية للهجرة وشهر جمادى الثانية من السنة نفسها .

وكون النبي ﷺ خرج بنفسه ، وعانَى من مشقة السفر وتلقّي كيد الأعداء واحتمال مواجهتهم أربع مرات خلال خمسة أشهر مثل أعلى في التضحية بالنفس وبذل الجهد في سبيل إعزاز هذا الدين وحمايته ،

---

(١) ينظر في هذه الغزوات صحيح مسلم رقم ٣٠٠٩ ، كتاب الزهد ، سيرة ابن هشام ٢/ ٢٦٢-٢٧٦ ، مغازي الواقدي ١/ ١١-١٢ ، طبقات ابن سعد ٢/ ٨-٩ .

وبذلك أصبح ﷺ قدوة عليا لأمته في ركوب الصعاب وتحمل المشاق ، والتهوين من راحة النفس في سبيل خدمة المُثُل العليا .

ولقد كان أصحابه على أتم استعداد للقيام بهذه المهمات نيابة عنه ، بل كل واحد منهم يفديه بنفسه ، ولكنه الرسول المربِّي ، الذي يريد أن ينشيء جيلا يكون قدوة للعالمين إلى قيام الساعة ، فكلَّف نفسه ﷺ بهذه الأمور الشاقة لتهون بعد ذلك على كل فرد من أفراد صحابته ، حيث إنه من التقصير في حبه ﷺ والاقتداء به أن يرغب مؤمن لنفسه من الراحة والرفاهية بما يترفع عنه رسول الله ﷺ .

مواقف وعبر
في
غزوة بدر الكبرى

١ - أمر النبي ﷺ أصحابه بالخروج للعير (١) -

قال ابن إسحاق : ثم إن رسول الله ﷺ سمع بأبي سفيان بن حرب مُقبلاً من الشام في عير لقُريش عظيمة ، فيها أموال لقريش ، وتجارةٌ من تجاراتهم ، وفيها ثلاثون رجلاً من قريش أو أربعون ، منهم مَخْرمة بن نوفل بن أُهيب بن عبد مناف بن زُهْرة ، وعمرو بن العاص بن وائل بن هشام .

قال ابن إسحاق : فحدثني محمد بن مُسْلم الزُّهري ، وعاصم بن عمر بن قتادة ، وعبدُ الله بن أبي بكر ، ويزيد بن رومان ، عن عُروة بن الزبير وغيرهم من علمائنا ، عن ابن عباس ، كلٌّ قد حدثني بعض هذا الحديث ، فاجتمع حديثهم فيما سُقْت من حديث بدر (٢) ، قالوا : لما سمع رسولُ الله ﷺ بأبي سفيان مُقْبلاً من الشام ندب المسلمين إليهم ، وقال : هذه عيرُ قُريش ، فيها أموالهم ، فاخرجُوا إليها لعل الله يُنَفِّلكُموها ، فانتدب الناسُ ، فخفّ بعضُهم وثقُل بعضُهم وذلك أنهم

---

(١) يعني قافلة قريش التجارية القادمة من الشام .

(٢) يعني أن جميع ما ساقه ابن إسحاق من حديث هذه الغزوة فهو بهذا الإسناد إلا إذا ذكر إسناداً آخر ، وقد اختصر ابن هشام ذكر الإسناد فنسب أخبار هذه الغزوة إلى ابن إسحاق نفسه .

وقد أخرج الإمام ابن جرير هذا الحديث في تفسيره بهذا الإسناد - ٩/ ١٨٥ - وكذلك في تاريخه - ٢/ ٤٢٧ بهذا الإسناد ، وقد تخلله روايات أخرى عن ابن إسحاق بغير هذا الإسناد وروايات عن غير ابن إسحاق ، وإذا رجع إلى هذا الحديث يقول : رجع الحديث إلى حديث ابن إسحاق ، يعني فيما يحدث به عن شيوخه ، وعبارته هذه أدق من صنيع ابن هشام الذي نسب القول إلى ابن إسحاق ، فأوهم أنه من قوله بلا سند .

لم يظنّوا أن رسول الله ﷺ يَلْقَى حَرْبًا ، وقد جاء في صحيح الإمام مسلم من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه ضمن حديث عن غزوة بدر « قال : فخرج رسول الله ﷺ ، فتكلم فقال : إن لنا طَلِبَة فمن كان ظهره حاضرا فليركب معنا ، فجعل رجال يستأذنونه في ظُهرانهم في علو المدينة فقال : لا ، إلا من كان ظهره حاضرا (١) .

قال ابن إسحاق : وكان أبو سفيان - حين دنا من الحجاز - يتحسّس الأخبار ، ويسأل مَنْ لَقي من الرُّكْبان ، تخوُّفا على أمْر الناس ، حتى أصاب خبرًا من بعض الركبان أنّ محمدًا قد استَنْفر أصحابَه لك ولعيرك فَحذر عند ذلك . فاستأجر ضَمْضم بن عَمْرو الغفَاريَّ ، فَبعثه إلى مكة ، وأمره أنْ يأتي قُريشا فيَسْتَنْفرهم إلى أموالهم ، ويُخبرهم أنّ محمدًا قد عرض لها في أصحابه ، فخرج ضمضم بن عمرو سريعا إلى مكة (٢) .

---

(١) صحيح مسلم رقم ١٩٠١ (ص ١٥١٠) كتاب الإمارة ، والظَّهر البعير .

(٢) سيرة ابن هشام ٢/ ٢٨٤ .

٢- رؤيا عاتكة بنت عبد المطلب وإضعاف معنوية الكفار -

قال ابن إسحاق : فأخبرني من لا أتَّهم عن عكْرِمة عن ابن عباس ، ويزيد بن رومان عن عُروة بن الزُّبير ، قالا : وقد رأت عاتكةُ بنت عبد المطلب ، قبل قدوم ضَمْضم مكة بثلاث ليال رُؤْيا أفزعتها ، فبعثت إلى أخيها العبّاس بن عبد المطلب ، فقالت له : يا أخي ، والله لقد رأيت الليلة رُؤيا لقد أفظعتني وتخوّفْت أن يدخل على قومك منها شرٌّ ومُصيبة ، فاكتُم عنّي ما أحدّثك به .

فقال لها : وما رأيت ؟ قالت : رأيتُ راكبًا أقبل على بَعير له ، حتى وقف بالأبْطح ، ثم صَرخ بأعلى صوته : ألا انفرُوا يالَغُدُرُ[١] لمصارعكم في ثلاث فأرى الناس اجتمعوا إليه ، ثم دخل المسجد والناس يَتْبعونه ، فبينما هم حوله مَثَل به بعيرُه على ظهر الكعبة ، ثم صرخ بمثلها : ألا انفروا يالَغدر لمصارعكم في ثلاث ثم مَثل به بعيرهُ على رأس أبي قُبيس ، فَصرخ بمثلها ، ثم أخذ صَخْرَة فأرسلها ، فأقبلت تَهْوي ، حتى إذا كانت بأسفل الجَبل ارفضّت فما بقي بيتٌ من بيوت مكة ، ولا دارٌ إلا دخلتها منها فلقَة ، قال العباس : والله إن هذه لرُؤيا ! وأنت فاكتُميها ، ولاتَذْكريها لأحد .

ثم خرج العبّاس : فلقي الوليد بن عُتبة بن رَبيعة ، وكان له صديقا ، فذكرها له واستكْتمه إياها . فذكرها الوليدُ لأبيه عُتبة ، ففشا الحديثُ بمكة ، حتى تحدّثت به قُريش في أَنْديتها .

(١) بضم الغين والدال جمع غدور ، أي إن تخلفتم فأنتم غُدُر لقومكم - الروض الأنف ١١٦/٥- .

قال العباس : فغدوتُ لأطوف بالبيت ، وأبو جهل بن هشام في رَهْط من قُريش قُعود يتحدثون برُؤيا عاتكة ، فلما رآني أبو جهل قال : يا أبا الفضل ، إذا فَرَغْتَ من طوافك فأقْبل إلينا ، فلما فرغتُ أقبلتُ حتى جلستُ معهم ، فقال لي أبو جهل : يابَني عبد المطلب ، متى حَدَثَتْ فيكم هذه النبيّة ؟ .

قال : قلت : وماذاك ؟ قال : تلك الرؤيا التي رأت عاتكةُ ، قال : فقلت : وما رأتْ ؟ قال : يابني عبد المطلب ، أمَا رَضيتم أن يتنبّأ رجالُكم حتى تتنبأ نساؤكم ! قد زعمتْ عاتكةُ في رؤياها أنه قال : انفروا في ثلاث ، فسنتربَّص بكم هذه الثلاث ، فإن يك حقًا ما تقول فسيكون ، وإن تَمْض الثلاثُ ولم يكن من ذلك شيء ، نكْتُبْ عليكم كتابًا أنكم أكذبُ أهل بيت في العرب .

قال العبّاس : فو الله ما كَان منّي إليه كَبير ، إلا أني جحدتُ ذلك ، وأنكرت أن تكون رأتْ شيئًا . قال : ثم تفرّقنا .

فلما أمسيتُ ، لم تبق امرأة من بَني عبد المطلب إلا أتَتْني ، فقالت : أقررتم لهذا الفاسق الخبيث أن يَقَع في رجالكم ثم قد تَناول النساءَ وأنت تسمع ، ثم لم يكن عندك غيرٌ(١) لشيء مما سمعت ! قال : قلت : قد والله فعلتُ ، ما كان منّي إليه من كَبير . وايمُ الله لأتعرّضن له ، فإن عاد لأكفينَّكُنَّه .

قال : فغدوتُ في اليوم الثالث من رُؤيا عاتكة ، وأنا حَديد مُغْضب

---

(١) بكسر الغين وفتح الياء أي تغيير .

أرى أني قد فاتني منه أمرٌ أُحب أن أُدْركه منه . قال : فدخلت المسجدَ فرأيته ، فو الله إني لأمشي نحوه أتعرّضه ، ليعودَ لبعض ما قال فأقَع به ، وكان رجلاً خفيفًا ، حديدَ الوجه ، حديدَ اللسان ، حديدَ النظر .

قال : إذ خرج نحو باب المسجد يشتَدُّ . قال : فقلت في نفسي ماله لعنه الله ! أكلُّ هذا فَرَقٌ(1) منّي أن أُشاتمه ! قال : وإذا هو قد سَمع ما لم أسمع : صوت ضَمْضم بن عَمرو الغفاريّ ، وهو يَصْرخ ببطْن الوادي واقفًا على بعيره ، قد جَدّع بعيره(2) ، وحوّل رَحْله ، وشقّ قميصه ، وهو يقول : يامعشر قُريش ، اللَّطيمةَ اللطيمة(3) ، أموالُكم مع أبي سفيان قد عَرض لها محمد في أصحابه ، لا أرى أن تُدْركوها ، الغَوثَ الغوثَ . قال : فشَغلني عنه وشغله عنّي ما جاء من الأمر(4) .

وهكذا أرى الله جل وعلا عاتكة هذه الرؤيا في ذلك الوقت المناسب لتكون سببا في تخذيل المشركين وإضعاف معنويتهم ، فهم وإن خرج منهم جمع كبير فإن كثيرا منهم كان كارها للخروج ، كما سيتبين من الأخبار التالية .

---

(1) الفرق بفتح الفاء والراء الخوف .

(2) يعني قطع أنفه .

(3) اللطيمة اسم للجمال التي تحمل العطر ، ولطائم المسك أوعيته والمعنى أدركوا العير - سبل الهدى والرشاد ٤/ ١٣٢ - .

(4) سيرة ابن هشام ٢/ ٢٨٥ - ٢٨٧ .

وأخرج هذا الخبر الإمام الطبراني مرسلاً ، ذكره الحافظ الهيثمي وقال : وفيه ابن لهيعة وفيه ضعف وحديثه حسن - مجمع الزوائد ٦/ ٧٠ - ٧١ .

٣ - استعداد قريش للحرب -

قال ابن إسحاق رحمه الله تعالى :

فتجهز الناسُ سراعًا ، وقالوا : أيظن محمد وأصحابه أن تكون كعير ابن الحَضْرمي (١) ، كلا والله ليعلمَنّ غير ذلك . فكانوا بين رجلين ، إما خارج وإما باعث مكانه رجلاً . وأوْعَبت قريش ، فلم يتخلف من أشرافهم أحدٌ ، إلا أن أبا لهب بن عبد المطلب قد تخلف ، وبعث مكانه العاصي بن هشام بن المُغيرة ، وكان قد لاط له (٢) بأربعة آلاف درهم كانت له عليه أفْلس بها ، فاستأجره بها ، على أن يُجزئ عنه ، بَعَثَهُ فخرج عنه وتخلّف أبو لهب .

قال ابن إسحاق : وحدّثني عبد الله بن أبي نَجيح : أن أُمية بن خلف كان أجمع القُعود ، وكان شيخا جليلاً جَسيما ثقيلا ، فأتاه عُقبة ابن أبي مُعَيط ، وهو جالس في المسجد بين ظَهْرانَي قومه ، بمجمرة يحملها ، فيها نار ومَجْمَر ، حتى وضعها بين يديه ، ثم قال : يا أبا علي ، استَجْمر ، فإنما أنت من النساء ، قال : قَبَّحك الله وقَبَّح ما جئْتَ به ، قال : ثم تجهز فخرج مع الناس .

قال ابن إسحاق : ولما فرغوا من جهازهم ، وأجْمعوا المسير ، ذكروا ما كان بينهم وبين بني بكر بن عبد مناة بن كنانة من الحرب ،

---

(١) يعني التي غنمها المسلمون في سرية نخلة .

(٢) أي له عليه دين من الربا ، قال أبو عبيد ، سمي الربا لياطًا لأنه ملصق بالبيع وليس ببيع - سبل الهدى ٥/ ١٣٣ .

فقالوا : إنا نخشى أن يأتونا من خلفنا . . ثم ذكر الحرب القديمة التي كانت بين قريش وبني بكر ، إلى أن قال : وحدثني يزيد بنُ رُومان ، عن عُروة بن الزبير ، قال : لما أجمعت قريش المسيرَ ذكرت الذي كان بينها وبين بني بكر ، فكاد ذلك يَثنيهم ، فتبدّى لهم إبليس في صورة سراقة بن مالك بن جُعْشُم المُدْلجي ، وكان من أشراف بني كنانة ، فقال لهم : أنا لكم جارٌ من أن تأتيكم كنانة من خلفكم بشيء تكرهونه ، فخرجوا سراعا (١) .

وهكذا كان إبليس لعنه الله تعالى مرافقا للمشركين من حين استعدادهم للحرب ، فلما أن عرض لهم ما قد يثنيهم عن الاستمرار في عزمهم من خوفهم على الذراري من أعدائهم الأقربين ظهر لهم في صورة سراقة بن مالك الرجل الشجاع الفاتك فأجارهم من جميع بني كنانة ، وكانوا يعلمون سلفا أنه إذا قال فعل ، وأنه لاتُخْفَر ذمته ولايستطيع أحد من قومه أن يتجاوز حماه ، ففرحوا بذلك ، وهم لايشكُّون أن الذي خاطبهم هو سراقه نفسه .

ولقد رجع مكر إبليس وبالاً عليه وعلى شيعته من الكفار ، حيث أصبح خروج قريش الذي شجعهم عليه إبليس نكبة كبرى عليهم كما سيأتي .

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/٢٨٨ - ٢٩١ .

٤ — خبر جزور أبي جهل وموقف لعداس —

أخرج الواقدي من حديث الزهريّ ، عن أبي بكر بن سليمان بن أبي حَثْمَة ، قال : سمعت حكيم بن حزام يقول : ما وجّهت وجهًا قطٌّ كان أكره لي من مسيري إلى بدر . ولا بان لي في وجه قطٌّ ما بان لي قبل أن أخرج . ثم يقول : قدم ضَمْضَم فصاح بالنفير ، فاستقسمت بالأزلام ، كلّ ذلك يخرج الذي أكره ، ثم خرجتُ على ذلك حتى نزلنا مَرَّ الظَّهران (١) .

فنحر ابنُ الحَنْظَلِيَّة (٢) جُزُرًا ، فكانت جزور منها بها حياة ، فما بقي خباءٌ من أخبية العسكر إلا أصابه من دمها ، فكان هذا بيِّنًا . ثم هممتُ بالرجوع ، ثم أذكر ابن الحنظلية وشؤمه ، فيردني حتى مضيت لوجهي .

فكان حكيم يقول : لقد رأيتنا حين بلغنا الثَّنِيَّةَ البيضاء - والثنية البيضاء التي تُهبطك على فَخّ وأنت مُقبل من المدينة - إذا عَدّاس جالسٌ عليها والناس يمرّون ، إذ مرّ عليه ابنا ربيعة ، فوثب إليهما فأخذ بأرجلهما في غَرْزهما ، وهو يقول : بأبي وأُمي أنتما ، والله إنه رسول الله ، وما تُساقان إلاّ إلى مصارعكما ! وإنّ عينيه لتسيل دموعهما على خدّيه ، فأردت أن أرجع أيضًا ، ثم مضيتُ ، ومرّ به العاص بن مُنَبِّه بن الحجاج ، فوقف عليه حين ولّى عُتبة وشيبة ، فقال : ما يُبكيك ؟ فقال : يُبكيني سيّدايَ وسيّدا أهل الوادي ، يخرجان إلى مصارعهما ، ويُقاتلان

---

(١) مرَّ الظهران على مرحلة من مكة . (معجم البلدان ، ج ٨ ، ص ٢١) .

(٢) هو أبو جهل ، والعرب تنسب إلى الأم غالبا إذا أرادوا التحقير .

رسول الله . فقال العاص : وإنّ محمدا رسول الله ؟ قال : فانتفض عَدّاس انتفاضةً ، واقشعرّ جلده ، ثم بكى وقال : إي والله ، إنه لرسول الله إلى الناس كافّةً . قال : فأسلم العاص بن مُنَبِّه ، ثم مضى وهو على الشكّ حتى قُتل مع المشركين على شكٍّ وارتياب . ويُقال رجع عَدّاس ولم يشهد بدرًا ، ويُقال شهد بدرًا وقُتل يومئذ - والقول الأول أثبت عندنا (١) .

وفي هذا الخبر عبرة من ذلك الجزور الذي نحره أبو جهل فأصاب دمه جميع خيام جيش الكفار ، فقد كان ذلك نذيرا لهم بأنهم مقبلون على مصيبة دموية كبرى ، ولاشك أن ذلك مما كان له أثر في إضعاف معنويتهم حيث يكونون قد أقبلوا على حرب لايتوقعون أن نتائجها تكون لصالحهم .

كذلك موقف عداس من سيِّدَيه عتبة وشيبة ابني ربيعة حيث جزم لهما بأنهما إنما يسوقان أنفسهما إلى مصارعهما ، وأقسم لهما أن من خرجوا لحربه هو رسول الله حقا ، وهذا من الدلائل على إسلامه وأنه كان من الذين يكتمون إيمانهم ، وموقفه هذا لكونه أصلا من أهل الكتاب لاشك أنه سيحدث أثرًا في نفوس سيديه ومن سمع هذا الكلام من التشكيك في نجاح قريش في مهمتهم الحربية تلك .

---

(١) مغازي الواقدي ١/ ٣٤ - ٣٥ .

٥ - خروج النبي ﷺ وأصحابه لتلقي العير -

قال ابن إسحاق : وخرج رسول الله ﷺ في ليال مضت من شهر رمضان في أصحابه (١) واستعمل عمرو بن أم مكتوم - ويقال اسمه : عبد الله ابن أم مكتوم أخا بني عامر بن لؤي - على الصلاة بالناس ، ثم رد أبا لُبابة من الرَّوحاء (٢) ، واستعمله على المدينة (٣) .

قال ابن إسحاق : ودفع اللواء إلى مُصْعب بن عُمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار (٤) .

وكان أمام رسول الله ﷺ رايتان سوْداوان إحداهما مع عليّ بن أبي طالب ، يقال لها : العُقاب ، والأخرى مع بعض الأنصار (٥) .

قال ابن إسحاق : وكانت إبل أصحاب رسول الله ﷺ يومئذ سبعين بعيراً ، فاعتقبوها ، فكان رسول الله ﷺ ، وعلى بن أبي طالب ، ومَرْثَد ابن أبي مَرْثَد الغَنويّ يَعْتَقبون بعيراً ، وكان حمزة بن المطلب ، وزيد بن حارثة ، وأبو كَبْشَة وأنَسة ، موليا رسول الله ﷺ يعتقبون بعيراً ، وكان أبو بكر ، وعمر ، وعبد الرحمن بن عوف يعتقبون بعيراً (٦) .

(١) قال ابن هشام : خرج يوم الاثنين لثمان ليال خلون من شهر رمضان .

(٢) الروحاء قرية على ليلتين من المدينة في طريق مكة .

(٣) كما جاء في ترجمته عند الحاكم من حديث عروة بن الزبير أن أبا لبابة بشير بن عبد المنذر والحارث بن حاطب خرجا إلى رسول الله ﷺ وخرجا معه إلى بدر فرجّعهما وأمّر أبا لبابة على المدينة ، وضرب لهما بسهمين مع أصحاب بدر . - المستدرك ٣/ ٦٣٢ - .

(٤) قال ابن هشام : وكان أبيض .

(٥) وقد ذكر ابن هشام أنها كانت مع سعد بن معاذ .

(٦) سيرة ابن هشام ٢/ ٢٩٢ - ٢٩٣ .

٧ – مثل من التنافس على العمل الصالح –
(خبر سعد بن خيثمة وأبيه)

قال الحافظ ابن حجر : قال موسى بن عقبة عن ابن شهاب : استَهَم يوم بدر سعد بن خيثمة وأبوه فخرج سهم سعد فقال له أبوه : يابني آثرني اليوم ، فقال سعد : يا أبت لو كان غير الجنة فعلت ، فخرج سعد إلى بدر فقتل بها ، وقتل أبوه خيثمة يوم أحد [(١)] .

وهذا مثل من تسابق الصحابة رضي الله عنهم على الجهاد في سبيل الله تعالى الذي يعتبرونه سبيلا للشهادة التي هي أسرع طريق إلى الجنة وإلى علو الدرجات فيها .

فهذا سعد بن خيثمة وأبوه رضي الله عنهما كل واحد منهما يريد الخروج مع النبي ﷺ إلى بدر ، ولايستطيعان الخروج معًا لاحتياج أسرتهما وعملهما الزراعي إلى بقاء أحدهما ، فلم يتنازل أحدهما عن الخروج رغبة في الشهادة حتى اضطر إلى الاقتراع بينهما ، فكان الخروج من نصيب الابن سعد .

ومع ذلك فإن نفس أبيه خيثمة ظلت تنازعه الرغبة في الخروج فطلب من ابنه أن يؤثره بنصيبه من ذلك ، وكان ابنه في غاية الأدب مع أبيه ولكنه في غاية الشوق إلى الجنة حيث أجابه بهذا الجواب البليغ « يا أبت لو كان غير الجنة فعلت » .

ولما كان الله تعالى يعلم صدق نيتهما في طلب الشهادة وهبها لهما ، فحينما فاتت خيثمة في بدر نالها في أحد .

---

(١) الإصابة ٢/ ٢٣ ٢٤ ، رقم ٣١١٨ .

٦ - أمثلة من مكارم الأخلاق -
(خبر النبي ﷺ مع زميليه في الدّابّه)

أخرج الإمام أحمد من حديث عبد الله بن مسعود قال : « كنا يوم بدر كل ثلاثة على بعير ، كان أبو لبابة وعلى بن أبي طالب زميلي رسول الله ﷺ ، قال : وكانت عقبة رسول الله ﷺ فقالا : نحن نمشي عنك ، فقال : ما أنتما بأقوى مني ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما (١) .

وفي هذا موقفان لرسول الله ﷺ : الأول في تواضعه الجمّ ، حيث عدَّ نفسه كفرد من أفراد المسلمين ، فلم يجعل لنفسه راحلة مستقلة ، بل أشرك معه اثنين كبقية الجيش ، وهو بهذا يقرر مبدأً عاليًا من مباديء العدالة والمساواة في الحقوق المشتركة ، ويعطي بذلك مثلا عاليا للقائد القدوة في الكمال الإنساني ، حيث أفاد بسلوكه هذا بأن الكمال في الإسلام لايكون بالترفع والأبَّهة والتميز ، وإنما يكون بالتواضع والمساواة في الحقوق العامة .

والموقف الثاني : في رفضه عرض زميليه علي بن أبي طالب وأبي لبابة بن عبد المنذر في التنازل له عن الراحلة ، حيث أفاد بأن الذي له حق التَّمَيُّز في مثل هذه الحال هو ضعيف الجسم الذي لايقوى على المشي ،

---

(١) مسند أحمد بتحقيق الشيخ أحمد شاكر وقد صحح إسناده ٦/ ٣ رقم ٣٩٠١ .

وذكره الحافظ الهيثمي وزاد نسبته إلى البزار ، قال : وفيه عاصم بن بهدلة وحديثه حسن وبقية رجال أحمد رجال الصحيح - مجمع الزوائد ٦/ ٦٨ ، واخرجه الحاكم وقال : هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه - المستدرك ٣/ ٢٠ - .

فهو معذور في تخصيصه بزيادة في المنفعة « ما أنتما بأقوى مني » ، كما أفاد بأن المشي في سبيل الله فيه ثواب عند الله تعالى ، ولا يزهد بهذا الثواب إلا من لايقدِّر الثواب الأخروي ، والرسول ﷺ أسبق الناس إلى العمل لرضوان الله تعالى والسعادة الأخروية « وما أنا بأغنى عن الأجر منكما » .

وموقف للصحابيين الجليلين علي بن أبي طالب وأبي لبابة حيث تنازلا للنبي ﷺ عن حقهما في البعير ليركبه وحده ، وهذا من خلق الإيثار الذي يعتبر من أعلى مكارم الأخلاق ، وقد كان الصحابة رضي الله عنهم يؤثر بعضهم بعضا بمتاع الدنيا ووسائل الراحة فيها ، فلا غرابة أن آثر هذا الصحابيان رسول الله ﷺ .

هذا وسبق أن ابن إسحاق ذكر أن زميلي رسول الله ﷺ هما علي ابن أبي طالب ومرثد بن أبي مرثد الغنوي ، فهذا محمول على ما كان عليه الأمر بعد أن أعاد الرسول ﷺ أبا لبابة إلى المدينة ، فذكر ابن إسحاق اللّذين زاملاه أكثر الطريق .

* * *

٨ - مثل من البراءة من المشركين -
(رفض النبي ﷺ الاستعانة بالمشركين)

أخرج الإمام مسلم من حديث عروة بن الزبير ، عن عائشة زوج النبي ﷺ ، أنها قالت : خرج رسول الله ﷺ قبَل بدر . فلما كان بحرَّة الوبرة [١] أدركه رجل . قد كان يذكر منه جُرأة ونجدة [٢] ففرح أصحاب رسول الله ﷺ حين رأوه . فلما أدركه قال لرسول الله ﷺ : جئت لأتبعكَ وأصيب معك . قال له رسول الله ﷺ « تُؤمن بالله ورسوله ؟ » قال : لا . قال « فارجع . فلن أستعين بمشرك » .

قالت : ثم مضى حتى إذا كُنا بالشجرة [٣] أدركه الرجلُ . فقال له كما قال أول مرة . فقال له النبي ﷺ كما قال أول مرة . قال « فارجع فلن أستعين بمشرك » . قال : ثم رجع فأدركه بالبيداء فقال له كما قال أول مرة « تُؤمن بالله ورسوله ؟ » قال : نعم . فقال له رسول الله ﷺ فانطلق» [٤] .

وأخرج محمد بن عمر الواقدي عن شيوخه :

قالوا : وكان خُبَيب بن يَساف رجلاً شجاعًا ، وكان يأبى الإسلام فلما خرج النبي ﷺ إلى بدر خرج هو وقيس بن مُحَرِّث ، وهما على دين قومهما ، فأدركا النبي ﷺ بالعقيق ، وخُبيب مُقَنَّع بالحديد ، فعرفه

(١) هو موضع على نحو أربعة أميال من المدينة .

(٢) هو خُبيب بن يساف كما في الرواية التالية .

(٣) يعني حتى إذا كان المسلمون في ذلك المكان ، لأن عائشة لم تكن مع ذلك الجيش .

(٤) صحيح مسلم ، الجهاد ، رقم ١٨١٧ (ص ١٤٤٩) .

رسـول الله ﷺ من تحت المغفر ، فالتفت رسـول الله ﷺ إلى سعد بن مُعاذ ، وهو يسير إلى جنبه ، فقال : أليس بخُبيب بن يساف ؟ قال : بلى قال : فأقبل خُبَيب حتى أخذ ببطان (١) ناقة النبي ﷺ ، فقال له رسول الله ﷺ ولقيس بن مُحَرِّث - يقال قيس بن المحرث ، وقيس بن الحارث - ما أخرجكما معنا ؟ قالا : كنت ابن أختنا وجارنا ، وخرجنا مع قومنا للغنيمة . فقال رسول الله ﷺ : لايخرجن معنا رجل ليس على ديننا . قال خُبَيب : قد علم قومي أني عظيم الغَناء في الحرب ، شديد النِّكاية ، فأُقاتل معك للغنيمة ولن أُسلم ! قال رسول الله ﷺ : لا ، ولكن أسلمْ ثم قاتل . ثم أدركه بالرَّوْحاء فقال : أسلمتُ لله ربّ العالمين ، وشهدت أنك رسول الله . فسرّ رسول الله ﷺ بذلك ، وقال : امْضهْ ! وكان عظيم الغناء في بدر وغير بدر . وأبى قيس بن مُحَرِّث أن يُسلم ورجع إلى المدينة ، فلما قدم النبي ﷺ من بدر أسلم ، ثم شهد أحُدًا فقُتل (٢) .

وهذا مثال على عزم النبي ﷺ في تطبيق أحكام الإسلام حتى في حال الشدة ، فالمسلمون بحاجة إلى مساعدة هذا الرجل الشجاع ، وقد ظهر منهم الفرح والارتياح لطلبه مشاركتهم في ذلك المسير ، ولكن النبي ﷺ رفض طلبه لأنه مشرك ، فجيش الإسلام جيش عقيدة هدفهم إعلاء كلمة الله تعالى ، فهم يقاتلون دون إسلامهم حتى الشهادة ، فليس من الحكمة أن يشاركهم في الجهاد من يريدون الدنيا ، إن لاح لهم نصر ثبتوا

(١) البطان للقتب : الحزام الذي يجعل تحت بطن البعير (الصحاح ، ص ٢٠٧٩) .

(٢) مغازي الواقدي ١/ ٤٧ .

ليغنموا ، وإن كانت الأخرى ولّوْا على أعقابهم هاربين ليتركوا جيش العقيدة يصْلَى نار الحرب وحده .

فلما أسلم ذلك الرجل سمح له النبي ﷺ بالمسير معهم لأن هدفه قد تغير من إرادة الدنيا إلى إرادة الآخرة فأصبح داخلا ضمن الهدف العالي الذي ينشده المسلمون ، وبهذا يكون مأمون الجانب ، حيث يعمل مع جيش المسلمين في السراء والضراء .

* * *

٩ - مواقف جهادية عالية لبعض الصحابة -
(استشارة النبي ﷺ أصحابه في القتال)

قال ابن إسحاق : وأتاه - يعني رسول الله ﷺ - الخبرُ عن قُريش بمسيرهم ليمنعوا عيرهم ، فاستشار الناس ، وأخبرهم عن قريش ، فقام أبو بكر الصديق ، فقال وأحسن ، ثم قام عمر بن الخطاب ، فقال وأحسن ، ثم قام المقداد بن عمرو فقال : يارسول الله ، امض لما أراك الله فنحن معك ، والله لانقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : ﴿**اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون**﴾ - سورة المائدة ٢٤ - ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، فو الذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه ، فقال له رسول الله ﷺ خيرا ودعا له بخير (١) .

ثم قال رسول الله ﷺ أشيروا علي أيها الناس وإنما يريد الأنصار

---

(١) وقد أخرج قول المقداد رضي الله عنه الإمام البخاري من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : شهدت من المقداد بن الأسود مشهداً لأن أكون صاحبه أحب إلي مما عدل به . . ثم ذكره نحوه - صحيح البخاري ، المغازي ، رقم ٣٩٥٢ (٧/ ٢٨٧) .

وأخرجه كلك الحاكم من حديث عبد الله بن مسعود وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه وأقره الذهبي - المستدرك ٣/ ٣٤٩ - .

والمقداد بن الأسود هو المقداد بن عمرو البهراني ، وإنما اشتهر بابن الأسود لأن الأسود بن عبد يغوث الزهري كان قد تبناه في الجاهلية فنسب إليه على عادة أهل الجاهلية إلى أن جاء الإسلام بإبطال عادة التبني فنسب إلى أبيه عمرو .

وقال الواقدي في برك الغماد : وبرك الغماد من وراء مكة بخمس ليال من وراء الساحل مما يلي البحر وهو على ثمان ليال من مكة - المغازي ١ / ٤٨ - .

وذلك أنهم عَدَد الناس [١]، وأنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا : يارسول الله إنا براء من ذمامك [٢] حتى تصل إلى ديارنا ، فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمتنا نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا . فكان رسول الله ﷺ يتخوف ألا تكون الأنصار ترى عليها نصره إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوّه ، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدوّ من بلادهم .

فلما قال ذلك رسول الله ﷺ ، قال له سعدُ بن مُعاذ ، والله لكأنك تريدنا يارسول الله ؟ قال : أجل ، قال : فقد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ماجئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عُهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة [فَصِلْ حبال من شئت واقطع حبال من شئت ، وسالم من شئت وعاد من شئت ، وخذ من أموالنا ماشئت وأعطنا ما شئت ، وما أخذت منا أحب إلينا مما تركت ، وما أمرت به من أمر فأمرنا تبع لأمرك] [٣] ، فامض يارسول الله لما أردت فنحن معك ، فو الذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد ، ومانكره أن تلقى بنا عدوّنا غدا إنا لصُبُرٌ في الحرب صُدُق اللقاء ، لعل الله يُريك منّا ما تقرُّ به عينُك ، فسرْ بنا على بركة الله .

فُسرَّ رسولُ الله ﷺ بقول سعد ، ونشطه ذلك ، ثم قال : سيرُوا

(١) أي أكثر الحاضرين .

(٢) أي من معاهدتنا إياك .

(٣) مابين القوسين زيادة من رواية ابن عائذ من مرسل عروة ، وابن أبي شيبة من مرسل علقمة بن وقاص - شرح المواهب ١/ ٤١٣ - ٤١٤ - .

وأبشروا ، فإن الله تعالى وَعدني إحدى الطائفتين (١) ، والله لكأني الآن أنظرُ إلى مصارع القوم (٢) .

إنها كلمات معدودات صدرت من سعد والمقداد ومنْ قبلهما من أبي بكر وعمر ولكنها في المقاييس المعنوية للحروب دفعات قوية من الإيمان نبهت الغافل ودفعت المتردد إلى الإقدام ، وأيقظت المشاعر نحو التجرد من حظ النفس والاندفاع بقوة نحو نصرة دين الله تعالى وإن كان الثمن هو النفوس .

لقد نادوا رسول الله ﷺ « امض يارسول الله فنحن معك » ولسان حالهم يقول فما نحن إلا قبسات من ضوئك وومضات من شعاعك وإنه لمن المستحيل أن يتخلف القبس عن ضوئه .

وإنه لتخطيط محكم من رسول الله ﷺ حيث لم يقدم بهم على دخول المعركة وأمر إقدامهم غير واضح إذ أنهم لم يخرجوا أصلا لقتال ، فاستشارهم في الأمر ليتثبت منهم وليدفع أقوياء الإيمان إلى المشاركة في إنهاض الهمم وشحذ العزائم .

وإنها لشجاعة عظيمة من رسول الله ﷺ حيث قاد المؤمنين وواجه بهم جيشًا يفوقهم في العدد ثلاث مرات كما يتميز عليهم بالاستعداد الحربي ليقضي الله أمرًا كان مفعولا ، ليبوء المشركون بالهلاك والعار ويفوز المسلمون بالنصر والفخار .

---

(١) يعني القافلة التجارية أو جيش قريش .

(٢) سيرة ابن هشام ٢/ ٢٩٥ - ٢٩٦ . وأخرجه الواقدي وذكر نحوه - مغازي الواقدي ١/ ٤٨ - ٤٩ - ، وذكره الهيثمي وقال : رواه الطبراني وإسناده حسن - مجمع الزوائد - ٧٣-٧٤ - .

١٠ - مثل من الاهتمام بمعرفة واقع العدو قبل لقائه - (خبر شيخ من العرب ومولى لقريش)

قال ابن إسحاق : ثم نزل قريبًا من بدر [يعني رسول الله ﷺ] ، فركب هو ورجلٌ من أصحابه (١) .

كما حدثني محمد بن يحى بن حَبان حتى وقف على شيخ من العرب ، فسأله عن قُريش ، وعن محمد وأصحابه ، وما بلغه عنهم ، فقال الشيخ : لا أُخبركما حتى تُخبراني ممن أنتما ؟ فقال له رسول الله ﷺ : إذا أخبرتنا أخبرناك . قال : أذاك بذاك ؟ قال : نعم ، قال الشيخ : فإنه بلغني أن محمدًا وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا ، فإن كان صَدَق الذي أخبرني ، فهم اليوم بمكان كذا وكذا ، للمكان الذي به رسول الله ﷺ ، وبلغني أن قريشًا خرجوا يوم كذا وكذا ، فإن كان الذي أخبرني صدَقني فهم اليوم بمكان كذا وكذا للمكان الذي فيه قريش ، فلما فرغ من خبره ، قال ممّن أنتما ؟ فقال رسول الله ﷺ : نحن من ماء ، ثم انصرف عنه ، فقال الشيخ : ما من ماء ! أمن ماء العراق ؟ (٢) .

وهكذا استفاد النبي ﷺ من ذلك الأعرابي فأخذ من خبر قريش ، بينما عمّى عليه خبر جيش المسلمين فلم يعرف عنه شيئًا .

وفي هذا توجيه منه ﷺ لقادة أمته كي يستفيدوا من كل من

---

(١) قال ابن هشام : الرجل هو أبو بكر الصديق .

(٢) قال ابن هشام : يقال : ذلك الشيخ سفيان الضمْري .

يواجهونه في طريقهم لرصد اعدائهم مع الاحتفاظ الكامل بأسرار الجيش الإسلامي .

وما قام به النبي ﷺ من معاملة ذلك الرجل داخل في التوجيه العام الذي جاء في قوله ﷺ « الحرب خدعة »(١) .

قال ابن إسحاق : ثم رجع رسول الله ﷺ إلى أصحابه ، فلما أمسى بعث علي بن أبي طالب ، والزبير بن العوام ، وسعد بن أبي وقاص ، في نفر من أصحابه ، إلى ماء بدر ، يلتمسون الخبر له عليه - كما حدثني يزيدُ بن رُومان عن عُروة بن الزبير - فأصابوا راويةً(٢) لقريش فيها أسلم غلامُ بني الحجاج ، وعَريضٌ أبو يسار غلام بني العاص بن سعيد ، فأتوا بهما فسألوهما ، ورسول الله ﷺ قائم يصلي ، فقالا : نحن سُقاة قُريش ، بعثونا نَسْقيهم من الماء ، فكَرِه القوم خبرهما ، ورَجَوا أن يكونا لأبي سفيان ، فضربوهما فلما أذْلَقوهما قالا : نحن لأبي سفيان ، فتركوهما .

وركع رسول الله ﷺ وسجد سجدتيه ، ثم سلم ، وقال : إذا صدقاكم ضربتموهما ، وإذا كذباكم تركتموهما ، صَدَقا والله إنهما لقريش ! أخبراني عن قُريش ؟ قالا : هم والله وراء هذا الكثيب الذي ترى بالعُدوة القُصوى (٣) - والكثيب : العَقَنْقَل (٤) - فقال لهما رسول

---

(١) صحيح البخاري ، الجهاد ، رقم ٣٠٣٠ .

(٢) أي فرقة من السقاة .

(٣) أي جانب الوادي الأبعد من المدينة .

(٤) العَقَنْقَل الكثيب المتداخل الرمل .

الله ﷺ : كم القوم ؟ قالا : كثير ، قال : ما عدّتهم ؟ قالا : لاندري ، قال : وكم ينْحرون كل يوم ؟ قالا : يوما تسعًا ، ويومًا عشرًا ، فقال رسول الله ﷺ : القومُ فيما بين التسعمائة والألف .

ثم قال لهما : فمن فيهم من أشراف قُريش ؟ قالا : عُتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأبو البختري بن هشام وحكيم بن حزام ، ونوفل بن خُويلد ، والحارث بن عامر بن نوفل ، وطعيمة بن عدي بن نوفل ، والنضر بن الحارث ، وزمعة بن الأسود ، وأبو جهل بن هشام ، وأمية بن خلف ونَبيه ومُنَبِّه ابنا الحجاج ، وسُهيل بن عمرو وعَمرو بن عبد وُدّ ، فأقبل رسول الله ﷺ على الناس فقال : هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها (1) .

* * *

(1) سيرة ابن هشام ٢/ ٢٩٧ - ٢٩٨ .

وقد أخرج نحو هذا الخبر الإمام مسلم في صحيحه من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه ، كتاب الجهاد ، رقم ١٧٧٩ (ص ١٤٠٣) .

١١ - أبو سفيان يُغَيِّر اتجاه العير -

قال ابن إسحاق : وكان بَسْبَس بن عمرو ، وعديّ بن أبي الزّغْباء قد مضيا حتى نزلا بدرًا ، فأناخا إلى تل قريب من الماء ، ثم أخذا شَنًّا لهما يَسْتقيان فيه ، ومجدي بن عُمرو الجهني على الماء ، فسمع عدي وبسبس جاريتين من جواري الحاضر (١) وهما تتلازمان (٢) على الماء والملزومة تقول لصاحبتها : إنما تأتي العير غدًا أو بعد غد ، فأعملُ لهم ، ثم أقضيك الذي لك . قال مجديّ : صدقت ، ثم خلص بينهما . وسمع ذلك عدي وبسبس ، فجلسا على بعيرهما ، ثم انطلقا حتى أتيا رسول الله ﷺ ، فأخبراه بما سمعا .

وأقبل أبو سفيان بن حرب حتى تقدّم العير حذَرًا ، حتى ورد الماء ، فقال لمجديّ بن عمرو : هل أحَسسْتَ أحدًا ، فقال : ما رأيت أحدًا أنكره ، إلا أني قد رأيتُ راكبين قد أناخا إلى هذا التل ، ثم استقيا في شَنّ لهما ، ثم انطلقا .

فأتى أبو سفيان مُناخَهما فأخذ من أبْعار بعيريهما ، ففتّه ، فإذا فيه النَّوى ، فقال : هذه والله علائف يثرب ، فرجع إلى أصحابه فضرب وجه بعيره عن الطريق فساحل بها ، وترك بدرًا بيسار ، وانطلق حتى أسرع (٣) .

---

(١) الحاضر القوم المقيمون الذين لايرحلون من المكان .

(٢) يعني تتماسكان للخصومة .

(٣) سيرة ابن هشام ٢/ ٢٩٩ .

١٢ – تشاؤم قريش من رؤيا جُهيم بن الصلب وتضارب آرائهم –

قال ابن إسحاق : وأقبلت قريشٌ ، فلما نزلوا الجحفة (١) ، رأى جهيم بن الصلت بن مخرمة بن المطلب بن عبد مناف رؤيا ، فقال : إني رأيت فيما يرى النائم ، وإني لبين النائم واليقظان . إذ نظرت إلى رجل قد أقبل على فرس حتى وقف ، ومعه بعير له ، ثم قال قُتل عُتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأبو الحكم بن هشام ، وأمية بن خلف ، وفلان وفلان ، فعدد رجالاً ممن قتل يوم بدر ، من أشراف قُريش ، ثم رأيته ضرب في لَبَّة بعيره (٢) ، ثم أرسله في العسكر ، فما بقي خباء من أخبية العسكر إلا أصابه نَضْح من دمه .

قال : فبلغت أبا جهل ، فقال : وهذا أيضًا نبي آخر من بني المطلب ! سيعلم غداً من المقتول إن نحن التقينا .

وهذه الرؤيا ورؤيا عاتكة قبلها وغيرها من الرؤى المفزعة يراها بعض أفراد الكفار قبيل المعارك الحاسمة مع المسلمين لتكون مخذِّلة لهم وليصابوا من داخل نفوسهم بانهزام معنوي قبل الدخول في المعركة ، وبضد ذلك الرؤي المشجعة التي يراها المسلمون ، وستمر علينا أمثلة لهذين النوعين من الرؤى في الفتوح الإسلامية .

وقول أبي جهل في التعليق على هذه الرؤيا لايعني عدم التأثر بها نفسيا وإنما هو نوع من التجلد الظاهري الذي يقوم به القادة عادة ليُبْقُوا

---

(١) هي ميقات أهل الشام وهي قرب مدينة رابغ الحالية .

(٢) يعني مكان نحره من عنقه .

على تماسك أفراد الجيش ، ولكن مهما حاولوا من ذلك فإن تلك الرؤى المفزعة يظل لها الأثر الكبير في تحطيم معنوية الكفار وتخذيلهم .

قال ابن إسحاق : ولما رأى أبو سفيان أنه قد أحرز عيره ، أرسل إلى قُريش : إنكم إنما خرجتم لتمنعوا عيركم وأموالكم ، فقد نجاه الله ، فارجعوا فقال أبو جهل بن هشام : والله لانرجع حتى نرد بدرًا - وكان بدر موسمًا من مواسم العرب ، يجتمع لهم به سُوق كلَّ عام - فنُقيم عليه ثلاثا ، فننْحَر الجُزُر ، ونُطعمَ الطعام ونُسْقَي الخمر ، وتَعْزف علينا القيان وتسمع بنا العربُ وبمَسيرنا وجَمعنا ، فلا يزالون يهابوننا أبدا بعدها ، فامضوا[1] .

وهذا لون من ألوان التعاظم والكبرياء التي يتظاهر بها قادة الكفار ليثبتوا وجودهم ويفرضوا هيبتهم .

وهذا الكلام يدل على تدني مستوى الأهداف التي يسعى لتحقيقها زعماء الكفار ، فهم لايؤمنون بالحياة الآخرة أصلا ، ولهذا فإنهم لايعملون لها ولايقاتلون من أجلها ، وكل ما لديهم من أهداف يبذلون من أجلها الأموال ويُعَرِّضون من أجلها حياتهم للخطر إنما تتركز بالسمعة الدنيوية من حب السيطرة والعلو في الأرض والهيمنة على الضعفاء ، وهذا الهدف أوْهى من خيوط العنكبوت .

ولقد ذكر الله تعالى أهدافهم القاصرة الدنيئة في معرض تحذير المسلمين من أن يسلكوا سبيلهم المنحرف حيث يقول جل ذكره

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٣٠٠ .

﴿**ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله والله بما يعملون محيط**﴾ - الأنفال / ٤٧ - .

يقول الحافظ ابن كثير بعد ذكر كلام أبي جهل المذكور : فانعكس ذلك عليهم أجمع ، لأنهم لما وردوا ماء بدر وردوا به الحِمَام (١) ، ورُكِمُوا في أطواء بدر مهانين أذلاء ، صَغَرَةً أشقياء ، في عذاب سرمدي أبدي (٢) .

فكيف يقابل هؤلاء الأشقياء الرعاع أهدافهم هذه المرذولة بهدف المسلمين العالي الذي يتلخص بإرادة رضوان الله تعالى والسعادة الأخروية ، متخطِّين بذلك كل الأهداف الدنيوية ، كما أثنى الله سبحانه عليهم بقوله ﴿ **يبتغون فضلا من الله ورضوانا** ﴾ - محمد / ٢٩ - ؟! .

* * *

---

(١) يعني الموت .

(٢) تفسير ابن كثير ٢/ ٣٣٩ .

١٣ - منزل الجيشين ببدر -

قال ابن إسحاق : ومضت قريش حتى نزلوا بالعُدوة القُصوى من الوادي ، خَلف العَقَنْقل [١] ، وبطنُ الوادي وهو يَلْيَل بين بدر وبين العقنقل ، الكثيب الذي خلفه قُريش ، والقُلُب ببدر في العُدوة الدنيا من بطن يليل إلى المدينة [٢] .

وهكذا نزل المشركون والمسلمون متجاورين لايفصل بينهم إلا وادي يليل وكثيب العقنقل ، وقد كان أبو سفيان أراد أن يرد ذلك الوادي ولكنه شعر بإقبال المسلمين فغيَّر اتجاه العير كما سبق .

وقد ذكر الله سبحانه مكان الطوائف الثلاث بقوله : **﴿ إذ أنتم بالعُدوة الدنيا وهم بالعُدوة القصوَى والركب أسفل منكم ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد ولكن لِيقضِيَ الله أمرًا كان مفعولا . لِيهلك من هلك عن بيِّنة ويَحيَى من حَيَّ عن بيِّنة وإن الله لسميع عليم ﴾**-الأنفال/ ٤٢- .

فالمسلمون قد نزلوا بجانب الوادي الشمالي الأقرب إلى المدينة ، والمشركون قد نزلوا بجانبه الجنوبي الأبعد من المدينة ، ولايفصل بينهم في ليلة المعركة إلا ذلك الكثيب الرملي الذي انحدروا منه في الصباح إلى ساحة المعركة ، وأبو سفيان والركب معه خلف سلسلة الجبال الغربية ، وقد سلك طريق الساحل حينما علم بقرب المسلمين منه .

ولقد شاء الله تعالى أن يصل الجيشان إلى ذلك الوادي في وقت

---

(١) اسم لكثيب الرمل الذي كانت قريش خلفه .

(٢) سيرة ابن هشام ٢/ ٣٠٢ .

واحد ، ولو أنهم تواعدوا في ذلك المكان حينما فصلوا من بلادهم لم يستطيعوا الوصول إليه في وقت واحد كما ذكر الله تعالى في هذه الآية .

وهكذا ذكر الله سبحانه أن نزول الجيشين كان تقديراً إلهيًّا ليتم التحامهما فيعلوا الحق وينتصر أهله ، وينخفض الباطل ويُسحق أهله .

ولقد كان من تقدير الله تعالى أن تنجو العير التجارية التي كانت مقصد المسلمين الأول ، مع أنها لاتبعد كثيراً عن جيش المسلمين لتتم تلك المعركة العظمى التي فرق الله تعالى بها بين الحق والباطل .

* * *

١٤ – مثلان من إكرام الله تعالى أولياءه –
(التأمين بالنعاس / إنزال المطر)

١ – قال الله تعالى ﴿ **إذ يُغَشِّيكم النعاس أمَنَةً منه وينزِّلُ عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهبَ عنكم رِجزَ الشيطان وليربطَ على قلوبكم ويثبِّت به الأقدام** ﴾ – الأنفال / ١١ – .

قال الحافظ ابن كثير : يذكِّرهم الله تعالى بما أنعم به عليهم من إلقائه النعاس عليهم أمانًا أمَّنهم الله به من خوفهم الذي حصل لهم من كثرة عدوهم وقلة عددهم .

ثم ذكر الحديث الذي أخرجه الحافظ أبو يعلى بإسناده عن علي رضي الله عنه قال : ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد ، ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم إلا رسول الله ﷺ يصلي تحت شجرة ويبكي حتى أصبح (١) .

وأخرجه الإمام الطبري من طريق أبي رزين عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : النعاس في القتال أمنة من الله عز وجل ، وفي الصلاة من الشيطان (٢) .

فالنعاس في الحرب نعمة من الله تعالى ، وذلك لأن من اعتراه الخوف يزول عنه النوم عادة ، والحرب مهما كان الاستعداد المادي فيها مظنة الخوف ، وكلما كان الاستعداد أقل والعدو أكثر وأقوى كان ذلك

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/ ٢١٢ .

(٢) تفسير الطبري ٩ / ١٩٣ .

أدعى إلى القلق وزوال النوم ، والنوم ضروري للجسم حتى يحتفظ بنشاطه وقوته .

ولما كان جيش الكفار في بدر يبلغ ثلاثة أضعاف المسلمين ويفوقهم كثيراً في الاستعداد الحربي كان المتوقع من المسلمين أن يعتريهم ليلة المعركة شيء من الخوف والقلق ، فمنَّ الله تعالى عليهم بإنزال النعاس عليهم حتى ناموا تلك الليلة وأخذوا الراحة الكاملة استعداداً لخوض تلك المعركة المخيفة .

فهذه نعمة مَنَّ الله تعالى بها على أوليائه المؤمنين ليلة بدر ، والنعمة الأخرى نزول المطر عليهم تلك الليلة ، وفي بيان هذه النعمة يقول الإمام محمد بن جرير الطبري رحمه الله تعالى :

وأما قوله عز وجل ﴿ **ويُنزِّلُ عليكم من السماء ماء ليُطهركم به** ﴾ فإن ذلك مطر أنزله الله من السماء يوم بدر ، ليطهر به المؤمنين لصلاتهم ، لأنهم كانوا أصبحوا يومئذ مُجْنبين على غير ماء ، فلما أنزل الله عليهم الماء ، اغتسلوا وتطهروا ، وكان الشيطان وسوس لهم بما حزَّنهم به ، من إصباحهم مجنبين على غير ماء ، فأذهب الله ذلك من قلوبهم بالمطر ، فذلك ربطُه على قلوبهم ، وتقويته أسبابهم ، وتثبيته بذلك المطر أقدامهم ، لأنهم كانوا التقوا مع عدوهم على رملة هشاء ، فلبدها المطر ، حتى صارت الأقدام عليها ثابتة لاتسوخ فيها ، توطئة من الله عز وجل لنبيه عليه السلام وأوليائه أسباب التمكن من عدوهم ، والظفر بهم .

ثم ذكر الآثار في ذلك عن الصحابة والتابعين ، ومن ذلك مارواه

بإسناده عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : نزل النبي ﷺ ، يعني حين سار إلى بدر ، والمسلمون بينهم وبين الماء رملة دعْصة (١) ، فأصاب المسلمين ضعف شديد ، وألقى الشيطان في قلوبهم الغيظ ، فوسوس بينهم : تزعمون أنكم أولياء الله وفيكم رسوله ، وقد غلبكم المشركون على الماء ، وأنتم تصلون مُجْنبين ، فأمطر الله عليهم مطرا شديدا ، فشرب المسلمون وتطهروا ، وأذهب الله عنهم رجز الشيطان ، وثبت الرمل حين أصابه المطر ، ومشى الناس عليه والدواب ، فساروا إلى القوم ، وأمد الله نبيه بألف من الملائكة ، فكان جبريل عليه السلام في خمس مئة من الملائكة مُجنِّبة ، وميكائيل في خمس مئة مجَنِّبة (٢) .

وهكذا امتن الله تعالى على أوليائه المؤمنين بإنزال ذلك المطر لهذه النعم العظيمة التي ذكرها وهي :

١ - أن يجدوا ماء يتطهرون به لصلاتهم ، حيث إنهم نزلوا قبيل آبار بدر على غير ماء ولم يكن معهم ماء .

٢ - إزالة وساوس الشيطان عنهم حيث وسوس لهم بإثارة القلق في نفوسهم من الإقدام على الصلاة بغير طهارة .

٣ - تسكين قلوبهم وطمأنتها بأن الله تعالى معهم بجوده وإنعامه

---

(١) أي هشة لينة .

(٢) تفسير الطبري ٩ / ١٩٥ ، والمجنِّبة بكسر الميم وتشديدها هي الكتيبة التي تأخذ إحدى جانبي الجيش .

ومن كان معهم في ذلك فإنهم جديرون بأن يكون معهم بنصره وتأييده وهو المطلب المهم عندهم .

٤ - تثبيت الرمل الذي كان بينهم وبين بدر حتى استطاعوا أن يسيروا عليه هم ودوابهم بسهولة وسرعة ، مما مكنهم من الوصول إلى آبار بدر واختيار المكان المناسب للحرب قبل أعدائهم .

وفي بيان هذه النعمة يقول محمد بن إسحاق رحمه الله تعالى : وبعث الله السماء ، وكان الوادي دَهْسا (١) فأصاب رسول الله ﷺ وأصحابه منها ما لبَّدلهم الأرض ولم يمنعهم عن السير ، وأصاب قريشًا منها ما لم يَقْدروا على أن يرتحلوا معه ، فخرج رسول الله ﷺ يُبادرهم إلى الماء ، حتى إذا جاء أدنى ماء من بدر نزل به (٢) .

وهذا من إكرام الله تعالى لأوليائه المؤمنين ، فالمطر واحد ولكنه كان رحمة وتيسيراً على المؤمنين ، وكان مشقة وتعويقا للكافرين .

* * *

---

(١) الدهس من الأرض المكان اللين .

(٢) سيرة ابن هشام ٢/ ٣٠٢ .

١٥ - مثل من تربية النبي ﷺ العالية -
(مشورة الحباب بن المنذر)

قال ابن إسحاق : فَحُدِّثت عن رجال من بني سلمة أنهم ذكروا : أن الحبَاب بن المنذر بن الجموح قال يارسول الله ، أرأيت هذا المنزل ، أمنزلا أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدّمه ، ولانتأخّر عنه ، أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟ قال : بل هو الرأي والحرب والمكيدة ، فقال : يارسول الله ، فإنّ هذا ليس بمنزل ، فانهض بالناس ، حتى نأتي أدنى ماء من القوم ، فَننزله ، ثم نُغور ماوراءه من القلُب ، ثم نَبني عليه حوضًا فنملْؤه ماء ثم نُقاتل القوم ، فَنَشرب ولايشربون ، فقال رسول الله ﷺ : لقد أشرتَ بالرأي فنهض رسول الله ﷺ ومن معه من الناس ، فسار حتى إذا أتى أدنى ماء من القوم نزل عليه ، ثم أمر بالقُلُب فَغُوِّرت ، وبني حَوْضا على القَليب الذي نزل عليه فَمُلِيء ماءَ ، ثم قذفوا فيه الآنية(١) .

وهذا يصور مثلا من حياة الرسول ﷺ مع أصحابه حيث كان أي

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٣٠١ - ٣٠٢ .

وقد ذكر الحافظ ابن حجر هذه الرواية في ترجمة الحباب بن المنذر ، قال : قال ابن إسحاق في السيرة : حدثني يزيد بن رومان عن عروة وغيره واحد في قصة بدر . . فذكر هذا الخبر " الإصابة / ١/ ٣٠٢ رقم ١٥٥٢ - وهذا إسناد آخر للخبر غير الذي ذكره ابن هشام ، فلعل ابن إسحاق ذكره مرة ضمن حديث بدر الطويل الذي رواه عن عدد من الشيوخ منهم يزيد بن رومان وذكره مرة عن رجال من بني سلمة ، ويؤيد ذلك قول الحافظ ابن حجر « وغير واحد في قصة بدر » فهذا يدل على أن هذا الخبر مروي من عدة طرق ، وعلى أنه ضمن حديث قصة بدر .

فرد من أفراد ذلك المجتمع يدلي برأيه حتى في أخطر القضايا ، ولايكون في شعوره احتمال غضب القائد الأعلى ، ثم حصول ما يترتب على ذلك الغضب من تدني سمعة ذلك المشير الذي أشار بخلاف رأي القائد وتأخره في الرتبة وتضرره في نفسه أو ماله .

إن هذه الحرية التي ربَّى عليها رسول الله أصحابه مكَّنت مجتمعهم من الاستفادة من عقول جميع أهل الرأي السديد والمنطق الرشيد ، فالقائد فيهم ينجح نجاحا باهراً وإن كان حديث السن لأنه لم يكن يفكر برأيه المجرد أو آراء عصبة مهيمنة عليه قد تنظر لمصالحها الخاصة قبل أن تنظر لمصلحة المسلمين العامة ، وإنما يفكر بآراء جميع أفراد جنده ، وقد يحصل له الرأي السديد من أقلهم سمعة وأبعدهم منزلة من ذلك القائد ، لأنه ليس هناك مايحول بين أي فرد منهم والوصول برأيه إلى قائد جيشه .

قال ابن إسحاق : فحدّثني عبد الله بن أبي بكر أنه حُدِّث : أن سعد بن معاذ قال : يانبي الله ألا نَبْني لك عريشًا تكون فيه ، ونُعدُّ عندك ركائبك ، ثم نَلقى عدوّنا ، فإن أعزّنا الله وأظهرنا على عدونا ، كان ذلك ما أحببنا ، وإن كانت الأخرى ، جلست على ركائبك ، فلحقت بمن وراءنا من قومنا ، فقد تخلف عنك أقوامٌ ، يانبي الله ، ما نحن بأشدَّ لك حبّا منهم ، ولو ظنوا أنك تلقى حربًا ما تخلفوا عنك ، يمنعك الله بهم ، يناصحونك ويجاهدون معك ، فأثنى عليه رسول الله ﷺ خيرا ودعا له بخير ثم بُني لرسول الله ﷺ عريش ، فكان فيه (١) .

(١) سيرة ابن هشام ٢/٣٠٣ .

وجاء في رواية الواقدي أن النبي ﷺ قال : « أو يقضي الله خيراً من ذلك ياسعد » (١) .

في هذا الخبر موقف جليل لسعد بن معاذ رضي الله عنه وذلك بالاهتمام بسلامة النبي ﷺ ، والاهتمام بمستقبل الإسلام الذي يترتب آنذاك على بقاء رسول الله ﷺ مع البقية الباقية من المسلمين فيما لو حصل على ذلك الجيش إصابة كما أن فيه موقفًا آخر له في ثنائه على إخوانه المؤمنين الذين في المدينة واعتذاره لهم عن تخلفهم بأنهم لم يكونوا يظنون أن رسول الله ﷺ يلقى حربا من أعدائه .

وهذا لايعني أن رسول الله ﷺ قد بقي في ذلك العريش وترك أصحابه يواجهون المعركة وحدهم ، بل كان فيه ليلة المعركة يصلي ويدعو الله تعالى ثم قاد المعركة في الصباح بنفسه ، وشارك فيها - كما سيأتي - .

* * *

(١) مغازي الواقدي ١/ ٤٩ .

وسيأتي في خبر دعاء النبي صلى الله عليه وسلم الذي أخرجه الإمام البخاري أنه كان في قبة له يوم بدر .

١٧ – مثل من محادة المشركين لله تعالى – (خبرهم مع ابن رحضة الغفاري)

قال ابن إسحاق : وقد كان خُفاف بن أيْماء بن رحضة الغفاريّ ، أو أبوه أيْماء بن رحضة الغفاري ، بعث إلى قريش ، حين مَرّوا به ابنًا له بجزائر أهداها لهم ، وقال : إن أحببتم أن نُمدّكم بسلاح ورجال فَعلنا . قال : فأرسلوا إليه مع ابنه : وَصَلَتْكَ رحم ، قد قضيتَ الذي عليك فَلَعْمري لئن كنّا إنما نُقاتل الناس فما بنا من ضَعْف عنهم ، ولئن كنّا إنما نقاتل الله ، كما يزعم محمّدٌ ، فما لأحد بالله من طاقة (١) .

وهل قال ذلك زعماء المشركين عن اعتقاد قلبي ، أم قالوه للتّقليل من شأن النبي ﷺ وأصحابه ؟ الحقيقة أن أكثرهم كانوا يعلمون صدق النبي ﷺ في دعوته ، وقد سبق بيان تصريح أبي جهل وغيره بذلك ولكن منعهم من الإيمان به الحسد واتباع الهوى المنحرف ، فهم قد خرجوا في ذلك المسير وهم يعلمون بأنهم يحادون الله تعالى بقتال رسوله ﷺ ، ولكنهم لايريدون أن يعترفوا بأن رسول الله ﷺ موصول بربه جل وعلا لأن ذلك يعطيه قوة عظمى وسمعة عالية بين العرب بينما يؤدي ذلك إلى خذلانهم وهبوط سمعتهم الحربية .

* * *

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٣٠٤ .

١٨ – مثل من تسامح النبي ﷺ مع بعض الكفار –
(نفر من الكفار يشربون من حوض المسلمين)

قال ابن إسحاق : فلما نزل الناس أقبل نفرٌ من قريش حتى وَرَدُوا حوض رسول الله ﷺ : فيهم حكيم بن حزام ، فقال رسولُ الله ﷺ : دعوهم . فما شرب منه رجلٌ يومئذ إلا قتل [١] ، إلا ما كان من حكيم بن حزام ، فإنه لم يُقتل ، ثم أسلم بعد ذلك ، فحسُن إسلامه ، فكان إذا اجتهد في يمينه ، قال : لا والذي نجاني من يوم بدر [٢] .

في هذا الخبر مثل من تسامح النبي ﷺ مع الأعداء الذين جاؤوا وهم بحاجة إلى الماء ولم يقوموا بتحدي المسلمين ولم يظهروا غطرسة الكفار وجبروتهم ، فغلب على النبي ﷺ اعتبار جانب الرحمة فسمح لهم بالشرب من ذلك الحوض ، ولم ير مسوغا لمنعهم نكاية بالأعداء لكونهم جاؤوا بصورة الحاجة والاستعطاف .

وماجاء في الخبر من قول حكيم بن حزام رضي الله عنه إذا اجتهد في يمينه « لا والذي نجاني يوم بدر » تصوير للنقلة العظمى التي نقله – وأمثاله – إليها الإسلام .

* * *

(١) يعني في المعركة .

(٢) سيرة ابن هشام ٢ / ٣٠٤ .

١٩ - شهادة للمسلمين من أعدائهم -
(عمير بن وهب يُقدِّر عدد المسلمين واختلافٌ في جيش قريش)

قال ابن إسحاق : وحدثني أبي إسحاق بن يسار وغيرهُ من أهل العلم عن أشياخ من الأنصار ، قالوا : لما اطمأن القوم ، بعثوا عُمير بن وَهْب الجُمَحي فقالوا : احزُرْ لنا أصحاب محمد ، قال : فاستجال بفرسه حول العَسكر ثم رجع إليهم ، فقال : ثلاث مئة رجل ، يزيدون قليلاً أو ينقُصون ، ولكن أملهوني حتى أنظر أللْقَوم كمينٌ أو مَدَد ؟ قال : فضرب في الوادي حتى أبْعد ، فلم يَرَ شيئًا ، فرجع إليهم ، فقال : ما وجدتُ شيئًا ، ولكنّي قد رأيتُ يامعشر قُريش البَلايا تَحْمل المَنايا ، نواضحَ يَثْرب تحمل الموت الناقع (١) قوم ليس معهم مَنعة ولامَلْجأ إلا سيوفهم ، والله ما أرَى أن يُقتل رجلٌ منهم حتى يَقتل رجلاً منكم ، فإذا أصابوا منكم أعدادهم فما خيرُ العيش بعد ذلك ؟ فَرَوْا رأيكم .

وهكذا كان عمير بن وهب ناجحًا في تقديره المقارب لعدد جيش المسلمين ، وفي وصفه البليغ لقوة المسلمين ومدى ثباتهم ، حيث أبان بأنهم ليس معهم من الإبل ما يكفي لفرارهم فيما إذا كانت الدائرة عليهم ، وهذا يعني أنهم سيستميتون في الدفاع عن أنفسهم حتى يَقتُلوا على الأقل عددهم من الكفار ، أو تكون الأخرى حيث ينهزم الكفار أمامهم لشدة ثباتهم ولكون الكفار قد أعد كل واحد منهم نجيبة يفرُّ عليها عند اللزوم ، وزعماء الكفار لايريدون كلا النتيجتين .

هذا مع أن عمير بن وهب آنذاك - كسائر الكفار - لايعتقد أي تفوق معنوي للمسلمين فهو يعتبر الفرد منهم كأي فرد من البشر ، فكيف

---

(١) يعني أن إبل المدينة جاءت تحمل سبب موتنا المحقق .

به لو أدرك بأن الواحد منهم في الطاقة عن عشرة لما يحملونه من إرادة طلب الشهادة حيث يبذلون كل ما لديهم من طاقة في الهجوم ؟ ! .

ثم كيف به فوق ذلك لو أدرك بأنهم موصولون بحبل من الله تعالى وأنهم أهل لأن يمدهم بجنود من ملائكته ؟ ! كيف به وبقومه لو أدركوا ذلك ؟ ! إذًا لفزعوا فزعا يشل حركتهم وينسيهم أوهامهم البالية التي يقدسونها ويقاتلون من أجلها .

ومع غياب هذا التصور فإننا نجد عقلاءهم قد تأثروا ببيان عمير بن وهب فأشاروا بالعودة وترك القتال ، وإلى هذا يشير محمد بن إسحاق رحمه الله تعالى في روايته حيث يقول :

فلما سمع حكيم بن حزام ذلك مشى في الناس ، فأتى عُتبة بن ربيعة ، فقال : يا أبا الوليد ، إنك كبير قُريش وسيِّدُها ، والمطاع فيها ، هل لك إلى أن لاتزال تُذكر فيها بخير إلى آخر الدهر ؟ قال : وماذاك يا حكيم ؟ قال : ترجع بالناس وتحمل أمر حليفك عمرو بن الحضرمي ، قال : قد فعلتُ ، أنت عليَّ بذلك ، إنما هو حليفي ، فعليَّ عقله [1] وما أصيبَ من ماله ، فَأْتِ ابن الحنظليّة [2] ، فإني لا أخشى أن يَشْجُر أمر الناس غيره ، يعني أبا جهل بن هشام ثم قام عُتبة بن ربيعة خطيبًا ، فقال : يامعشر قريش ، إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمداً وأصحابه شيئًا ، والله لئن أصبتموه لايزال الرجلُ ينظر في وجه رجل يكره النظر إليه ، قتل ابن عمه ، أو ابن خاله ، أو رجلاً من عشيرته ، فارجعوا وخلوا بين محمد وبين سائر العرب ، فإن أصابوه فذاك الذي أردتم ، وإن

(١) أي ديته .

(٢) قال ابن هشام : والحنظلية أم أبي جهل .

كان غير ذلك ألفاكم ولم تعرضوا منه ما تريدون .

قال حكيم : فانطلقت حتى جئتُ أبا جهل ، فوجدته قد نَثَل درعا له من جرابها ، فهو يهنئها [1] - فقلت له : يا أبا الحكم إن عُتبة أرسلني إليك بكذا وكذا ، للذي قال ، فقال : انتفخ والله سحره [2] حين رأى محمد وأصحابه ، كلا والله لانرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد ، وما بعُتْبة ما قال ، ولكنه قد رأى أن محمداً وأصحابه أكلة جزُور [3] ، وفيهم ابنُه ، قد تخوَّفكم عليه . ثم بعث إلى عامر بن الحضْرمي ، فقال : هذا حليفُك يريد أن يرجع بالناس ، وقد رأيتَ ثأرك بعينك ، فقُم فانشد خُفْرتك [4] ومَقْتل أخيك .

فقام عامر بن الحضرمي فاكتشف [5] ثم صرخ : واعَمْراه ! واعَمْراه ! فحميت الحربُ ، وحَقب أمرُ الناس [6] ، واستوْثقوا على ماهم عليه من الشرّ ، وأُفسدِ على الناس الرأي الذي دعاهم إليه عُتبة .

فلما بلغ عتبة قول أبي جهل « انتفخ سحره » قال : سيعلم مصفر استه [7] من انتفخ سحره ، أنا أم هو [8] .

---

(١) قال ابن هشام : يهيئها .

(٢) أي جبن وخاف كأن الخوف ملأ جوفه فانتفخ سحره أي رئته .

(٣) يعني لايزيدون على مائة ، وذلك لأن الله تعالى قلل المؤمنين في أعينهم .

(٤) الخفرة : الذمَّة .

(٥) يعني خلع ثيابه .

(٦) أي فسد .

(٧) هذا كناية عن الجبن .

(٨) سيرة ابن هشام ٢/ ٣٠٥ - ٣٠٧ .

وأخرجه الواقدي وذكر نحوه وزاد : فقال - يعني أبا جهل - لعمير ابن وهب : حرِّش بين الناس ، فحمل عمير فناوش المسلمين لأن ينقض الصف ، فثبت المسلمون على صفهم ولم يزولوا ، وتقدم ابن الحضرمي فشد على القوم فنشبت الحرب (١) .

وأخرج نحوه باختصار الحافظ البزار ، ذكر ذلك الحافظ الهيثمي وقال : ورجاله ثقات (٢) .

وهكذا تغلَّب رأي السفهاء الحاقدين الذين غابت عن تفكيرهم جميع مناحي المثل العليا ، ونداءات العقل السليم ، ومَثُلت أمام ناظرهم جوانب الحقد اللئيم ونوازع الانتقام النكد ، فغطت على نداءات العقول ، وشحذت بحرارة ولهيب نداءات العواطف الجامحة ، والأهواء المتأججة ، وكان حامل كبر ذلك طاغية قريش أبو جهل فرعون هذه الأمة .

لقد ورم أنف أبي جهل وساءه أن يرى دولة الإسلام في عز ونهوض ورام من إرادة تقويضها ما الله حائل بينه وبينه ، فأبى أن يُصيخَ سَمْعه لنداء العقل والحكمة الذي أطلقه بعض حكماء قريش كعتبة بن ربيعة وحكيم بن حزام ، ودفعه حقده الأليم إلى إشعال بوادر الحرب وإثارة مهيجاتها ليضيع صوت العقل والحكمة في خضَمِّ العصبية الجاهلية وتلبية النداءات العاطفية الطائشة .

* * *

---

(١) مغازي الواقدي ١/ ٦٥ .

(٢) مجمع الزوائد ٦/ ٧٦ .

٢٠ - مثل من نصر الله تعالى أولياءه -
(تقليل الكفار في أعين المؤمنين)

قال الله تعالى ﴿ **إذ يريكَهُمُ الله في منامك قليلا ولو أراكَهُم كثيرًا لفشلتم ولتنازعتم في الأمر ولكن الله سَلَّم إنه عليم بذات الصدور . وإذ يُريكُمُوهم إذ التقيتم في أعينكم قليلا ويُقَلِّلكم في أعينهم ليقضي الله أمرًا كان مفعولا وإلى الله ترجع الأمور** ﴾ - الأنفال / ٤٣ - ٤٤ - .

فهذه نعمة من الله تعالى على أوليائه المؤمنين ولونٌ من ألوان نصره إياهم ، يقول الإمام ابن جرير في تفسيره الآية الأولى ، يريكهم في نومك قليلا فتخبرهم بذلك ، حتى قويت قلوبهم واجترؤوا على حرب عدوهم ، ولو أراك ربُّك عَدُوَّك وعدوَّهم كثيرًا لفشل أصحابك فجبنوا وخافوا ولم يقدروا على حرب القوم ، ولتنازعوا في ذلك ، ولكن الله سَلَّمهمْ من ذلك بما أراك في منامك من الرؤيا .

ورَوَى في تفسير الآية الثانية بإسناده عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : لقد قُلِّلوا في أعيننا يوم بدر حتى قلت لرجل إلى جنبي : تراهم سبعين ؟ قال : أراهم مئة ، قال : فأسرنا رجلاً منهم فقلنا : كم هم ؟ قال : كنا ألفا (١) .

وقال الحافظ ابن كثير : ومعنى هذا أن الله تعالى أغرى كلاً من الفريقين بالآخر ، وقلّله في عينه ليطمع فيه ، وذلك عند المواجهة ، فلما

---

(١) تفسير الطبري ١٠/ ١٢ - ١٣ .

التحم القتال وأيَّد الله المؤمنين بألف من الملائكة مردفين بقي حزب الكفار يرى حزب الإيمان ضعفَيْه ، كما قال تعالى ﴿ **قد كان لكم آيةٌ في فِئَتين الْتَقَتا فِئَةٌ تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثلَيْهم رأيَ العين والله يؤيِّد بنصره من يشاء إن في ذلك لعِبرةً لِأولي الأبصار** ﴾ آل عمران / ١٣ - .

وهذا هو الجمع بين هاتين الآيتين فإن كلا منهما حق وصدق ولله الحمد والمنة (١) .

فالضمير الأول في (يرونهم) للكفار والثاني للمؤمنين ، أي يرى الكفار المسلمين مثليهم بعد أن التحمت المعركة ، وهذه آية عظيمة لأن عدد المسلمين يبلغ ثلثهم ومع ذلك رأوهم ضعفيهم ، فأما قبل المعركة فإن الله تعالى قللهم في أعين الكفار حتى قال عنهم أبو جهل في خلافه مع عتبة بن ربيعة « ولكن قد رأى أن محمداً وأصحابه أَكَلَة جزور» كما في الموضوع السابق ، والناقة عادة تكفي مائة ، فكانوا يرون المسلمين بهذا القدر لما قللهم الله في أعينهم .

* * *

(١) تفسير ابن كثير ٢/٣٣٨ .

٢١ – موقف جهادي لحمزة بن عبد المطلب – (خبر الأسود المخزومي ومقتله)

قال ابن إسحاق : وقد خرج الأسود بن عبد الأسد المخزومي ، وكان رجلاً شرسًا سيء الخُلق ، فقال : أُعاهد الله لأشربن من حوضهم ، أو لأهدمنه ، أو لأموتن دونه ، فلما خرج خرج إليه حمزةُ بن عبد المطلب ، فلما التقيا ضربه حمزة فأطَنَّ قَدمه بنصف ساقه ، وهو دون الحوض ، فوقع على ظهره تشخُبُ رجله دما نحو أصحابه ، ثم حبا إلى الحوض حتى اقتحم فيه ، يريد زَعَم أن يبرّ يمينه ، وأتبعه حمزةُ فضربه حتى قتله في الحوض [1] .

وهذا أول من قُتل من المشركين بيد أسد الله تعالى حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه ، وقد كان النبي ﷺ قد سمح لطائفة منهم بالاستقاء من حوض المسلمين كما سبق لما كان الدافع لهم هو الحاجة إلى الماء ، فلما جاء هذا اللئيم الشرس يتحدى المسلمين كان له بطل الإسلام حمزة بالمرصاد فقضى عليه ولقّن أمثاله من الحاقدين المتعجرفين درسًا لا يُنسَى .

* * *

(١) سيرة ابن هشام ٢/٣٠٨ .

٢٢ – مواقف بطولية لبعض الصحابه –

(خبر المبارزة بين المسلمين والكفار)

أخرج الواقدي عن شيوخه قالوا : فخرج عُتبة وشيبة والوليد حتى فصلوا من الصفّ ، ثم دعوا إلى المبارزة ، فخرج إليهم فتيانٌ ثلاثةٌ من الأنصار ، وهم بنو عَفْراء ، مُعاذ ومُعوِّذ وعَوْف ، بنو الحارث – ويُقال ثالثهم عبد الله بن رواحة ، والثبت عندنا أنهم بنو عفراء – فاستحيى رسول الله ﷺ من ذلك ، وكره أن يكون أول قتال لقي المسلمون فيه المشركين في الأنصار ، وأحب أن تكون الشوكة لبني عمه وقومه ، فأمرهم فرجعوا إلى مصافّهم ، وقال لهم خيراً . ثم نادى مُنادي المشركين : يامحمّد ، أخْرج لنا الأكفاء من قومنا . فقال لهم رسول الله ﷺ : يابني هاشم ، قوموا فقاتلوا بحقكم الذي بعث الله به نبيكم ، إذ جاءُوا بباطلهم ليُطفئوا نور الله . فقام حمزة بن عبد المطلب . وعليّ ابن أبي طالب . وعُبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف . فمشوا إليهم ، فقال عُتبة : تكلموا نعرفكم – وكان عليم البَيْض فأنكروهم[(١)] فإن كنتم أكفاء قاتلناكم . فقال حمزة : أنا حمزة بن عبد المطلب ، أسد الله وأسد رسوله . قال عُتبة : كفءٌ كريم . ثم قال عُتبة : وأنا أسد الحلفاء ، من هذان معك ؟ قال : عليٌّ بن أبي طالب وعُبيدة بن الحارث . قال : كفآن كريمان .

قال ابن أبي الزناد ، عن أبيه ، قال : لم أسمع لعتبة كلمة قطُّ أوهن

(١) البيض جمع بيضة وهي الخوذة من الحديد التي تقي رأس المقاتل وبعض وجهه .

من قوله « أنا أسد الحلفاء » يعني بالحلفاء الأجَمَة . ثم قال عُتبة لابنه : قم ياوليد . فقام الوليد . وقام إليه عليٌّ ، وكان أصغر النفر ، فقتله عليٌّ عليه السلام . ثم قام عُتبة ، وقام إليه حمزة ، فاختلفا ضربتين فقتله حمزة رضي الله عنه . ثم قام شيبة ، وقام إليه عُبيدة بن الحارث - وهو يومئذ أسّن أصحاب رسول الله ﷺ - فضرب شيبة رجل عُبيدة بذُباب السيف ، فأصاب عَضَلَة ساقه فقطعها ، وكرّ حمزة وعليٌّ على شيبة فقتلاه ، واحتملا عُبيدة فحازاه إلى الصف ، ومُخّ ساقه يسيل ، فقال عُبيدة ، يارسول الله ألستُ شهيدًا ؟ قال : بلى . قال : أما والله ، لو كان أبو طالب حيًا لعلم أنّا أحقُّ بما قاله منه حين يقول :

كذبتم وبيت الله نُخْلي محمدا ... ولمَّا نطاعنْ دونه ونناضل
ونُسلمَه حتى نُصَرَّع حوله ... ونَذْهل عن أبنائنا والحلائل(١)

وأخرجه محمد بن إسحاق وذكر نحوه (٢) .

وكذلك أخرجه الحاكم وذكر نحوه (٣) .

وذكر الحافظ ابن حجر أن هذا الخبر أخرجه الإمام أبو داود من طريق حارثة بن مضرب عن علي رضي الله عنه قال : « تقدم عتبة وتبعه ابنه وأخوه ، فانتدب له شباب من الأنصار ، فقال : لا حاجة لنا فيكم

---

(١) مغازي الواقدي ١/ ٦٨ - ٧٠ .

(٢) سيرة ابن هشام ٢/ ٣٠٩ .

(٣) المستدرك ٣/ ١٨٨ .

إنما أردنا بني عمنا ، فقال رسول الله ﷺ : قم ياحمزة ، قم ياعلي ، قم ياعبيدة ، فأقبل حمزة إلى عتبة ، وأقبلت إلى شيبة ، واختلف بين عبيدة والوليد ضربتان ، فأثخن كل واحد منهما صاحبه ، ثم ملْنا على الوليد فقتلناه واحتملنا عبيدة » .

قال الحافظ ابن حجر : قلت : وهذا أصح الروايات ، لكن الذي في السِّيَر من أن الذي بارزه علي هو الوليد هو المشهور ، وهو اللائق بالمقام لأن عبيدة وشيبة كانا شيخين كعتبة وحمزة ، بخلاف علي والوليد فكانا شابين ، وقد روى الطبراني بإسناد حسن عن علي قال : أعنت أنا وحمزة عبيدة بن الحارث على الوليد بن عتبة فلم يَعب النبي ﷺ ذلك علينا ، وهذا موافق لرواية أبي داود ، والله أعلم [1] .

وهكذا تبين لنا من كلام الحافظ ابن حجر أن أصح الروايات في هذا الموضوع رواية أبي داود التي ساندتها أيضًا رواية الطبراني على أن المبارز لعتبة حمزة ، والمبارز لشيبة علي ، والمبارز للوليد عبيدة ، وانتقد هذه الرواية الصحيحة بمخالفتها لما في كتب السِّير من أن الذي بارزه علي هو الوليد وأن هذا هو المشهور .

وهذا ذهاب من الحافظ ابن حجر - وهو من المحققين - إلى اعتبار قول أهل الاختصاص وتقديمه على أنه مجال من مجالات الترجيح بين الأقوال ، فرواية أبي داود أصح من حيث السند ، وهذه مزية ظاهرة ،

---

(١) فتح الباري ٧ / ٢٩٨ .

ولكن اتفاق المؤرخين على اعتبار أن الذي بارز الوليد بن عتبة هو علي رضي الله عنه يعتبر مزية مقابلة ، وقد يكون الخبر صحيحا من حيث الإسناد ولكن يكون فيه خطأ في المتن ، لكن الحافظ لم يجزم بترجيح أحد القولين بل ذكر مايرجح كل قول وأسند علم ذلك إلى الله تعالى .

وقد اتفقت روايتا الواقدي وابن إسحاق على أن المبارز لعلي هو الوليد بن عتبة ، واختلفتا في المبارزين لحمزة وعبيدة ، فجاء في رواية الواقدي أن المبارز لحمزة هو عتبة بن ربيعة وأن المبارز لعبيدة هو شيبة بن ربيعة ، وجاء في رواية ابن إسحاق أن المبارز لحمزة هو شيبة وأن المبارز لعبيدة هو عتبة ، ولكن رواية الواقدي أرجح في ذلك لأنها تتفق في هذه النقطة مع رواية أبي داود ، ولأن هند بنت عتبة قد حرصت - كما يأتي في أحد - على قتل حمزة ، ولمّا قُتل أكلَتْ من كبده لأنه هو الذي قتل أباها يوم بدر .

هذا ومن المواقف البارزة في هذا الحدث ما كان من تسابق الأنصار الثلاثة إلى مبارزة المشركين ، والمبارزة هي أخطر أنواع الحرب حيث إنها مواجهة لخطر الموت المباشر ، لأن الذين يتقدمون للمبارزة عادة يكونون من الشجعان المعدودين .

وحينما اعترض عتبة بن ربيعة على تقدم هؤلاء وأراد أن يكون المتقدمون من بني عمه بادر النبي ﷺ إلى أمر حمزة بن عبد المطلب وعلي ابن أبي طالب وعبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف بأن يتقدموا لمبارزة المشركين الثلاثة .

وكون النبي ﷺ يقدم ثلاثة من أقاربه الأدنين يعتبر تضحية كبيرة وتوجيها لقادة الدعوة من أمته إلى أن يعتبروا من أهم عوامل نجاحهم أن يكون القائد هو وأقاربه في مقدمة الكفاح والقيام بالمهامّ الشاقة .

وماذكر عبيدة بن الحارث لرسول الله ﷺ من شعر أبي طالب يعتبر نوعا من الوفاء بالعهد الذي أبرمه أبو طالب ، وكأنه يقول : إذا كان أبو طالب - وهو في حال الكفر - قد تعهد بتقديم هذه التضحية فإن المسلمين من قرابة النبي ﷺ أحق منه بتقديم هذه التضحية .

* * *

٢٣ - مثل من عدالة النبي ﷺ
(خبر سواد بن غُزَيَّة)

قال ابن إسحاق وحدثني حبان بن واسع بن حبان عن أشياخ من قومه : أن رسول الله ﷺ عدل صفوف أصحابه يوم بدر ، وفي يده قدْح[١] يعدل به القوم ، فمر بسواد بن غزية ، حليف بن عدي بن النجار[٢] وهو مُستنتل من الصف [٣] فطعن في بطنه بالقدح ، وقال : استو ياسواد ، فقال يارسول الله ﷺ أوجعتني ، وقد بعثك الله بالحق والعدل فأقدْني ، قال فكشف رسول الله ﷺ عن بطنه وقال : اسْتَقدْ ، قال : فاعتنقه فقبل بطنه ، فقال : ما حملك على هذا ياسواد ؟ قال : يارسول الله ، حضر ما ترى فأردتُ أن يكون آخر العهد بك أن يمسّ جلدي جلدك ، فدعا له رسولُ الله ﷺ بخير ، وقالَهُ له [٤] .

وقال الحافظ ابن حجر في ترجمة سواد بن غزية رضي الله عنه : وروى عبد الرزاق عن ابن جريج عن جعفر بن محمد عن أبيه [٥] أن

---

(١) القدح بكسر القاف العصا الصغيرة ، وقد جاء في الرواية التالية أنها كانت من عراجين النخل .

(٢) قال ابن هشام : ويقال : سوّاد (مثقّلة) وسواد في الأنصار غير هذا مخفف .

(٣) أي متقدم عليه ، وقال ابن هشام : ويقال : مستنصل من الصف ، أي خارج منه .

(٤) سيرة ابن هشام ٢/ ٣١٠ .

(٥) هو محمد بن علي بن الحسين الملقب بالباقر .

النبي ﷺ كان يتخطى بعرجون [1] فأصاب به سواد بن غزية الأنصاري . . فذكر القصة [2] .

وهذا الموقف من سواد بن غزيَّة رضي الله عنه يدل على شدة تعلقه برسول الله ﷺ وكَلَفه بمحبته ، وهكذا كان كل الصحابة رضي الله عنهم .

وكون النبي ﷺ كشف بطنه له ليستقيد منه يعتبر مثالا على العدالة الكاملة التي كان يتصف بها رسول الله ﷺ ، وهو في ذلك يعتبر قدوة عليا لجميع الولاة الذين يتولون شيئًا من أمور الأمة في إنصاف أفراد رعيتهم من أنفسهم ، ومن غيرهم من الكبراء من باب أولى .

* * *

---

(١) العرجون هو أصل القنو الذي يكون فيه التمر .

(٢) الإصابة ٢/ ٩٤ رقم ٣٥٨٢ ، وذكره الحافظ الهيثمي وقال : رواه الطبراني ورجاله ثقات - مجمع الزوائد ٢٨٩٦ -

٢٤ - دعاء النبي ﷺ ومناشدته ربه جل وعلا -

قال ابن إسحاق : ثم عدّل رسولُ الله ﷺ الصفوف ، ورجع إلى العريش فدخله ، ومعه فيه أبو بكر الصدّيق ، ليس معه فيه غيره ، ورسولُ الله ﷺ يُناشد ربه ما وَعده من النصر ، ويقول فيما يقول : اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لاتعبد ، وأبو بكر يقول : يانبي الله ، بعض مُناشدتك ربك فإن الله مُنجزٌ لك ما وعدك . وقد خفق رسولُ الله ﷺ خَفْقة (١) وهو في العريش ، ثم انتبه فقال : أبشر يا أبا بكر ، أتاك نصرُ الله هذا جبريل آخذٌ بعنان فرس يقوده ، على ثناياه النقع يعني الغُبار (٢) .

وقد ذكر ابن إسحاق رحمه الله أن النبي ﷺ قال لما رأى جيش الكفار ينحدر من الكثيب الذي جاؤوا منه : اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك ، اللهم فنصرك الذي وعدتني ، اللهم أحنْهم (٣) الغداة (٤) .

وقد أخرج خبر دعاء النبي ﷺ ومناشدته ربه الإمام البخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال وهو في قبة يوم بدر : اللهم إني أنشُدك عهدك ووعدك ، اللهم إن تشأ لاتُعبد بعد اليوم ، فأخذ أبو بكر بيده فقال : حسبك يارسول الله ، ألححت على

(١) أي نام نومة يسيرة .

(٢) سيرة ابن هشام ٢/ ٣١١ .

(٣) أي اهلكهم .

(٤) سيرة ابن هشام ٢/ ٣٠٤ .

ربك ، وهوَ يثبُ في الدرع ، فخرج هو يقول ﴿ سيُهزَمُ الجمع ويُولّون الدُّبُر﴾ - القمر / ٤٥ - (١) .

وأخرج ذلك الإمام مسلم من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : لما كان يوم بدر نظر رسولُ الله ﷺ إلى المشركين وهُم ألفٌ ، وأصحابهُ ثلاثُمائة وتسعة عشر رجُلاً ، فاستقبل نبي الله ﷺ القبلة ، ثم مد يديه فجعل يهتف بربه « اللهُمَّ ! أنجز لي ماوعدتني . اللهُمَّ ! آت ماوعدتني . اللهمَّ ! إن تهلك هذه العصابةُ من أهل الإسلام لاتُعبد في الأرض » فما زال يهتلف بربه ، مادّاً يديه ، مُستقبل القبلة ، حتى سقط رداؤه عن منكبيه ، فأتاهُ أبو بكر . فأخذ رداءه فألقاهُ على منكبيه . ثم التزمه من ورائه . وقال : يانبي الله كفاك مُناشدتك ربك . فإنه سيُنْجزُ لك ما وَعَدك . فأنْزَلَ اللهُ عز وجل ﴿ إذ تستغيثُون ربكُم فاستجابَ لكم أنّي مُمِدُّكُمْ بألفٍ من الملائكة مُرْدفينَ ﴾ (٢) - الأنفال / ٩ - فَأمَدَّهُ اللهُ بالملائكة (٣) .

وقال الصالحي رحمه الله تعالى : وأخرج البيهقي بسند حسن عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : ماسمعت مناشداً ينشد مقالة أشد مناشدة من رسول الله ﷺ لربه يوم بدر ، جعل يقول : « اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك ، اللهم إن تهلك هذه العصابة لاتُعْبَد » ثم التفت

---

(١) صحيح البخاري ، التفسير ، رقم ٤٨٧٥ (٨/ ٦١٩) .

(٢) أي متتابعين .

(٣) صحيح مسلم ، الجهاد ، رقم ١٧٦٣ (ص ١٣٨٤) .

كأن وجهه شقة قمر فقال : « كأنما أنظر إلى مصارع القوم العشية »(١) .

وذكره الحافظ الهيثمي من رواية الإمام الطبراني عن ابن مسعود رضي الله عنه وقال : ورجاله ثقات إلا أن أبا عبيدة لم يسمع من أبيه (٢) .

وذكر الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى هذا الدعاء ثم قال : هكذا حكى السهيلي عن قاسم بن ثابت أن الصديق رضي الله عنه إنما قال : «بعضَ مناشدتك ربك » من باب الإشفاق لما رأى من نصَبه في الدعاء والتضرع ، حتى سقط الرداء عن منكبيه ، فقال : بعضَ هذا يارسول الله ، أي لمَ تُتعب نفسك هذا التعب والله قد وعدك بالنصر ؟ وكان رضي الله عنه رقيق القلب شديد الإشفاق على رسول الله ﷺ .

قال : وحكى السهيلي عن شيخه أبي بكر بن العربي قال : كان رسول الله ﷺ في مقام الخوف ، والصديق في مقام الرجاء ، وكان مقام الخوف في هذا الوقت - يعني أكمل - قال : لأن الله له أن يفعل ما يشاء ، فخاف أن لايُعبد في الأرض بعدها ، فخوفه ذلك عبادة (٣) .

وهكذا كان رسول الله ﷺ مع الله تعالى أولاً وآخرا يستلهم منه النصر والتأييد ، وكان مع ذلك يعمل بجميع الأسباب الممكنة للوصول

---

(١) سبل الهدى والرشاد ٤/ ٣٧ .

(٢) مجمع الزوائد ، وأبو عبيدة هو ابن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

(٣) البداية والنهاية ٣/ ٢٧١ - ٢٧٢ .

إلى النصر ، ولما انتهى من إعداد جيشه رجع إلى العريش يدعو ربه بإلحاح أن ينزِّل نصره على تلك الفئة المؤمنة .

لقد اتصلت قوة الأرض الضعيفه بقوة الله جل وعلا القاهرة العظيمة . فاكتسبت قوة الأرض مددا إلهيا جبارًا ، وأصبحت قوةً عظيمة لايمكن الوقوف في وجهها ، مهما بلغ العَدد ، ومهما كانت العُدَد .

لقد تم ربط حبل متين سام بين السماء والأرض ، طرفه على لسان سيد الأولين والآخرين ﷺ ، وطرفه الآخر عند الله عز وجل . لقد تم هذا الاتصال المباشر بغير الوسائط التي يألفها الناس ، لأن الله جل جلاله قريب من عباده ، وكان توجيه المعركة بيد الله عز وجل ، الذي بيده النصر ، وله العزة والقهر .

وما أروع العباد المؤمنين وهم يستلهمون النصر من الله تعالى ، ويكلُون إليه مصائرهم ، ويعتمدون عليه في جميع أمورهم .

وما أتعس الكافرين وهم يستلهمون النصر من قوى البشر الضعيفة الواهية .

إن مجرد تصور وجود الله عز وجل في المعركة مع المؤمنين بنصره وتأييده ليكسبهم قوة عالية ، ويرفع من كفاءتهم ، مهما كانت ضعيفة في القياس المادي .

وإن تصور ذلك لدى الكافرين ليخلع قلوبهم لو عقلوا ، ويُسلمهم غنيمة للمسلمين من غير بذل جهد كبير .

إن الإنسان المؤمن بالله تعالى وإن طرأت عليه ظروف يكون فيها ضعيفا أو مغلوبا على أمره ، فإن اتصاله الصادق بالله تعالى يجعله أقوى قوة في هذه الأرض ، إنه موصول بحبل الله المتين ، ومن كان الله معه لايمكن أن يُغلب إذا كان صادقا مع الله تعالى .

وكان جواب الله تعالى على ابتهال نبيه ﷺ هو ما نزل في قوله تعالى ﴿ **إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنّي مُمدُّكم بألف من الملائكة مُردفين** ﴾ يعني يتبع بعضهم بعضا ، والله جل وعلا قادر على أن ينصر نبيه ﷺ بغير واسطة الملائكة ، ولكنه جل وعلا أراد أن يبشر أولياءه بنصره ، وأن يُطمئن قلوبهم ، قال تعالى ﴿ **وما جعله الله إلا بشرى ولتَطْمَئِنَّ به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم** ﴾ .

ولقد أنزل الله تعالى ملائكته بقيادة جبريل عليهم السلام فخرج النبي ﷺ من العريش وهو يقول : ﴿ **سيُهزم الجَمْعُ ويولُّون الدُّبُر** ﴾ ، ويقول : هنا مصرع فلان ، وهنا مصرع فلان ، لأناس سماهم من صناديد قريش ، فما جاوزوا المكان الذي حدده رسول الله ﷺ .

* * *

٢٥ - مثل من الشوق العظيم للجنة -
(خبر عمير بن الحمام ورغبته في الشهادة)

أخرج الإمام مسلم من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه في سياقه لغزوة بدر أن النبي ﷺ قال : « قُومُوا إلى جنة عرضُها السماوات والأرض » قال : يقولُ عمير بن الحمام الأنصاري : يارسول الله ! جنة عرضها السماوات والأرض ؟ قال : « نعم » قال : بخ بخ (١) .

فقال رسول الله ﷺ « ما يحملكُ على قولك بخ بخ » قال : لا والله يارسول الله إلا رجاءة (٢) أن أكون من أهلها . قال « فإنك من أهلها» فأخرج تمرات من قرنه (٣) . فجعل يأكلُ منهن . ثم قال : لئن أنا حييتُ حتى آكل تمراتي هذه ، إنها لحياةٌ طويلة . قال فرمى بما كان معه من التمر . ثم قاتلهم حتى قتل (٤) .

في هذا الخبر نجد مثلاً عاليًا من قوة ارتباط النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم بالجنة ، فالرسول ﷺ يَعدُ الشهداء بالجنة ، والمؤمنون يتسابقون إلى الشهادة حرصا على الظفر بالجنة .

---

(١) أي عظيم عظيم فهي كلمة تطلق لتفخيم الأمر .

(٢) وفي رواية رجاء وهما بمعنى واحد .

(٣) أي جعبة النشاب .

(٤) صحيح مسلم ، الإمارة رقم ١٩٠١ (ص ١٥١٠) .

وأخرجه أبو عبد الله الحاكم بنحوه وصححه على شرط مسلم وأقره الذهبي - المستدرك ٣/ ٤٢٦ - .

وأخرجه ابن إسحاق بنحوه سيرة ابن هشام ٢/ ٣١٢ .

ونجد عمير بن الحمام يبلغ به حرصه على الجنة إلى أن يرمي التمرات من يده ، وأنْ يرى أنَّ وقت أكلها وقت طويل ، لأنه يفصل بينه وبين دخول الجنة ، وإنْ كان ذلك الوقت في عرف الناس قصيراً .

لقد كان الشعور القوي بالحياة الآخرة متمثلاً في حياة الصحابة رضي الله عنهم ، فكانت قلوبهم عامرة بالخوف من النار والشوق إلى الجنة ، وكان تردد خواطرهم بين مقامي الخوف والرجاء حافزًا قويًا على تقوى الله تعالى والزهد في الحياة الدنيا والتسابق في ميادين الجهاد في سبيل الله تعالى .

* * *

٢٦ - مثل من الشوق إلى رضوان الله تعالى - (خبر عوف بن الحارث)

قال ابن إسحاق : وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة أن عوف بن الحارث ، وهو ابن عفراء ، قال : يارسول الله ، ما يُضحك الرب من عبده ؟ قال : غمْسهُ يده في العدو حاسراً (١) ، فنزع درعًا كانت عليه فقذفها ، ثم أخذ سيفه فقاتل القوم حتى قُتل (٢) .

وهذا مثل آخر من اهتمام الصحابة رضي الله عنهم بالحياة الآخرة ، يتمثل في طلب مواطن رضوان الله تعالى ، يُقَدِّمه عوف بن مالك الأنصاري رضي الله عنه حيث يسأل رسول الله ﷺ عن الموطن الذي يبلغ فيه الدرجات العلى من رضوان الله تعالى ، فيأتي جواب النبي ﷺ بأنه يكون في إقحام النفس في المغامرات المهلكة طلبا للشهادة ، ومن ذلك أن ينطلق المجاهد في نحر العدو كالسَّهم الحديد الذي لاتحول العوائق دون بلوغه هدفه ، وهو حاسر غير متدرع بما يقيه من سلاح الأعداء .

ومثل هذا يغلب على الظن وقوعه شهيدا في ساحة الأعداء ، ولكن بعد أن يُثخن فيهم قتلا ، لأن النفوس التي لاتؤمن بالآخرة يفرُّ أصحابها من الشجعان المغاوير ، خاصة الحُسَّر من الدروع ، لأن رمي الدرع يعتبر علامة على الاستقتال وطلب الموت ، ومن كان كذلك فإن مواجهته تعتبر من الخطر الذي يحذر منه .

---

(١) يعني غير لابس للدرع .

(٢) سيرة ابن هشام ٢/ ٣١٢ .

٢٧ – استفتاح أبي جهل ومافيه من العبر –

قال ابن إسحاق : وحدثني محمد بن مُسْلم بن شهاب الزهري ، عن عبد الله بن ثعلبة بن صعير العُذري ، حليف بني زهرة ، أنه حدّثه : أنه لما التقى الناسُ ودنا بعضهم من بعض ، قال أبو جهل بن هشام : اللهم أقْطَعنَا للرحم ، وآتانا بما لايُعْرف ، فأحنْه الغداةَ [1] ، فكان هو المُسْتَفْتح [2] .

وأخرجه الإمام أحمد والحاكم من حديث الإمام الزهري عن عبد الله بن ثعلبة بن صُعَير أن أبا جهل حين التقى القوم قال : اللهم أيُّنا كان أقطع للرحم ، وآتانا بما لانعرف فأحنْه الغداة ، فكان ذلك استفتاحه فأنزل الله تعالى ﴿ **إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح وإن تنتهوا فهو خير لكم وإن تعودوا نَعُدْ ولن تغني عنكم فِئتكم شيئًا ولو كثُرَتْ وإنَّ الله مع المؤمنين** ﴾ [3] .

وقال الحاكم : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه وأقره الذهبي [4] .

من الغريب جدًا أن يدعو أبو جهل بهذا الدعاء وهو يشرك بالله تعالى ويحارب دعوة التوحيد ، فهل كان حين دعا صادقًا في دعوته ،

---

(١) أي اهلكه أول النهار .

(٢) أي الحاكم على نفسه .

(٣) الأنفال / ١٩ .

(٤) الفتح الرباني ٢١ / ٤٤ ، المستدرك ٢/ ٣٢٨ .

وأنه يعتقد بأنه وحزبه أقرب إلى رضوان الله تعالى من رسوله ﷺ وأوليائه المؤمنين ؟ ! .

الواقع أن أبا جهل قد صرح قديمًا بأن محمدًا ﷺ رسول من عند الله حقا ، وأن الذي منعه من الإيمان به حسدُه لبني عبد مناف حيث قال في تسويغ كفره بالنبي ﷺ : تنازعْنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ، أطعموا فأطعمنا وحملوا فحملنا وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تحاذينا على الرُّكب وكنا كفرسيْ رهان قالوا : منَّا نبي يأتيه الوحي من السماء فمتى ندرك مثل هذه ؟ (1) .

ولكن الدافع لأبي جهل في دعائه هذا سياسي ، وذلك أنه أراد كسب الموقف بمحاولة تقوية معنوية جيش قريش ، حيث إن فيهم من يميل إلى تصديق النبي ﷺ والاعتقاد بأنه منصور من الله تعالى ، فدعا بهذا الدعاء تبجُّحًا ليُثبت لهؤلاء بأن محمدًا ﷺ ليس بأقرب منهم إلى الله تعالى .

وهكذا الكفار في كل زمن يرفعون عقيرتهم عند الضرورة بدعوى القرب من الله تعالى ليُؤَثِّروا على البسطاء والسذَّج ، وليسحبوا البساط من تحت أرجل المؤمنين ، ولكن الحق واضح لكل ذي فهم ثاقب وبصيرة مدركة ، إذا تجرد من الهوى المنحرف .

* * *

---

(1) انظر الجزء الأول ص ١١٤ .

٢٨ - مثل من نصر الله تعالى أولياءه -

أخرج الإمام الطبراني من حديث ابن عباس رضي الله عنهما : أن النبي ﷺ قال لعلي رضي الله عنه : ناولني كفًا من حصى ، فناوله فرمى به وجوه القوم ، فما بقي أحد من القوم إلا امتلأت عيناه من الحصباء ، فنزلت ﴿ **ومارميتَ إذ رميتَ ولكن الله رَمَى** ﴾ - الأنفال / ١٧ - .

ذكره الهيثمي وقال : ورجاله رجال الصحيح ، وذكر روايتين عن الطبراني من حديث حكيم بن حزام وحسَّن إسنادهما [١] .

وهذا مثل من نصر الله تعالى لرسوله ﷺ ولعباده المؤمنين ، كما أنه معجزة من معجزات النبي ﷺ حيث وصل كف الحصباء إلى عيون جميع الكفار .

* * *

(١) مجمع الزوائد ٦/ ٨٤ .

٢٩ - مثل من الوفاء لأهل الفضل - (رسول الله ﷺ ينهى عن قتل أبي البَخْتَريّ)

ذكر ابن إسحاق خبر نهي النبي ﷺ من قتل عدد من المشركين منهم أبو البختري العاص بن هشام بن الحارث بن أسد ثم قال : وإنما نهى رسولُ الله ﷺ عن قتل أبي البَخْتَريّ لأنه كان أكفَّ القوم عن رسول الله ﷺ وهو بمكة ، وكان لايؤذيه ، ولايبلُغه عنه شيء يكرهه ، وكان ممن قام في نقض الصحيفة التي كتبت قريشُ على بني هاشم وبني المطلب . فلقيه المُجذَّر بن ذياد البلَوي ، حليف الأنصار ، ثم من بني سالم بن عوف ، فقال المجذَّر لأبي البختريّ : إن رسول الله ﷺ قد نهانا عن قتلك - ومع أبي البختري زميل له ، قد خرج معه من مكة ، وهو جُنادة ابن مُلَيْحة بنت زُهير بن الحارث بن أسد ، وجُنادة رجلٌ من بني ليث . واسمُ أبي البختري العاص - قال : وزميلي ؟ فقال له المُجذّر : لا والله ، ما نحن بتاركي زميلك ، ما أمرنا رسول الله ﷺ إلا بك وحدك ، فقال : لا والله ، إذن لأموتَن أنا وهو جميعًا ، لاتتحدَّث عني نساء مكة أني تركت زميلي حرْصًا على الحياة ، فقال أبو البختري - حين نازله المجذّر وأبى إلا القتال - يرتجز :

لن يُسْلم ابنُ حُرّة زميلَهْ حتى يموت أو يرى سَبيلَهْ

فاقتتلا فقتله المجذّرُ بن ذياد وقال المجذر بن ذياد في قتله أبا البختري :

إمّا جهلت أو نَسيتَ نَسَبي فَأثْبت النِّسبة أني من بَلي (١)

(١) بليٌّ بطن من قبيلة قضاعة .

الطّاعنين برماح اليَزَني والضاربين الكبْش حتى يَنْحني (١)
بَشِّر بيُتْم من أبيه البَخْتَري أو بَشِّرنْ بمثلها منّي بَنيّ
أنا الذي يُقال أصْلي من بَلي أطعنُ بالصَّعدة حتى تَنْثَني (٢)
وأعْبطُ القرْن بعَضْب مَشْرَفي (٣) أرْزمُ للموت كإرزام المري(٤)
فلا ترى مجذَّراً يفري فَريّ(٥)

قال ابن إسحاق : ثم إن المجذر أتى رسول الله ﷺ ، فقال : والذي بعثك بالحق لقد جهدتُ عليه أن يستأسر فآتيكَ به فأبى إلا أن يُقاتلني ، فقاتلتهُ فقتلتُه (٦) .

في هذا الخبر نلاحظ مثلاً من الوفاء لأهل الفضل والمعروف وإن

(١) قوله اليزني نسبة إلى ذي يزن وهو والد سيف بن ذي يزن المشهور والكبش المراد به رئيس القوم وأميرهم .

(٢) الصعدة القناة المستوية .

(٣) أي أقتل المنازل في الحرب بالسيف القاطع .

(٤) أي أشتد للموت ، وقال ابن هشام : « المري » من غير ابن إسحاق ، والمري الناقة التي يُستنزل لبنها على عسر .

(٥) أي لا يأتي أحد بمثل عمله .

(٦) سيرة ابن هشام ٢/ ٣١٤ - ٣١٦ .

وأخرجه الإمام الطبري من طريق ابن إسحاق بهذا الإسناد - تاريخ الطبري ٢/ ٤٤٩-٤٥١ .

وذكره الحافظ ابن كثير من رواية ابن إسحاق بهذا الإسناد - البداية والنهاية ٣/ ٢٨٤-٢٨٥ .

وأشار الحافظ ابن حجر إلى هذه الرواية في ترجمة المجذر ، وأشار إلى روايتين لابن إسحاق من طريق زهري ومن طريق عروة وغيرهما - الإصابة ٣/ ٣٦٣ .

كانوا كافرين ، فقد نهى النبي ﷺ عن قتل أبي البختري العاص بن هشام مكافأة له على ما سبق منه من مواقف حميدة في مكة أيام ضعف المسلمين ، حيث كان من أبرز فريق أهل الاعتدال من الكفار الذين قاموا بنقض صحيفة البغي والعدوان ، وقد سبق بيان موقفه مع أبي جهل حينما آذى رسول الله ﷺ فقام أبو البختري معه وسب أبا جهل وضربه .

وفي هذا الخبر يبين لنا رسول الله ﷺ أهمية مكافأة أهل الفضل وردّ الجميل إليهم وإن كانوا كافرين .

وهو موقف للمجذّر بن ذياد البلوي رضي الله عنه الذي حفظ وصية النبي ﷺ بذلك الرجل فحاول به أن يستأسر حتى يحقن دمه ، ولكن اضطر إلى أن يقتله حينما أصر على القتال .

والخبر يظهر لنا إلى جانب ذلك صورة من شجاعة المجذر الذي استطاع قتل أبي البختري وزميله الذي من أجله ثبت أبو البختري ورفض الاستسلام .

كما يظهر لنا براعة المجذر في شعر الرجز الحربي الحماسي البليغ ، وقد كانوا يستعينون بذلك الرجز على استنهاض الهمم وكسر شوكة العدو ، وقد اشتمل ذلك الرجز على شيء من الافتخار بالنفس وهذا لايصدر من الصحابة رضي الله عنهم إلا في حال الحرب ، وقد أقره النبي ﷺ لما فيه من تقوية المسلمين وإضعاف الكافرين .

* * *

٣٠ - مشاركة الملائكة يوم بدر وما في ذلك من العبر -

مشاركة الملائكة يوم بدر مع المؤمنين مقطوع بها لما نزل في ذلك من الآيات القرآنية وذلك في قول الله تعالى ﴿ **ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون . إذ تقول للمؤمنين ألَنْ يكفيكم أن يُمدَّكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة مُنْزَلين . بَلَى إن تصبروا وتَتَّقُوا ويأتوكم من فَوْرِهم هذا يُمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مُسَوِّمين . وماجعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئنَّ قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم** ﴾ - آل عمران / ١٢٣ - ١٢٦ - . وقوله تعالى ﴿ **إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني مُمدُّكم بألف من الملائكة مُردِفين . وماجعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم** ﴾ - الأنفال / ٩-١٠ - وقوله تعالى ﴿ **إذ يوحي ربك إلى الملائكة أنّي معكم فثَبِّتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان** ﴾ -الأنفال / ١٢- وهذه الآية تفيد أن الملائكة عليهم السلام شاركوا في القتال نفسه إلى جانب ماقاموا به من تثبيت المؤمنين وطمأنة قلوبهم .

أما أخبار السيرة فقد رُويتْ في ذلك مجموعة من الأحاديث ، وسأكتفي بذكر ثلاثة أحاديث صحيحة ، أولها مارواه الإمام البخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما « أن النبي ﷺ قال يوم بدر : هذا جبريل آخذ برأس فرسه عليه أداة الحرب »[1] .

---

(١) صحيح البخاري ، المغازي ، رقم ٣٩٩٥ (٧/ ٣١٢) .

وثانيها مارواه الإمام مسلم بإسناده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال :

بينما رجلٌ من المسلمين يومئذ يشتدُّ في أثر رجل من المشركين أمامه . إذ سمع ضربة بالسوط فوقه . وصوت الفارس يقول : أَقْدِمْ حيزُومُ[(١)] . فنظر إلى المُشرك أمامهُ فخرَّ مستلقيًا . فنظر إليه فإذا هو قد خُطِمَ أنفهُ ، وشُقَّ وجهُهُ كضربة السوط . فاخضرَّ ذلك أجمعُ . فجاءَ الأنصاري فحدث بذلك رسول الله ﷺ . فقال « صدقت . ذلك من مدد السماء الثالثة » فقتلوا يومئذ سبعين . وأسروا سبعين [(٢)] .

وثالثها ما أخرجه الإمامان أحمد والبزار من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه في قصة بدر وقد جاء فيه : فجاء رجل من الأنصار بالعباس بن عبد المطلب أسيرا ، فقال العباس : يارسول الله إن هذا والله ما أسرني ، أسرني رجل أجلح من أحسن الناس وجها على فرس أبلق ، ما أراه في القوم ، فقال الأنصاري : أنا أسرته يارسول الله ، فقال : اسكت فقد أيدك الله بملك كريم .

ذكره الحافظ الهيثمي وقال : رواه أحمد والبزار ، ورجال أحمد رجال الصحيح غير حارثة بن مَضْربَ وهو ثقة ، وذكره أيضًا من رواية الإمام أحمد وقال : ورجاله رجال الصحيح [(٣)] .

---

(١) اسم فرس الملك .

(٢) صحيح مسلم رقم ١٧٦٣ (ص ١٣٨٤) .

(٣) مجمع الزوائد ٦/ ٧٦ ، ٨٥ .

إن إنزال الملائكة عليهم السلام من السموات العُلَى إلى الأرض لنصر المؤمنين حدث عظيم .

إنه قوة عظمى ، وثبات راسخ للمؤمنين حينما يوقنون بأنهم ليسوا وحدهم في الميدان ، وأنهم إذا حققوا أسباب النصر واجتنبوا موانعه فإنهم أهل لمدد السماء ، وهذا الشعور يعطيهم جرأة على مقابلة الأعداء وإن كان ذلك على سبيل المغامرة ، لبُعْد التكافؤ المادي بين جيش الكفار الكبير عدداً القوي إعداداً ، وجيش المؤمنين القليل عدداً الضعيف إعداداً .

وهو في نفس الوقت عامل قوي في تحطيم معنوية الكفار وزعزعة يقينهم ، وذلك حينما يشيع في صفوفهم احتمال تكرر نزول الملائكة الذين شاهدهم بعضهم عيانا .

إنهم مهما قدَّروا قوة المسلمين وعددهم فإنه سيبقى في وجدانهم رعب مزلزل من احتمال مشاركة قُوًى غير منظورة ، لايعلمون عددها ولايقدِّرون مدى قوتها .

ولقد رافق هذا الشعور المؤمنين في كل حروبهم التي خاضها الصحابة رضي الله عنهم في العهد النبوي وفي عهد الخلفاء الراشدين ، كما رافق بعض المؤمنين بعد ذلك ، فكان عاملاً قويا في انتصاراتهم المتكررة الحاسمة مع أعدائهم .

* * *

٣١ - إبليس يَخْذل المشركين -

تقدم أن إبليس - لعنه الله - ظهر للمشركين بصورة سراقة بن مالك المدلجي وقال لهم حينما خافوا أعداءهم على ذراريهم : أنا جار لكم من أن تأتيكم كنانة من خلفكم بشيء تكرهونه .

وقد استمر إبليس يسير معهم وهو متلبِّس بصورة هذا الزعيم القَبَلي الشجاع ليقويهم ويشد من عزمهم على القتال ، وقد أخرج خبره بعد ذلك الإمام الطبراني من حديث رفاعة بن رافع ، قال : لما رأى إبليس ما فعل الملائكة بالمشركين يوم بدر أشفق أن يُخلَص إليه ، فتشبَّث به الحارث ابن هشام وهو يظن أنه سراقة بن مالك ، فوكز في صدر الحارث ثم خرج هاربًا حتى ألقى نفسه في البحر ورفع يديه فقال : اللهم إني أسألك نظرتك إياي وخاف أن يخلص القتل إليه .

وأقبل أبو جهل فقال يامعشر الناس لايهولَنَّكم خذلان سراقة بن مالك فإنه كان على ميعاد من محمد ، ولايهولنكم قتل شيبة وعتبة والوليد فإنهم عجلوا ، فو اللات والعزى لانرجع حتى نقرنهم بالحبال ، فلا ألفينَّ رجلا منكم قتل رجلا ولكن خذوهم أخذًا حتى تعرفوهم سوء صنيعهم من مفارقتهم إياكم ورغبتهم عن اللات والعزى . ثم قال أبو جهل متمثلاً :

ما تنقمُ الحربُ الشموسُ مني بازلُ عامين حديثٌ سنِّي

لمثل هذا ولدتني أمي

ذكره الحافظ ابن كثير[1] .

---

(١) البداية والنهاية ٣/ ٢٨٣ .

وهكذا خدع إبليس أولياءه الكافرين ، فدفعهم إلى المعركة ، وحلَّ لهم مشكلة كانت عائقا لهم عن الإقدام ليصل بهم إلى ما كان يريد الوصول إليه من القضاء على الإسلام ، فالكفار جميعا من جند إبليس يسخِّرهم لصد دعوة الحق ، إما بالوسوسة وهو الغالب وإما بأن يتمثل لهم بصورة بشر يعرفونهم ويعرفون مكانتهم ووزن الكلام الذي يقولونه كما في هذا الخبر ، وإما في صورة رجل مجهول يمنحهم التأييد والمشورة .

ولكن إبليس - لعنه الله - لم يستطع إكمال أدوار الخداع وذلك لمَّا رأى الملائكة عليهم السلام ، وقد نزلوا من السماء لنصر المؤمنين وتأييدهم ، فخشي أن يصلوا إليه ، وولَّى هاربا .

وهكذا يُبْنَى الباطل على أوهى من خيوط العنكبوت ، حتى إذا ظهر جنود الإيمان وحققوا لأنفسهم شروط النصر والتمكين تداعت قواعد بنيان الباطل ، فخرَّ على أهله ، ثم كشف لهم بعد ذلك أن تدبيرهم كان تدميراً لهم ، وأنهم قد صنعوا بمخططاتهم نهايتهم .

وقام أبو جهل يلملم خيوط العنكبوت التي تمزقت فيحاول تثبيت الكفار ، فحكم على فرار الشيطان - الذي مازالوا يعتقدون بأنه سراقة ابن مالك - بأن ذلك كان على اتفاق بينه وبين المسلمين ، وأن قتْلَ ثلاثة من زعمائهم كان بسبب استعجالهم ، وكان قادراً على أن يشير عليهم قبل ذلك بالتريُّث .

ويصل به حقده وغروره إلى أن يشير على قومه بأن لايقتلوا المسلمين قتلا وأن يأخذوهم أسرى ليذلوهم ويُجبروهم على ترك معتقدهم .

ويشاء الله تعالى خلاف مايريد هذا الطاغية ، فتدور الدائرة عليه وعلى جيشه ، ويَقْتُل منهم المسلمون طائفة ويأسرون طائفة ويشرِّدون بقيتهم .

ولقد ذكر الله سبحانه وتعالى موقف إبليس هذا منهم في بدايته ونهايته حيث يقول جل وعلا ﴿ **وإذ زيَّن لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جَارٌ لكم فلما تراءت الفئتان نكص على عَقِبَيْه وقال إني بريء منكم إني أرى ما لاترون إني أخاف الله والله شديد العقاب** ﴾ - الأنفال / ٤٨ - .

وقد جاء عن حبر الأمة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في تفسير الآية ما يوافق الخبر السابق الذي أخرجه الإمام الطبراني وذلك فيما رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : جاء إبليس يوم بدر في جند من الشياطين معه رايته ، في صورة رجل من بني مدلج في صورة سراقة بن مالك بن جعشم ، فقال الشيطان للمشركين : لاغالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم ، فلما اصطف الناس أخذ رسول الله ﷺ قبضة من التراب فرمى بها في وجوه المشركين ، فولوا

مدبرين ، وأقبل جبريل عليه السلام إلى إبليس ، فلما رآه وكانت يده في يد رجل من المشركين ، انتزع يده ثم ولى مدبراً وشيعته ، فقال الرجل : ياسراقة أتزعم أنك لنا جار ؟ فقال : إني أرى ما لاترون إني أخاف الله والله شديد العقاب ، وذلك حين رأى الملائكة [1] .

* * *

(١) تفسير ابن كثير ٢/ ٣٤٠ ، وهذا الخبر من صحيفة علي بن أبي طلحة وإسنادها صحيح إلى ابن عباس رضي الله عنهما .

٣٢ – مقتل أمية بن خلف ومافيه من مواقف وعبر –

قال ابن إسحاق : حدثني يحيى بن عبّاد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه ، قال ابن إسحاق : وحدّثنيه أيضًا عبد الله بن أبي بكر وغيرهما عن عبد الرحمن بن عوف ، قال : كان أمية بن خلف لي صديقًا بمكة ، وكان اسمي عبدَ عمرو ، فتسمَّيت – حين أسلمتُ – عبدَ الرحمن ، ونحن بمكة ، فكان يَلْقاني إذ نحن بمكة فيقول : ياعبد عمرو ، أرغبتَ عن اسم سمّاكَه أبواك ؟ فأقول : نعم ، فيقول : فإني لا أعرف الرحمن ، فاجعل بيني وبينك شيئًا أدعوك به ، أمّا أنت فلا تُجيبني باسمك الأول ، وأما أنا فلا أدعوك بما لا أعرف ! قال : فكان إذا دعاني : ياعبد عمرو ، لم أُجبْهُ . قال فقلت له : يا أبا علي ، اجعل ماشئت ، قال : فأنت عبدُ الإله ، قال : فقلت : نعم ، قال : فكنت إذا مررت به قال : ياعبد الإله ، فأجيبه ، فأتحدث معه . حتى إذا كان يوم بدر ، مررت به وهو واقف مع ابنه علي بن أمية ، آخذ بيده ، ومعي أدراع ، قد استَلبتُها ، فأنا أحملها ، فلما رآني قال لي : ياعبد عمرو فلم أجبه ، فقال ياعبد الإله ! فقلت : نعم ، قال هل لك فيّ فأنا خيرٌ لك من هذه الأدراع التي معك قال قلت : نعم ها الله إذًا[١] قال : فطرحت الأدراع من يدي ، وأخذتُ بيده ويد ابنه ، وهو يقول : ما رأيت كاليوم قط ، أما لكم حاجةٌ في اللبن ؟ قال ثم خرجت أمشي بهما .

قال ابن هشام : يريد باللَّبن أن مَنْ أسرني افتديتُ منه بإبل كثيرة اللبن .

(١) أي والله فحذف واو القسم ووضع مكانها الهاء تسهيلا .

قال ابن إسحاق : حدثني عبدُ الواحد بن أبي عون عن سعيد بن إبراهيم عن أبيه عن عبد الرحمن بن عوف قال : قال لي أمية بن خلف ، وأنا بينه وبين ابنه ، آخذٌ بأيديهما : ياعبد الإله ، من الرجُل منكم المُعْلَم بريشة نعامة في صدره ؟ قال : قلت : ذاك حمزة بن عبد المطلب ، قال : ذاك الذي فعل بنا الأفاعيل .

قال عبد الرحمن : فو الله إني لأقودهما إذ رآه بلالٌ معي - وكان هو الذي يعذِّب بلالاً بمكة على ترك الإسلام فيُخرجه إلى رَمْضاء مكة إذا حميت ، فيُضْجعه على ظهره ، ثم يأمر بالصّخرة العظيمة فتُوضع على صدره ، ثم يقول : لاتزال هكذا أو تفارق دين محمد ، فيقول بلال : أحدٌ أحد . قال : فلما رآه قال : رأس الكُفر أُمية بن خلف ، لانجوت إن نجا . قال : قلت : أي بلال ، أبأسيرَيَّ ! قال : لانجوت إن نجا . قال قلت : أتسمع يابن السّوْداء قال : لانجوت إن نجا .

قال : ثم صرخ بأعلى صوته ، يا أنصار الله ، رأس الكفر أُمية بن خلف ، لانجوت إن نجا . قال : فأحاطوا بنا حتى جعلونا في مثل المَسكة [1] وأنا أذبُّ عنه . قال : فأخلف رجلٌ السيف ، فضرب رجلَ ابنه فوقع ، وصاح أمية صيحة ماسمعتُ مثلها قط . قال : فقلت انجُ بنفسك ، ولانجاء بك ، فو الله ما أُغني عنك شيئًا . قال : فهبَّروُهما بأسيافهم ، حتى فرغوا منهما . قال : فكان عبد الرحمن يقول : يرحم الله بلالاً ، ذهبت أدْراعي وفَجَعني بأسيرَيَّ [2] .

---

(١) يعني في مثل السوار أو الخلخال .

(٢) سيرة ابن هشام ٢/ ٣١٦ - ٣١٨ ، وأخرجه الإمام البخاري مختصرا من حديث عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه رقم ٢٣٠١ (٤٤/ ٤٨٠) .

في هذا الخبر مواقف وعبر فمن ذلك :

أولاً : ما جاء فيه من الشهادة بشجاعة حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه ، وقد جاءت هذه الشهادة من أحد زعماء الكفار أمية بن خلف حيث قال عن حمزة « ذاك الذي فعل بنا الأفاعيل » وهذا يعني أنه رضي الله عنه قد فتك بجيش الأعداء حتى أثخن فيهم قتلا وتشريدا .

ثانيًا : ما جرى من بلال رضي الله عنه حينما رأى عدوه اللدود أمية بن خلف الذي كان يسومه أقسى وأعنف أنواع العذاب في مكة ، فلما رآه في يد عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه أسيرًا صرخ بأعلى صوته « لانجوت إن نجا » .

إنه موقف من مواقف التَّشَفِّي من أعداء الله ، والتشفي من عتاة الأعداء في الحياة الدنيا نعمة يفرِّج الله بها عن المكروبين من المؤمنين الذين ذاقوا الذل والهوان على أيدي أولئك الطغاة ، يقول الله تبارك وتعالى في هذا المعنى ﴿ **قاتلوهم يُعَذِّبهم الله بأيديكم ويُخْزهم وينصركم عليهم وَيشْفِ صدور قوم مؤمنين . ويُذْهِبْ غيظ قلوبهم** ﴾ - التوبة / ١٤ - ١٥ .

وإن فيما جرى لأمية بن خلف من ذلك المصير المفزع عبرة للمعتبرين ودرسًا بليغًا للطغاة المتجبِّرين ، الذين يغترون بقوتهم وينخدعون بجاههم ومكانتهم ، فيعتدون على الضعفاء ويسلبونهم حقوقهم ، وإن ما يحسُّون به في أثناء ممارسة عدوانهم من فرح ونشوة

ستكون عاقبته وخيمة عليهم في الآخرة ، وقد يصابون بالمصير المخزي في الدنيا قبل الآخرة كما جرى لأمية بن خلف وأمثاله من طغاة الكفار .

ثالثًا : موقف لعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه حيث ترحَّم على بلال رضي الله عنه مع ماجرى منه من معارضته وانتزاع الأسيرين من يده بقوة الأنصار الذين استنجد بهم رضي الله عنهم ، أما ماتفوَّه به من مناداة بلال بقوله « أتسمع يابن السوداء » فإن ذلك كان في ساعة غضب ، ولهذا لم يؤاخذه بلال على ذلك .

* * *

٣٣ - موقف لأم صفوان بن أمية -

قال الواقدي : فحدّثني محمّد بن قُدامة ، عن أبيه ، عن عائشة بنت قُدامة ، قالت : قيل لأُم صفوان بن أمية - ونَظَرَتْ إلى الُحباب بن الُمنذر بمكة - : هذا الذي قطع رجْل عليّ بن أمية يوم بدر . قالت : دعونا مــن ذكر مَـن قُتل على الشرك ! قد أهان الله عَليًا بضـربة الُحبـاب بن الُمنذر ، وأكرم الله الُحباب بضربه عَليًا ، قد كان على الإسلام حين خرج من هَاهنا ، فقُتل على غير ذلك [١] .

وهذا مــوقف جليل من هذه المرأة المؤمنة يدل على قــوة إيمانهــا ورسوخ يقينها حيث اتضحت لها عقيدة الولاء والبراء ، فأصبحت تحب المسلمين وإن كانوا من غير قبيلتها وتكره الكافرين وإن كانوا من أبنائها .

وقولهـا عن ابنها علي « قـد كـان على الإسـلام حين خـرج من ههنا فقُتل على غير ذلك » تعني أنه كان ممن عُرف عنهم الإسلام بمكة وخرجوا مع قـومـهم يوم بدر مكرهين فلمـا التـقى الـصفـان فـتنوا حينمـا رأوا قلة المسلمين فقـالوا : قد غر هؤلاء دينهم ، فنزل فيهم قـول الله تعالى ﴿ **إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض غَرَّ هؤلاء دينهم ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم** ﴾ - الأنفال / ٤٩ - [٢] .

---

(١) مغازي الواقدي ١/ ٨٥ .

(٢) تفسير الطبري ١٠/ ٢١ ، سيرة ابن هشام ٢/ ٢٣٠ .

٣٤ - مواقف وعبر في مقتل أبي جهل -

أخرج الإمامان البخاري ومسلم - واللفظ له - من حديث عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه أنه قال : بينما أنا واقف في الصف يوم بدر . نظرتُ عن يميني وشمالي . فإذا أنا بين غلامين من الأنصار . حديثة أسنانُهُما . تمنيتُ لو كنت بين أضلعَ منهُما . فغمزني أحدُهما . فقال : ياعم ! هل تعرف أبا جهل ؟ قال : قُلتُ : نعم . وما حاجتك إليه يابن أخي ؟ قال : أُخبرتُ أنه يَسُبُّ رسُول الله ﷺ . والذي نفسي بيده لئن رأيتهُ لايُفارق سوادي سوادهُ [١] حتى يموت الأعجلُ منَّا . قال : فتعجبت لذلك . فغمزني الآخرُ فقال مثلها . قال : فلم أنشبْ أن نظرتُ إلى أبي جهل يزُول [٢] في الناس . فقُلتُ : ألا تريَان ؟ هذا صاحبكُما الذي تسألان عنهُ . قال : فابتدراهُ ، فضرباهُ بسيفيهما ، حتى قتلاه . ثُم انصرفا إلى رسول الله ﷺ . فأخبراهُ . فقال « أيُّكُما قتلهُ ؟ » فقال كُلُّ واحد منهما : أنا قَتَلتُ . فقال « هلْ مسحتُما سيفَيْكُما ؟ » قالا : لا . فنظَرَ في السيفين فقال « كلاكُما قَتَلهُ » وقضى بسَلَبه لُمعاذ بن عمرو ابن الجموح .(والرجلان : مُعاذ بنُ عمرو بن الجمُوح ومُعاذُ بن عفراء) [٣] .

---

(١) أي شخصي شخصه .

(٢) أي يتحرك ولايستقر .

(٣) صحيح مسلم ، كتاب الجهاد ، رقم ١٧٥٢ (ص ١٣٧٢) صحيح البخاري ، كتاب فرض الخمس رقم ٣١٤١ (٦/ ٢٤٦) وأخرجه الحاكم من حديث عبد الرحمن بن عوف وذكر مثله - المستدرك ٣/ ٤٢٥ - .

وقال ابن إسحاق في هذا الخبر : وكان أول من لقي أبا جهل ، كما حدثني ثورُ بن يزيد ، عن عكرمة عن ابن عباس ، وعبد الله بن أبي بكر أيضًا قد حدّثني ذلك ، قالا : قال مُعاذ بن عمرو بن الجموح ، أخو بني سلمة . سمعتُ القومَ وأبو جهل في مثل الحرَجة (١) وهم يقولون : أبو الحكم لا يُخلص إليه . قال : فلما سمعتُها جعلتُه من شأني ، فصَمَدْت نحــوه ، فلما أمْكنني حملتُ عليه فضربتهُ ضربة أطَنَّتْ قدمَه بنصف ساقه ، فو الله ما شبَّهتها حين طاحت إلا بالنواة تطيح من تحت مرضَخَة النَّوى حين يُضرب بها . قال : وضربني ابنهُ عكْرمة على عاتقي فطَرح يدي ، فتعلقتْ بجلدة من جنْبي ، وأجْهضني القتالُ عنه ، فلقد قاتلتُ عامّةَ يومي وإني لأسْحبُها خلفي ، فلما آذتْني وضعتُ عليها قدمي ، ثم تَمَطَّيتُ بها عليها حتى طرحتُها .

قال ابن إسحاق : ثم عاش بعد ذلك حتى كان زمانُ عثمان .

ثم مر بأبي جهل وهو عقير مُعوِّذ بن عفراء ، فضربه حتى أثْبَته ، فتركه وبه رمق ، وقاتل معوذ حتى قُتل (٢) .

قال ابن إسحاق : فمر عبد الله بن مسعود بأبي جهل ، حين أمرَ رسول الله ﷺ أن يُلْتمس في القتلى ، وقد قال لهم رسول الله ﷺ - فيما بلغني - انظروا ، إن خَفي عليكم في القتلى ، إلى أثر جرح في رُكبته ،

---

(١) قال ابن هشام : الحرجة الشجر المتلف وفي الحديث عن عمر بن الخطاب أنه سأل أعرابيا عن الحرجة قال : هي شجرة بين الأشجار لا يوصل إليها .

(٢) سيرة ابن هشام ٢/ ٣٢١ .

فإني ازدحمتُ يومًا أنا وهو على مأدبة لعبد الله بن جُدعان ، ونحن غلامان ، وكنت اشفَّ منه بيَسير ، فدفعته فوقع على رُكبتيه ، فجُحش[1] في إحداهما جحْشا لم يزل أثرهُ به .

قال عبد الله بن مسعود : فوجدته بآخر رَمق فعرفته ، فوضعتُ رجلي على عُنقه - قال : وقد كان ضَبَث بي[2] مَرَّةً بمكة فآذاني ولكزني ثم قلت له : هل أخزاك الله ياعدوّ الله ؟ قال وبماذا أخْزاني ! أأعمد[3] من رجل قتلتموه ؟ أخبرني لمن الدائرة اليوم ؟ قال : قلت : لله ولرسوله[4] .

وأخرجه الإمام البخاري مختصرا من عدة طرق[5] وأخرج الإمام الطبراني من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال أدركت أبا جهل يوم بدر صريعًا فقلت : أي عدو الله قد أخزاك الله قال : وَبِمَ أخزاني ؟ منْ رجل قتلتموه[6] ومعي سيف لي فجعلت أضربه ولايحتكُّ فيه شيء ومعه سيف له جيد فضربت يده فوقع السيف من يده فأخذته ، ثم كشفت المغفر عن رأسه فضربت عنقه .

ثم أتيت النبي ﷺ فأخبرته فقال : آللّه الذي لا إله إلا هو ، قلت :

(١) أي خدش .

(٢) قال ابن هشام : ضبث : قبض عليه ولزمه .

(٣) يعني وهل أكثر ، وجاء في أحدى روايات البخاري : وهل فوق رجل قتلتموه ؟ .

(٤) سيرة ابن هشام ٢/ ٣٢٢ .

(٥) صحيح البخاري ، المغازي رقم ٣٩٦١ ، ٣٩٦٢ ، ٣٩٦٣ (٧/ ٢٩٣) .

(٦) سقط منه كلمة « هل أعمد » أو نحوها كما في الروايات السابقة .

الله الذي لا إله إلا هو قال : انطلق فاستثبت فانطلقت وأنا أسعى مثل الطائر ثم جئت وأنا أسعى مثل الطائر أضحك ، فأخبرته فقال رسول الله ﷺ انطلق فانطلقت معه فأريته ، فلما وقف عليه ﷺ قال : هذا فرعون هذه الأمة .

رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح غير محمد بن وهب ابن أبي كريمة وهو ثقة (١) .

في هذا الخبر برواياته المتعددة مواقف منها :

أولاً : ما جرى من هذين الشابين الأنصاريين من طموح إلى خوض أخطر مغامرة في قتال جيش الكفار وهي الوصول إلى أبي جهل الذي كان محميًا بفرسان عشيرته وعلى رأسهم ابنه الشجاع عكرمة رضي الله عنه .

وهذان الشابان هما معاذ بن عمرو بن الجموح الخزرجي ، ومعاذ ابن الحارث بن رفاعة الخزرجي رضي الله عنهما ، ويسمى معوِّذًا كما جاء في بعض الروايات ، وهما أخوان من أم وهي عفراء ، وقد اشتهر معاذ بن الحارث بالنسبة إلى أمه (٢) .

وحينما انطلقا إلى أبي جهل سبق معاذ بن عمرو بن الجموح إليه فقطع ساقه ولكن عكرمة بن أبي جهل عاجله بضربة أطاحت بيده ، أما أخوه معاذ بن الحارث فإنه ضربه بعدما سقط ، ولكن بقي فيه رمق .

---

(١) مجمع الزوائد ٦/ ٧٩ .

(٢) الإصابة ٣/ ٤٠٨ - ٤٠٩ رقم ٨٠٤١ و ٨٠٥٣ .

ونظرًا لكون معاذ بن عمرو هو الذي سبق إلى أبي جهل فإن النبي ﷺ قضى بسلبه له ، لأنه قد قام بالمهمة الكبرى في قتل ذلك الطاغية ، ولكنه ﷺ أقرّ للأخوين بالاشتراك في قتله ، وفي ذلك مواساة لمعاذ بن الحارث الذي أخبر عن نفسه بأنه قد قتله .

لقد كان الدافع إلى مغامرة ذينك الشابين هو ما سمعاه من أن أبا جهل كان يسب رسول الله ﷺ ، وهكذا تبلغ محبة الصحابة لرسول الله ﷺ إلى حد بذل النفس في سبيل الانتقام ممن تعرض له بالأذى .

وإننا لنجد في هذا الاندفاع القوي نحو ركوب المخاطر صورة من مجالات الطموح التي كانت تهيمن على أفكار شباب الصحابة رضي الله عنهم ، بينما كان الشباب الآخرون في قبائل العرب وغيرهم يهيمن على قلوبهم التفكير في مجالات إشباع الشهوات ، وتُعمر مجالسهم بالتنافس في الملذات الدنيوية .

ثانيًا : ما جرى من معاذ بن عمرو بن الجموح حينما واصل الجهاد ويده مقطوعة ، فلما أصبحت هذه اليد المتدلية بجلدتها عائقًا له دون بذل الجهد في القتال تمطّى عليها حتى طرحها .

سبحان الله ! أما كان يكفي هذا الشاب أن قُطعت يده في سبيل الله تعالى ؟ ! .

أما كان في هذه الإصابة مندوحة له عن مواصلة الجهاد ؟ ! .

أما كان يحق له أن ينزوي في ناحية من نواحي العسكر يعالج جراحه ؟! .

بلى ، كان يحق له ذلك ، ولكنه كان يحمل روحًا عالية ، وهمة سامية ، كان يحمل همَّ حماية هذا الدين العظيم ، وحماية رسول الله ﷺ والمؤمنين ، وما كان له - والحال هذه - أن يقدِّم حماية جسده على حماية هذه المباديء السامية ، وإن نفسه لتهون في سبيل إعلاء كلمة الله تعالى .

ثالثًا : ما جرى بين عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وأبي جهل وهو في الرمق الأخير من الحوار فيه عبرة بليغة ، فهذا الطاغية الذي كان شديد الأذى للمسلمين في مكة - وخاصة المستضعفين منهم - قد وقع صريعًا بين أيدي من كان يؤذيهم .

ويشاء الله تعالى أن يكون الذي يقضي على آخر رمق من حياته هو أحد المستضعفين الذين كان يؤذيهم في مكة ، وقد كان في ذلك شيء من تشفِّي المؤمنين من أعدائهم الذي مر الكلام عليه في خبر بلال رضي الله عنه مع أمية بن خلف .

ولقد كان أبو جهل مستكبرًا جبارًا حتى وهو صريع وفي آخر لحظات حياته ، فقد جاء في رواية لابن إسحاق أنه قال لعبد الله بن مسعود لما أراد أن يحتزَّ رأسه « لقد ارتقيت مرتقًى صعبا يارويعي الغنم »(١) .

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٣٣٣ .

وهكذا تستمر الغطرسة والكبرياء في أصحاب النفوس المريضة ، حيث ينسون أو يتناسون كل صفات الكمال والرجولة في الرجال ، ولايتذكرون إلا شيئًا من صفاتهم أو مهنهم البسيطة ، وهذا أثر من آثار خُلق الكبر السيئة ، وبهذه الرؤية الناقصة القاتمة يصدر حكم هؤلاء المستكبرين على الناس ، فربما حكموا على العظماء المفكرين بأحكام يزدريها العقلاء ، لأن أولئك المتكبرين لاينظرون إلى الناس إلا من خلال ذلك المنظار الضيق الدنيء .

* * *

٣٤ - شجاعة عكاشة بن محصن ومعجزة للنبي ﷺ -

قال ابن إسحاق : وقاتل عُكاشةُ بن محصن بن حُرثان الأسدي ، حليف بني عبد شمس بن عبد مناف ، يوم بدر بسيفه حتى انقطع في يده ، فأتى رسول الله ﷺ فأعطاه جذلاً من حطب ، فقال : قاتل بهذا ياعُكاشة ، فلما أخذه من رسول الله ﷺ هزّه ، فعادَ سيفًا في يده طويل القامة ، شديد المتن ، أبيض الحديدة ، فقاتل به حتى فتح الله تعالى على المسلمين ، وكان ذلك السيف يسمى العَوْن ، ثم لم يزل عنده يَشهد به المشاهد مع رسول الله ﷺ حتى قُتل في الرّدة ، وهو عنده ، قَتله طليحة ابن خُويلد الأسدي (١) .

في هذا الخبر إشارة إلى شجاعة عكاشة بن محصن رضي الله عنه وشدة بلائه في القتال ، حيث انقطع السيف في يده من كثرة الجلاد .

وفي الخبر معجزة بالغة للنبي ﷺ حيث ناول عكاشة أصلاً من أصول الشجر فعاد في يده سيفا في غاية الجودة والمتانة ، ومن بركة هذا السيف أنه استمر في يد عكاشة يقاتل به أعداء الله حتى استشهد رضي الله عنه في حروب الردة .

* * *

---

(١) سيرة بن هشام ٢/ ٣٢٤ .

٣٥ - موقف جهادي للزبير بن العوام -

أخرج الإمام البخاري من حديث هشام بن عروة عن أبيه قال: «قال الزبير: لقيتُ يوم بدر عبيدة بن سعيد بن العاص وهو مُدجّج لا يرى منه إلا عيناه وهو يكنى أبا ذات الكرش فقال: أنا أبو ذات الكرش، فحملت عليه بالعنزة فطعنته في عينه فمات. قال هشام: فأُخبرت أن الزبير قال: لقد وضعت رجلي عليه ثم تمطأت فكان الجهد أن نزعتُها وقد انثنى طرَفاها. قال عروة: فسألهُ إياها رسول الله ﷺ فأعطاه، فلما قُبض رسول الله ﷺ أخذها، ثم طلبها أبو بكر فاعطاهُ، فلما قُبض أبو بكر سألها إياه عمر فأعطاه أيايها، فلما قُبض عمر أخذها، ثم طلبها عثمان منه فأعطاه إياها، فلما قُتل عثمان وقعت عند آل علي فطلبها عبد الله بن الزبير، فكانت عنده حتى قُتل»(١).

هذا الخبر يصور لنا دقة الزبير بن العوام رضي الله عنه في إصابة الهدف، حيث استطاع أن يضع الحربة في عين ذلك الرجل مع ضيق ذلك المكان وكونه قد وزع طاقته بين الهجوم والدفاع، فلقد كانت إصابة ذلك الرجل بعيدة جداً لكونه قد حمى جسمه بالحديد الواقي، لكن الزبير استطاع إصابة إحدى عينيه فكانت بها نهايته، ولقد كانت الإصابة شديدة العمق مما يدل على قوة الزبير الجسدية، إضافة إلى دقته ومهارته في إصابة الهدف.

* * *

(١) صحيح البخاري، المغازي، رقم ٣٩٩٨ (٧/ ٣١٤).

٣٦ - مثلان من شجاعة أبي دجانة -

قال الواقدي فيما يرويه عن شيوخه ، : ولما جال المسلمون واختلطوا ، أقبل عاصم بن أبي عوف بن صُبيرة السهمي كأنه ذئب يقول : يامعشر قُريش ، عليكم بالقاطع ، مفرق الجماعة ، الآتي بما لايُعرف ، محمد ! لانجوتُ إن نجا ! ويعترضه أبو دُجانة ، فاختلفا ضربتين وضربه أبو دجانة فقتله . ووقف على سلبه يسلبه ، فمرّ عمر بن الخطاب وهو على تلك الحال ، فقال دع سلَبه حتى يُجهَض العدوّ ، وأنا أشهد لك به . ويُقبل معْبد بن وهْب ، فضرب أبا دُجانة ضربة ، برك أبو دجانة كما يبرُك الجمل ، ثم انتهض ، وأقبل عليه أبو دجانة فضربه ضربات لم يصنع سيفه شيئًا ، حتى يقع مَعْبد بحُفرة أمامه لايراها ، وبرك عليه أبو دُجانة ، فذبحه ذبحًا ، وأخذ سلَبه [1] .

فهذا الكافر العاتي عاصم بن أبي عوف الذي خرج يتحدى المسلمين ، ويهدد رسول الله ﷺ بالقتل متجاهلاً من حوله من المسلمين الذين يفدونه بأرواحهم كان له بالمرصاد أبو دجانة سماك بن خرشة رضي الله عنه فلم يثبت أمامه إلا قليلاً حتى قضى عليه وأسكت عواءه .

وينتهز أحد الكفار فرصة انشغال أبي دجانة فيضربه ضربة أوقعته على الأرض ، لكنه سرعان مانهض نهوض الأسد فقضى على عدوه .

* * *

(١) مغازي الواقدي ١/ ٨٦

٣٧ - موقف شجاعة لعلي بن أبي طالب -

قال الواقدي - فحدّثني مَعْمَر ، عن الزُّهري ، قال : قال رسول الله ﷺ : اللهمَّ ، اكفني نَوْفَل بن خُوَيلد ! وأقبل نوفل يومئذ وهو مرعوب ، قد رأى قتْل أصحابه ، وكان في أول ما التقوا هم والمسلمون ، يصيح بصوت له زَجَل ، رافعًا صوته : يامعشر قُرَيش ، إن هذا اليوم يومُ العلاء والرِّفعة ! فلما رأى قُرَيشًا قد انكسرت جعل يصيح بالأنصار : ماحاجتكم إلى دمائنا ؟ أما ترون ما تقتلون ؟ أما لكم في اللَّبَن من حاجة ؟ فأسره جَبّار بن صَخر فهو يسوقه أمامه . فجعل نوفل يقول لجبار - ورأى عَليًا مُقبلاً نحوه - قال : يا أخا الأنصار ، من هذا ؟ واللات والعُزى ، إني لأرى رجلاً ، إنه ليُريدني ! قال : هذا عليّ بن أبي طالب . قال : ما رأيت كاليوم رجلاً أسرع في قومه منه . فيصمد له عليٌّ عليه السلام فيضربه ، فنشب سيف علي في حَجَفته ساعة ، ثم نزعه فيضرب ساقيه ، ودرعه مُشَمَّرة ، فقطعهما ، ثم أجهز عليه فقتله . فقال رسول الله : من له علمٌ بنوفل بن خويلد ؟ فقال علي : أنا قتلته . قال : فكبر رسول الله ﷺ وقال : الحمد لله الذي أجاب دعوتي فيه ! (١) .

وهكذا أقر علي بن أبي طالب عين رسول الله ﷺ بالقضاء على أحد عتاة الكفار الذي كان يصعّد في أذى المسلمين ويصوِّب يوم أن كانوا مستضعفين في مكة ، وكان الذي أسره من الأنصار لم يعلم بدعاء النبي ﷺ ولا بما كان منه من أذى المسلمين .

---

(١) مغازي الواقدي ١/ ٩١ - ٩٢ .

٣٨ - نماذج عالية من الولاء والبراء -

١ - أخرج أبو عبد الله الحاكم من طريق محمد بن عمر الواقدي قال : وعبد الرحمن بن أبي بكر الصديق لم يزل على دين قومه في الشرك حتى شهد بدرًا مع المشركين ، ودعا إلى البراز فقام إليه أبوه أبو بكر رضي الله عنه ليبارزه . . فذكر أن رسول الله ﷺ قال لأبي بكر : متّعنا بنفسك ، ثم إن عبد الرحمن أسلم في هدنة الحديبية [1] .

٢ - وأخرج أبو عبد الله الحاكم بإسناده عن عبيد الله بن شوذب قال : جعل أبو أبي عبيدة بن الجراح ينصب الألَّ [2] لأبي عبيدة يوم بدر ، وجعل أبو عبيدة يحيد عنه ، فلما أكثر الجَرَّاح قصده أبو عبيده فقتله ، فأنزل الله تعالى فيه هذه الآية حين قتل أباه ﴿ **لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادُّون من حادَّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيَّدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون** ﴾ - المجادلة / ٢٢ [3] .

٣ - أخرج الواقدي من حديث الإمام الزهري ، قال : وأقبل

---

(١) المستدرك ٣/ ٤٧٤ .

(٢) الألُّ - بفتح الهمزة وتشديد اللام الحربة العريضة النصل .

(٣) المستدرك ٣/ ٢٦٥ .

العاص بن سعيد يحثُّ للقتال ، فالتقى هو وعليٌّ ، فقتله عليٌّ فكان عمر ابن الخطاب يقول لابنه سَعيد بن العاص [(١)] : إني لأراك مُعرضًا ، تظن أني قتلت أباك ؟ [في أصل ابن أبي حَيَّة ، والله ما قتلت أباك] ولا أعتذر من قتل مُشرك ، ولقد قتلت خالي بيدي ، العاص بن هشام بن المغيرة . فقال سعيد : لو قتلته لكان على الباطل وأنت على الحق . قال : قُريش أعظم الناس أحلامًا ، وأعظمها أمانةً ، لايبغيهم أحدٌ الغوائل إلا كبَّه الله لفيه [(٢)] .

٤ - قال ابن إسحاق : وحدثني نُبيه بنُ وهْب ، أخو بني عبد الدار أنّ رسول الله ﷺ حين أقبل بالأسارى فرقهم بين أصحابه ، وقال . استوصُوا بالأسارى خيرًا ، قال . وكان أبو عزيز بن عُمير بن هاشم ، أخو مصعب بن عُمير لأبيه وأمه في الأسارى .

قال . فقال أبو عزيز . مَرَّ بي أخي مُصعْب بن عُمير ورجل من

---

(١) هو سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس ، له صحبة ، وكان عمره يوم أن توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم تسع سنين ، كان من فصحاء قريش ، ولذلك ندبه عثمان رضي الله عنه فيمن ندب لكتابة القرآن ، أما جده سعيد بن العاص فهو من أشراف قريش ولقبه المشهور « أحَيْحَة » ، وقد توفي مشركا قبل بدر ، وأما أبوه العاص فهو الذي قتله علي بن أبي طالب رضي الله عنه يوم بدر - الإصابة ٢/ ٤٥ رقم ٣٢٦٨ - .

(٢) مغازي الواقدي ١/ ٩٢ .

وذكره الحافظ ابن حجر وفيه أنه قال لعمر : ولو قتلته لكنت على الحق وكان على الباطل ، فأعجبه قوله - الإصابه ٢/ ٤٥ رقم ٣٢٦٨ - .

الأنصار يَأسرني ، فقال : شُدّ يديك به فإن أُمّه ذاتُ متاع ، لعلها تَفْديه منك ! قال : وكنتُ في رهَط من الأنصار حين أقبلوا بي من بدر ، فكانوا إذا قدموا غداءهم وعشاءهم خصُّوني بالخُبز ، وأكلوا التمر ، لوصية رسول الله ﷺ إياهم بنا ما تَقَع في يد رجل منهم كسرة خُبز إلا نَفَحني بها ، قال : فأستَحْيي فأردّها على أحدهم فيردّها عليَّ ما يمسُّها .

قال ابن هشام : وكان أبو عزيز صاحبَ لواء المشركين ببدر بعد النضر بن الحارث ، فلما قال أخوه مُصعب بن عمير لأبي اليَسَر ، وهو الذي أسره ما قال ، قال له أبو عزيز : يا أخي ، هذه وصاتُك بي . فقال مصعب : إنه أخي دونك ، فسألتْ أمُّه عن أغلى ما فُدي به قُرشيٌّ ، فقيل أربعةُ آلاف درهم فبعثت بأربعة آلاف درهم ففدته بها (1) .

في هذه الأخبار أمثلة رائعة من قوة إيمان الصحابة رضي الله عنهم ، ووضوح معالم التوحيد عندهم .

فقد كان أبو بكر رضي الله عنه على إستعداد لمبارزة ابنه عبد الرحمن ، وقد عزم على ذلك لولا أن منعه رسول الله ﷺ .

وأقدم أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه على قتل أبيه .

كما أقدم عمر بن الخطاب رضي الله عنه على قتل خاله العاص بن هشام بن المغيرة .

وأقدم علي بن أبي طالب رضي الله عنه على قتل ابن عمه العاص

---

(1) سيرة ابن هشام ٢/ ٣٣٦ - ٣٣٧ .

ابن سعيد بن العاص ، وهو يلتقي مع علي بجدّهما عبد مناف بن قصي .

وأخيراً كان من مصعب بن عمير رضي الله عنه ذلك الموقف الجليل حينما أظهر البراءة من أخيه في النسب أبي عزيز ، وأثبت الولاء لأخيه في الدين ذلك الرجل الأنصاري .

وهذه الأعمال الجليلة تعتبر أمثلة حية لتطبيق مبدإ الولاء للمؤمنين وإن كانوا أباعد لاتربطهم أي رابطة من النسب أو الوطن أو غير ذلك ، والبراء من الكافرين وإن كانوا من الأقارب الأدنين .

ومبدأ الولاء والبراء يعتبر من أصول التوحيد ، وهو من التكاليف التي لايطبقها عن طيب نفس إلا أقوياء الإيمان .

* * *

٣٩ - عدد المقاتلين ونهاية المعركة -

أخرج الإمام البخاري بإسناده من عدة طرق عن البراء بن عازب رضي الله عنه أنه قال : حدثني أصحاب محمد ﷺ ممن شهد بدراً أنهم كانوا عدة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر بضعة عشر وثلاثمائة ، قال البراء : لا والله ما جاوز معه النهر إلا مؤمن (١) .

وجاء تحديد عددهم في رواية الإمام أحمد بثلاثة عشر وثلاثمائة(٢) ، وقال الحافظ ابن حجر وهذا هو المشهور عند ابن إسحاق وجماعة من أهل المغازي (٣) .

وجاء في رواية للإمام مسلم أن عددهم تسعة عشر وثلاثمائة (٤) .

وحمل ذلك الحافظ ابن حجر على احتمال أن يكون ضُمَّ إليهم في العدد من استُصْغر ولم يؤذن له في القتال كالبراء وابن عمر وأنس واستشهد على ذلك بما ذكره عن الإمام أحمد بسند صحيح عن أنس أنه سئل : هل شهدت بدراً ؟ فقال : وأين أغيب عن بدر ؟ قال : وكأنه كان حينئذ في خدمة النبي ﷺ (٥) .

أما عدد المشركين فقد سبق في حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وهم ألف » (٦) .

---

(١) صحيح البخاري ، المغازي رقم ٣٩٥٧ - ٣٩٥٩ (٧/ ٢٩٠) .

(٢) الفتح الرباني ٢١ / ٤٢ .

(٣) فتح الباري ٧/ ٢٩١ .

(٤) صحيح مسلم ، الجهاد رقم ١٧٦٣ (ص ١٣٨٤) .

(٥) فتح الباري ٧/ ٢٩٢ .

(٦) صحيح مسلم ، الجهاد رقم ١٧٦٣ (ص ١٣٨٤) .

وهذا وإن أهمية معركة بدر وتميزها ليس في كون المؤمنين قابلوا جيشًا يبلغ ثلاثة أضعافهم ، فإنهم قد قابلوا بعد ذلك أضعافهم بأكثر من ذلك ، ولكن هذا التميز يبرز لكون معركة بدر هي المعركة الأولى التي واجه فيها المسلمون أعداءهم بهذا العدد القليل .

وهنا يبرز سؤال مهم ، وهو لماذا لم يطلب النبي ﷺ من المدينة مددا ، حيث إنه لم يخرج لقتال ، فلم يخرج معه العدد الكافي لمواجهة جيش الكفار ، والكفار لم يقصدوا المدينة ، وإنما قصدوا بدرًا ليفاخروا العرب باستعدادهم الحربي الكبير ، فكان بإمكان النبي ﷺ أن ينتظر في مكان بعيد عن متناول الكفار حتى يأتيه المدد من المدينة ، فما الحكمة من عزمه ﷺ على القتال بذلك الجيش المحدود ؟ .

لاشك أن في ذلك حكَمًا عظيمة ، لعل منها أن تحصل العبرة العظيمة للمسلمين وجميع أعدائهم من إقدام بعض المسلمين على جيش كبير قد أخذ أفراده كامل استعدادهم للحرب ، ثم انتصار المسلمين ذلك الانتصار المؤزر الذي لفت الأنظار ، وأوقع الرعب في قلوب الكفار ، كما رفع من معنوية المسلمين وجرأهم على قتال أعدائهم وإن كانوا أضعافهم .

ولعل من الحكَم في ذلك أن يفهم الصحابة رضي الله عنهم ومن بعدهم أن العبرة في القتال ليست بالكثرة وإنما بتحقيق عوامل النصر التي أهمها التوكل على الله تعالى واستمداد النصر منه والاستقامة على الدين .

أما نهاية المعركة فقد كانت لصالح المسلمين حيث نصر الله تعالى رسوله ﷺ وأولياءه المؤمنين نصراً مؤزراً .

ولم يستشهد من المسلمين إلا أربعة عشر ، ستة من المهاجرين ، وثمانية من الأنصار ولم يؤسر من المسلمين أحد ، وقد ذكر ابن إسحاق أسماء الشهداء (١) .

أما المشركون فقد قتل منهم سبعون وأسر سبعون ، وقد ذكر ابن إسحاق وابن هشام أسماء أكثرهم (٢) .

* * *

---

(١) سيرة ابن هشام ٣/ ٤٢٧ - ٤٢٩ .

(٢) سيرة ابن هشام ٣/ ٤٢٩ - ٤٤٥ .

٤٠ - سحب صناديد قريش إلى القليب ومافي ذلك من عبر -

أخرج الإمام أبو عبد الله البخاري من حديث قتادة قال « ذكر لنا أنس بن مالك عن أبي طلحة أن نبي الله ﷺ أمر يوم بدر بأربعة وعشرين رجلاً من صناديد قريش فقُذفوا في طَويٍّ من أطواء بدر (١) خبيث مُخْبث، وكان إذا ظهر على قوم أقام بالعرصة ثلاث ليال، فلما كان ببدر اليوم الثالث أمر براحلته فشُدَّ عليها رحلها، ثم مشى واتبعه أصحابه وقالوا : ما نرى ينطلقُ إلا لبعض حاجته، حتى قام على شفة الرَّكيِّ(٢)، فجعل يُناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم، يافلان ابن فلان، ويافلان ابن فلان، أيسرّكم أنكم أطعتمُ الله ورسوله ؟ فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا.

قال فقال عمر : يارسول الله، ما تُكلم من أجساد لا أرواح لها، فقال رسول الله ﷺ : والذي نفس مُحمد بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم.

قال قتادة : أحياهم الله حتى أسمعهم قوله، توبيخًا وتصغيراً ونقْمة وحَسرة ونَدَما (٣).

وأخرجه أبو عبد الله الحاكم من حديث عائشة رضي الله عنها وذكر نحوه باختصار، وجاء في آخره : فلما أمر بهم فسحبوا عُرف في وجه أبي حذيفة بن عتبة الكراهية وأبوه يسحب إلى القليب، فقال له

---

(١) أي في بئر من آبارها.

(٢) أي على طرف البئر.

(٣) صحيح البخاري، المغازي رقم ٣٩٧٦ (٧/٣٠١).

رسول الله ﷺ يا أبا حذيفة والله لكأنه ساءك ما كان في أبيك ، فقال : والله يارسول الله ما شككت في الله وفي رسول الله ولكن إن كان حليما سديدًا ذا رأي فكنت أرجو أن لايموت حتى يهديه الله عز وجل إلى الإسلام ، فلما رأيت أن قد فات ذلك ووقع حيث وقع أحزنني ذلك، قال : فدعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله بخير .

قال الحاكم : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ، وأقره الذهبي (١) .

في هذا الخبر عبرة للمعتبرين ، حيث سقط هؤلاء السادة الزعماء صرعى يوم بدر ، وواجهوا ذلك المصير السيء في الدنيا ، التي طالما حلموا فيها بالشرف الرفيع ، مع ما ينتظرهم في الآخرة من العذاب الأليم الخالد .

لقد كانت سعادة الدنيا والآخرة بأيديهم لو فكروا في دعوة النبي ﷺ بعقول متجردة من الهوى ، ولكن الهوى الجامح المهيمن على أفكارهم قد قادهم إلى الهلاك في الدنيا والآخرة ، فخسروا الدنيا التي سخَّروا عقولهم وأجسامهم لعمارتها ، وخسروا الآخرة التي لم يكونوا يحسبون لها حسابا .

وموقف إسلامي لأبي حذيفة بن عتبة رضي الله عنه الذي تغير وجهه كراهية لما رأى أباه يُسحب إلى القليب ، حزنا على موته كافرا وحرمانه من الهداية مع ما كان يتمتع به من عقل راجح ورأي سديد ، ولم يكن حزنه لمجرد أنه فقد أباه ، ولهذا المقصد النبيل الذي أثار حزن أبي حذيفة دعا له رسول الله ﷺ بخير .

---

(١) المستدرك ٣/ ٢٢٤ .

٤١ - مثل أعلى في الرقي الأخلاقي - (إكرام الأسرى)

أخرج الإمام الطبراني من حديث أبي عزيز بن عمير أخي مصعب بن عمير قال : كنت في الأسرى يوم بدر فقال رسول الله ﷺ : استوصوا بالأساري خيرا ، وكنت في نفر من الأنصار فكانوا إذا قدَّموا غداءهم وعشاءهم أكلوا التمر وأطعموني البُرّ لوصية رسول الله ﷺ .

ذكره الحافظ الهيثمي وقال : رواه الطبراني في الصغير والكبير وإسناده حسن (١) .

وأخرج الواقدي من حديث الزُّهري . قال : قال رسول الله ﷺ : استوصوا بالأسرى خيرًا . فقال أبو العاص بن الربيع : كنت في رهط من الأنصار جزاهم الله خيرًا ، كنا إذا تعشينا أو تغدينا آثروني بالخبز وأكلوا التمر ، والخبز معهم قليل والتمر زادُهم . حتى إنَّ الرجل لتقع في يده الكسرة فيدفعها إليّ . وكان الوَليد بن الوليد بن المُغيرة يقول مثل ذلك ويزيد : وكانوا يحملوننا ويمشون (٢) .

في هذين الخبرين مثل رفيع في المعاملة الكريمة من رسول الله ﷺ حتى مع الأعداء ، وشاهدٌ على سمو الإسلام في المجال الأخلاقي ، حيث ظفر أعداء الإسلام من معاملة المسلمين بأعلى درجات مكارم الأخلاق ، التي تتمثل في خلق الإيثار ، فالصحابة رضي الله عنهم

(١) مجمع الزوائد ٦/ ٨٦ .

(٢) مغازي الواقدي ١/ ١١٩ .

يأكلون الطعام الذي يعتبر في نظرهم من الدرجة الثانية لكثرته ، ويؤثرون الأسارى بالطعام الذي يعتبر من الدرجة الأولى لندرته ، ولو أنهم اقتصروا على مساواة الأسارى بأنفسهم لكانوا قد بلغوا الكمال في العدالة ، ووصلوا إلى مستويات عليا في تمثيل مكارم الأخلاق ، ولم تتوجه إليهم أي ملامة من أهل العقل الحصيف والرأي السديد ، فكيف بهم وقد جاوزوا مرحلة المساواة إلى مرحلة الإيثار على النفس ؟ ! لاشك أنهم بذلك يكونون قد بلغوا القمة العليا في الرقي الأخلاقي .

إن هذا الخبر يعطينا صورة رائعة للمقدرة الفائقة عند المسلمين الصادقين على الجمع بين القوة الخارقة في الحرب ، والتمثيل العالي لمكارم الأخلاق حتى مع من كانوا قبل أيام قلائل يقابلون المسلمين في الميدان ، مع تصور أن الأعداء لو ظفروا بهم لمزقوهم شر ممزَّق .

إن شعور المسلم القوي بعدواة الأعداء وتطبيقه الحي لمبدإ البراء من الكفار يجعل من العجيب المدهش أن يصل هذا المسلم في معاملته للأعداء الذين هم تحت ملكه وتصرفه إلى حد الإيثار على النفس بمنافع الحياة الدنيا .

وإن الذي يواجه مقاتلين يستميتون في القتال دفاعا عن قضيتهم ، لاينتظر من هؤلاء المقاتلين الذين خطفوا بصره في الميدان وشلُّوا بصيرته إلا الموت البطيء على أيديهم ، فكيف به وهو يواجه رجالا يؤثرونه على أنفسهم ؟ ! .

إنه لمن المستغرب المحيِّر للعقلاء العاديين أن يُقدم أناس على قتل أقاربهم الأدنين في الميدان ، ثم يؤثروا الأباعد عنهم بمنافع الدنيا وهم يملكون قتلهم ومادون ذلك من الإيذاء .

فما الذي حملهم على هذا الأمر الذي ظاهره التناقض ؟ ! إنه طاعة الله تعالى وابتغاء رضوانه في الحالين معا ، فهو الذي أمرهم ببذل الجهد في القتال في سبيله ، وأن لاتأخذهم به لومة لائم ، وهو الذي أمرهم بأن يصلوا إلى القمة في الرقي الأخلاقي حتى مع أعدائهم .

* * *

٤٢ – موقفا رحمة وحزم من رسول الله ﷺ –
(خبر أبي عزة الجمحي)

أخرج الواقدي من حديث الزهري ، عن سعيد بن المسيب ، قال : آمّن رسول الله ﷺ من الأسرى يوم بدر أبا عزة عمرو بن عبد الله بن عمير الجمحي ، وكان شاعراً ، فأعتقه رسول الله ﷺ ، وقال : لي خمس بنات ليس لهنَّ شيءٌ ، فتصدق بي عليهن يامحمد ، ففعل رسول الله ﷺ ، وقال أبو عزَّة : أعطيك موثقًا لا أقاتلك ولا أكثر عليك أبدًا . فأرسله رسول الله ﷺ .

فلما خرجت قريش إلى أحُد جاءَه صفوان بن أمية فقال : اخرج معنا ! فقال : إني قد أعطيت محمداً موثقًا أن لا أقاتله ولا أكثر عليه أبدًا ، وقد منّ عليّ ولم يمنّ على غيري حتى قتله أو أخذ منه الفداء . فضمن صفوان أن يجعل بناته مع بناته إن قُتل ، وإن عاش أعطاه مالاً كثيرًا لا يأكله عياله . فخرج أبو عزة يدعو العرب ويحشرها ، ثم خرج مع قريش يوم أحدٌ فأُسر ولم يُؤسَر غيره من قريش ، فقال : يامحمدّ ، إنما خرجْت مُكرهًا ، ولي بنات فامْنُن عليّ ! فقال رسول الله ﷺ : أين ما أعطيتَني من العهد والميثاق ؟ لا والله ، لاتَمْسَح عارضَيك بمكّة تقول «سخرتُ بمحمدّ مرّتين » ! .

وأخرج من حديث الزُّهري ، عن سعيد بن المُسيِّب ، قال : قال : النبي ﷺ : إنَّ المؤمن لايُلْدغ من جُحْر مرّتين ، ياعاصم بن ثابت ، قدِّمْه فاضرب عنقه ! فقدّمه عاصم فضرب عنقه (١) .

---

(١) مغازي الواقدي ١/ ١١٠ - ١١١ .

في هذا الخبـر بيـان أن النبي ﷺ وقف مـوقف رحـمـة من أبي عـزة الجمحي لما ذكر فقره ومالديه من البنات التي يعولهن فأطلقه ﷺ بغير فداء وذلك يوم بدر ولكنه لـم يف لرسـول الله ﷺ بما عـاهده عليـه من لزوم السلم وعـدم إثارة الحرب ضـده فوقع أسيرًا في معـركة أحـد ، ومع ما سلف منه من خيانة العهد فإنه حاول أن يستدر عطف النبي ﷺ لعله يَمُنُّ عليـه ولكنه ﷺ كـان حـازمًا لايغدر به الخـادعون فأمـر عـاصم بن ثابت بضرب عنقه .

ولقد قـرر النبي ﷺ بهـذا للقـادة من بعده لزوم المحـافظة على عـزة الإسـلام ودولتـه ، والحذر من الوقـوع في خداع الخـداعين ، لأن الأمـر ليس قضايا فردية وإنما هو قضية الأمة فإذا وقع القـائد في خداع الأعـداء تضرر من ذلك جيشه وأمته .

* * *

٤٣ - موقف رحمة وعدالة من رسول الله ﷺ -

قال الواقدي في بيان أحداث غزوة بدر :

ولما أُسر سُهيل بن عمرو ، قال عمر رضي الله عنه : يارسول الله ، انزعْ ثنيتيه ! يُدلَع لسانُه فلا يقوم عليك خطيبًا أبدًا ! فقال رسول الله ﷺ : لا أُمثِّل به فيُمثِّل الله بي وإن كنت نبيًا ، ولعله يقوم مقامًا لاتكرهه . فقام سُهيل بن عمرو حين جاءَه وفاة النبي ﷺ بخُطبة أبي بكر رضي الله عنه بمكة - كأنه كان يسمعها . قال عمر حين بلغه كلام سُهيل : أشهدُ إنَّك لرسولُ الله ! يُريد حيث قال النبي ﷺ « لعله يقوم مقامًا لاتكرهه »(١) .

وهكذا أبَى رسول الله ﷺ أن ينزع ثنيتي سهيل بن عمرو ، مع أن مقصد عمر بن الخطاب رضي الله عنه لم يكن مجرد التمثيل به وإنما كان مقصدا دعويا ، وذلك من أجل أن لايقوم خطيبا ضد دعوة الإسلام وقد كان سهيل خطيبا مصقعًا له تأثير على قومه ، وهذا موقف رحمة وعدالة من رسول الله ﷺ .

وفي قوله ﷺ « لعله يقوم مقامًا لاتكرهه » معجزة نبوية ظاهرة ، حيث تحقق ما رجاه ﷺ وذلك أنه أسلم يوم فتح مكة وحسن إسلامه ، فلما توفي رسول الله ﷺ كاد بعض أهل مكة أن يرتدوا عن الإسلام وأظهروا التمرد على دولة الإسلام فقام فيهم خطيبًا فثبَّت المترددين وهدد

---

(١) مغازي الواقدي ١/ ١٠٧ .

وفي رواية : لعله يقوم مقاما تحمده عليه .

المتمردين ، ومما روي من قوله في ذلك « يامعشر قريش لاتكونوا آخر الناس إسلاما وأولهم ردة ، من رَابَنَا ضربنا عنقه » .

ولما بلغ عمر موقفه هذا تذكر مقالة النبي ﷺ عنه بعد بدر فقال : «أشهد إنك لرسول الله » يعني حيث أخبر عن أمر مغيب فوقع كما أخبر به .

* * *

٤٤ - مثل من تسامح النبي ﷺ واهتمامه بالدعوة - (فداء أبي العاص بن الربيع)

قال ابن إسحاق : وحدّثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير ، عن أبيه عباد ، عن عائشة ، قالت : لما بعث أهل مكة في فداء أسرائهم، بعثت زينبُ بنت رسول الله ﷺ في فداء أبي العاص بن الربيع بمال ، وبعثت فيه بقلادة لها كانت خديجة أدخلتها بها على أبي العاص حين بنى عليها[1] ، قالت : فلما رآها رسول الله ﷺ رقّ لها رقة شديدة ، وقال : إن رأيتم أن تُطلقوا لها أسيرها ، وتردوا عليها مالها ، فافعلوا ، فقالوا : نعم ، يارسول الله فأطلقوه ، وردّوا عليها الذي كان لها [2] .

في هذا الخبر نجد أن النبي ﷺ منّ على صهره أبي العاص بن الربيع فأطلقه بغير فداء ، وردَّ القلادة التي بعثت بها زوجته زينب بنت النبي ﷺ لفدائه وهذا الموقف إلى جانب ما يظهر منه من مظاهر الرحمه والعطف منه ﷺ على ابنته ، فهو يحمل في طياته مقصداً آخر أهمّ ، وهو أنه كان

---

(١) ذكر ابن إسحاق أن النبي صلى الله عليه وسلم زوَّج أبا العاص بن الربيع قبل الإسلام ، وأن زينب بقيت في ذمته وهو مشرك لأنه صلى الله عليه وسلم لايستطيع وهو بمكة أن ينفذ الأحكام الشرعية التي تتعلق بالكفار ، ثم خرج أبو العاص يوم بدر وأُسر مع من أسر .

(٢) سيرة ابن هشام ٢/ ٣٤٧ - ٣٤٨ .

واخرجه الإمام أحمد من طريق بن إسحاق بهذا الإسناد وذكر مثله - الفتح الرباني ١٤/ ١٠٠ - ١٠١ .

يتألفه للإسلام بذلك لما عرف عنه من العقل السديد والرأي الرشيد ، فقد كان النبي ﷺ يثني عليه وهو على شركه بحسن المعاملة .

وبمقابل هذا العطف نجد أن النبي ﷺ قد تشدد مع عمه العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه كما أخرج الإمام البخاري من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه : « أن رجالا من الأنصار استأذنوا رسول الله ﷺ ، فقالوا : ائذن لنا فلنترك لابن أختنا عباس فداءه ، قال : والله لاتذرون منه درهما [1] » وكما أخرج الإمام أحمد من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان الذي أسر العباس بن عبد المطلب أبو اليسر بن عمرو وهو كعب بن عمرو أحد بني سلمة فقال له رسول الله ﷺ : كيف أسرته يا أبا اليسر ؟ قال : لقد أعانني عليه رجل ما رأيته بعد ولاقبل هيئته كذا هيئته كذا قال فقال رسول الله ﷺ : لقد أعانك عليه ملك كريم وقال للعباس : ياعباس افد نفسك وابن أخيك عقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث وحليفك عتبة بن جحدم أحد بني الحارث بن فهر قال : فإني كنت مسلمًا قبل ذلك وإنما استكرهوني قال : الله أعلم بشأنك إن يك ما تدَّعي حقًا فالله يجزيك بذلك فأما ظاهر أمرك فقد كان علينا فافد نفسك ، وقد كان رسول الله ﷺ قد أخذ معه عشرين أوقية ذهب فقال : يارسول الله احسبها لي من فدائي قال : لا ذلك شيء أعطانا الله منك قال : فإنه ليس لي مال قال : فأين المال الذي وضعته بمكة حين خرجت

---

(١) صحيح البخاري ، المغازي رقم ٤٠١٨ (٧/ ٣٢١) .

عند أم الفضل وليس معكما غيركما أحد فقلت إن أُصبت في سفري هذا فللفضل كذا ولُقَثَم كذا ولعبد الله كذا قال : فو الذي بعثك بالحق ما علم به أحد من الناس غيري وغيرها وإني أعلم أنك رسول الله . ذكره الحافظ الهيثمي وقال : فيه راو لم يسمَّ وبقية رجاله ثقات (١) .

وهذا يعني أن النبي ﷺ لم يراع أبا العاص بن الربيع لمجرد كونه صهره ، وإنما كان ذلك لغرض ديني وهو محاولة اجتذابه إلى الإسلام .

وقد عامله النبي ﷺ بمثل ذلك من التسامح كما سيأتي ، مما كان سببًا في دخوله في الإسلام رضي الله عنه .

* * *

(١) مجمع الزوائد ٦/ ٨٥ - ٨٦ .

٤٥ - النصر على الأعداء من نعم الله تعالى -

قال محمد بن إسحاق : ثم ارتحل رسول الله ﷺ ، حتى إذا كان بالرَّوْحاء لقيه المسلمون يُهنئونه بما فتح الله عليه ، ومن معه من المسلمين ، فقال لهم سَلَمة بن سلامة - كما حدثني عاصم [١] بن عُمر ابن قتادة ، ويزيد بن رومان - : ما الذي تُهنئوننا به ؟ فو الله إن لقينا إلا عجائز صُلْعا كالبُدْن المعقَّلة ، فنحرناها ، فتبّسم رسولُ الله ﷺ ، ثم قال : أي ابن أخي ، أولئك الملأ [٢] .

وأخرجه الواقدي ، وقد جاء فيه بعد قوله « أولئك الملأ » : « لو رأيتهم لهبتهم ، ولو أمروك لأطعتهم ، ولو رأيت فَعَالك مع فَعالهم لاحتقرته ، وبئس القوم كانوا على ذلك لنبيهم » فقال سلمة : أعوذ بالله من غضب الله وغضب رسوله . . ثم ذكر خبراً آخر إلى أن قال في حكاية قول النبي ﷺ : « وأما ما قلت في القوم فإنك عمدت إلى نعمة من نعم الله تزهدها » فاعتذر إلى النبي ﷺ ، فقبل منه رسول الله معذرته فكان من عليَة أصحابه [٣] .

في هذا الخبر بيان من رسول الله ﷺ بأن التهوين من شأن الأعداء بعد الانتصار عليهم يعتبر من الغفلة عن تذكر نعمة الله تعالى ، وذلك

(١) سقط اسم عاصم من النسخة المطبوعة التي اعتمدت عليها وقد اثبته من الروض الأنف ٥/ ١٥٢ .

(٢) سيرة ابن هشام ٢/ ٣٣٤ ، وقال ابن هشام : الملأ الأشراف والرؤساء .

(٣) مغازي الواقدي ١/ ١١٦ .

لأن نصر الله تعالى أولياءه المؤمنين من أعظم النعم عليهم ، فإنه أعظم بكثير من قوتهم وتدبيرهم .

كما أن الاهتمام ببيان قوة أفراد الجيش والتهوين من شأن الأعداء يبعث على الغرور الذي قد يكون سببا في الانتكاسة في موطن آخر .

فلذلك وغيره كانت كراهية النبي ﷺ لذلك الكلام الذي صدر من سلمة بن سلامة بن وقش رضي الله عنه .

لقد أخبر النبي ﷺ عن زعماء قريش بأنهم علْيةُ القوم ، و أن من رآهم هابهم ومن أمروه أطاعهم لما يتمتعون به من قوة الشخصية وإحكام التصرف في الأمور الدنيوية ، واجتذاب الناس إليهم ببعض الفعال الحميدة .

وإن في إخبار النبي ﷺ عنهم بذلك وصفا لحجم المعاناة التي كان يواجهها هو وأصحابه في مقاومة هؤلاء الزعماء حينما كانوا تحت سيطرتهم في مكة ، فإن مقاومة العدو الذي ينْفر الناس منه بتخبطه واضطرابه ، ووقوع الشقاق بين زعمائه ، وهبوط هؤلاء الزعماء إلى التخلق بالأثرة والاهتمام بالمنافع الشخصية ، ليست كمقاومة العدو الذي أحكم سادتُه أمره فيما يتعلق بالأعراف الاجتماعية والتقاليد المرعية ، حتى فرضوا على الآخرين هيبتهم ، واستقام الأتباع على طاعتهم .

٤٦ – فرحة المؤمنين وغيظ اليهود والمنافقين –

قال محمد بن عمر الواقدي رحمه الله تعالى :

وقدَّم رسول الله ﷺ زَيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة من الأثيل ، فجاءوا يوم الأحد شَدَّ الضُّحى ، وفارق عبد الله زيدًا بالعقيق ، فجعل عبد الله يُنادي على راحلته : يامعشر الأنصار ، أبشروا بسلامة رسول الله ﷺ وقَتْل المشركين وأسْرهم ! قُتل ابنا رَبيعة ، وابنا الحجاج ، وأبو جَهل ، وقُتل زَمعة بن الأسود ، وأمية بن خلف ، وأُسر سُهيل بن عمرو ذو الأنياب في أسرى كثيرة . قال عاصم بن عَدي : فقمت إليه فنحَّوته فقلت : أحقًا ما تقول يابن رواحة ؟ قال : إي والله ، وغدًا يقدم رسول الله ﷺ إن شاءَ الله ومعه الأسرى مُقرَّنين . ثم اتَّبع دور الأنصار بالعالية – العالية بنو عمرو بن عوف وخطمة ووائل ، منازلهم بها – فبشرهم دارًا دارًا ، والصبيان يشتدون معه ويقولون : قُتل أبو جهل الفاسق ! حتى انتهوا إلى بني أمية ابن زيد .

وقدم زيد بن حارثة على ناقة النبي ﷺ القصواء يبشر أهل المدينة ، فلما جاء المُصلى صاح على راحلته ، قُتل عُتبة وشيبة ابنا ربيعة ، وابنا الحجاج ، وأبو جهل ، وأبو البختري ، وزمعة بن الأسود ، وأمية بن خلف ، وأُسر سهيل بن عمرو ذو الأنياب في أسرى كثيرة . فجعل الناس لايُصدقون زيد بن حارثة ، ويقولون : ماجاء زيد إلا فَلاًّ ! (١)

(١) أي منهزما .

حتى غاظ المسلمين ذلك وخافوا . وقدم زَيد حين سَوَّوا على رُقَيَّة بنت رسول الله ﷺ الترابَ بالبَقيع .

فقال رجلٌ من المنافقين لأسامة بن زيد : قُتل صاحبكم ومعه معه . وقال رجل من المنافقين لأبي لبابة بن عبد المنذر : قد تفرق أصحابكم تفرقا لايجتمعون منه أبدًا . وقد قُتل علية أصحابه وقُتل محمد ، هذه ناقته نعرفها ، وهذا زيد لايدري ما يقول من الرعب ، وجاءَ فلاًّ . قال أبو لبابة : يُكذب الله قولك ! وقالت يهود : ماجاء زيد إلاّ فلاًّ ! .

قال أسامة بن زيد : فجئتُ حتى خلوتُ بأبي ، فقلت : ياأبَهْ ، أحقٌّ ماتقول ؟ قال : إي والله حقٌّ يابُني ! فقويتُ في نفسي ، فرجعتُ إلى ذلك المنافق فقلت : أنت المُرجف برسول الله وبالمسلمين ، ليُقدّمنك رسولُ الله إذا قدم فليضربن عنقَك ! فقال : يا أبا محمد ، إنما هو شيء سمعتُ الناس يقولونه (١) .

وهكذا صور لنا هذا الخبر مقدار فرحة المؤمنين بنصر رسول الله ﷺ وأصحابه في بدر ، وما تم في ذلك من قتل زعماء الكفار وأسر بعضهم ، الذين كانوا يملؤون الأرض سمعة وجبروتا .

وقد شارك في هذه الفرحة صبيان المدينة ، الذين رفعوا أصواتهم بإعلان فرحتهم بقتل أبي جهل الفاسق .

---

(١) مغازي الواقدي ١/ ١١٤ - ١١٥ ، واخرجه الحاكم وقال : هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه - المستدرك ٣/ ٢١٧ - ٢١٨ - .

وفي مقابل ذلك أصابت المنافقين واليهود كابة شديدة وغيظ خانق، مما دفعهم إلى تكذيب ذلك الخبر ، وإشاعة انهزام المسلمين ، وأن المبشِّرَيْن إنما هما من أوائل المنهزمين .

وهذا هو شعور أعداء الله تعالى دائمًا نحو أي نعمة تساق للمسلمين ، كما أخبر الله تعالى عنهم بقوله ﴿ **إنْ تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها وإن تصبروا وتتقوا لايضركم كيدهم شيئًا إن الله بما يعملون محيط** ﴾ - آل عمران / ١٢٠ - .

لقد كان هذا الخبر مفاجأة كبرى غير متوقعة لأهل المدينة ، ولذلك جاء عاصم بن عدي سرًا يستفسر من عبد الله بن رواحة عن صحة الخبر ، وجاء أسامة سرًا يستفسر من أبيه زيد عن ذلك ، لاشكًا في صدقهما ولكن من باب احتمال أن يكون الخبر نوعًا من الخداع الحربي الذي يستخدم عادة لكسب المواقف ودرء الأخطار .

* * *

٤٧ – مثل من الشجاعة وقوة الإيمان –
(أبو رافع يرد على أبي لهب)

قال ابن إسحاق : وحدّثني حُسين بن عبد الله بن عبيد الله بن عباس عن عكرمة مولى ابن عباس ، قال : قال أبو رافع مولى رسول الله ﷺ (١) : كنت غلامًا للعبّاس بن عبد المطلب وكان (٢) الإسلام قد دخَلَنا أهل البيت ، فأسلم العبّاس ، وأسلمت أمُّ الفضل ، وأسلمتُ ، وكان العباس يهاب قومه ، ويكره خلافهم ، وكان يكتُم إسلامه ، وكان ذا مال كثير متفرِّق في قومه .

وكان أبو لهب قد تخلّف عن بدر ، فبعث مكانه العاصي بن هشام بن المُغيرة ، وكذلك كانوا صنعوا ، لم يتخلف رجلٌ إلا بعث مكانه رجلاً ، فلما جاءه الخبرُ عن مُصاب أصحاب بدر من قُريش ، كبته الله وأخزاه ، ووجدنا في أنفسنا قوة وعزًا ، قال : وكنت رجلاً ضعيفًا ، وكنت أعمل الأقداح(٣) : أنحتُها في حُجرة زمزم ، فو الله إني لجالس فيها أنحت أقداحي ، وعندي أم الفضل جالسةٌ ، سَرَّنا ما جاءنا من الخبر ، إذ أقبل أبو لهب يجرُّ رجليه بشرّ ، حتى جلس على طُنُب الحُجْرة فكان ظهرهُ إلى ظهري .

(١) هو أبو رافع القبطي رضي الله عنه ، اختلف في اسمه اختلافا كثيراً – الإصابة ٦٨/٤ رقم ٣٩١ .

(٢) في النسخة المطبوعة التي اعتمدت عليها « وكلام » والصواب ما أثبته من الروض الأنف٥/ ١٥٦ .

(٣) جمع قدح بتفح القاف والدال آنية تروي الرجلين .

فبينما هو جالسٌ إذ قال الناس : هذا أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب (١) قدمَ ، قال : فقال له أبو لهب : هلمَّ إلي فعندك لعمري الخبرُ ، قال : فجلس إليه والناسُ قيامٌ عليه ، فقال : يابن أخي أخبرني كيف كان أمر الناس ؟ .

قال : والله ماهو إلا أن لقينا القومَ ، فَمَنَحْناهم أكتافنا يقتُلوننا كيف شاءوا ، ويأسرُوننا كيف شاءوا ، وايمُ الله مع ذلك ما لُمْت الناس ، لقينا رجالا بيضا ، على خَيْل بُلقْ (٢) ، بين السماء والأرض ، والله ما تُليق شيئًا ولايقوم لها شيء .

قال أبو رافع : فرفَعْتُ طُنُب الحُجرة بيدي ، ثم قلتُ : تلك والله الملائكة ، قال : فرفع أبو لهب يدَه فضرب بها وجهي ضربة شديدة . قال وثَاوَرْتُه فاحتَملني فضرب بي الأرض ثم برك عليّ يضْربني ، وكنت رجلاً ضعيفا ، فقامت أمُّ الفضل إلى عمود من عمد الحُجرة فأخذته فضربته به ضربة فلَعت (٣) في رأسه شجةً مُنْكرة ، وقالت : استضعفته أن غاب عنه سيِّدهُ ، فقام مولّيا ذليلاً ، فو الله ما عاش إلا سبع ليال حتى رماه الله بالعَدَسة (٤) فقتلته (٥) .

---

(١) قال ابن هشام : واسم أبي سفيان المغيرة .

(٢) أي لونها يجمع بين السواد والبياض .

(٣) أي شقَّت .

(٤) هي قرحة مُعْدية كانت العرب تتشاءم منها .

(٥) سيرة ابن هشام ٢/٣٣٨ - ٣٤٠ وذكره الهيثمي من رواية الإمام أحمد وذكر أنه رواه باختصار ، قال : وبعضه مرسل ورجال غير المرسل ثقات - مجمع الزوائد ٦/٨٨ .

في هذا الخبر موقف لأبي رافع مولى رسول الله ﷺ في الشجاعة وقوة الإيمان ، فحينما سمع عن الذين قاتلوا المشركين على الخيل البلق بين السماء والأرض أدرك أنهم الملائكة عليهم السلام ، فأعلن ذلك بوضوح غير هياب ولامتردد ، مع أنه يعلم أن ذلك يغيظ المشركين الذين كانوا مع المسلمين في حالة حرب ، وحينما ضربه أبو لهب على وجهه لم يرض بالضيم ، بل هجم عليه بالرغم من كونه ضعيف الجسم .

وموقف لأم الفضل رضي الله عنها حينما قامت تنصر أبا رافع مولى زوجها العباس رضي الله عنهما ، فردَّت أبا لهب بغيظه لم ينل من أبي رافع ما يريد .

وفي الخبر مثل من غطرسة الكفار وطغيانهم ، فحينما تكلم أبو رافع بمعتقده الذي يراه لم يكن لدى أبي لهب من أسلوب للرد عليه إلا أسلوب العنف والقوة البدنية ، وهذا مثل من أمثلة كثيرة تقدم بعضها تدل على خواء الكفار من الحجج العقلية والأدلة البيانية ، حيث يلجئون غالبًا إلى أسلوب الكبت والحجر الفكري .

* * *

٤٨ - تاريخ غزوة بدر -

قال ابن إسحاق رحمه الله تعالى : فكانت وقعة بدر يوم الجمعة صبيحة سبع عشرة من شهر رمضان[١] .

وأخرج الإمام أحمد بإسناده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كانت هزيمة أهل بدر لسبع عشرة مضين يوم الجمعة في شهر رمضان [٢] .

يعني من السنة الثانية للهجرة كما ذكرها ابن إسحاق وغيره في حوادث هذه السنة .

* * *

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٣١٠ .

(٢) الفتح الرباني ٢١ / ٤٢ .

٤٩ - موقف لرسول الله ﷺ في الوفاء -

أخرج أبو عبد الله الحاكم من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال : ما مَنَعَنا أن نشهد بدرًا إلا أني وأبي أقبلنا نريد رسول الله ﷺ فأخذَتْنَا كفارُ قريش فقالوا : إنكم تريدون محمدًا ، فقلنا : ما نريده إنما نريد المدينة ، فأخذوا علينا عهد الله وميثاقه لتصيُرنَّ إلى المدينة ولاتقاتلوا مع محمد ﷺ ، فلما جاوزناهم أتينا رسول الله فذكرنا له ماقالوا وماقلنا لهم فما ترى ؟ قال : نستعين الله عليهم ونفي بعهدهم ، فانطلقنا إلى المدينة ، فذاك الذي منعنا أن نشهد بدرًا .

قال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه وأقره الذهبي [١] .

في هذا الخبر مثل من اهتمام النبي ﷺ بالوفاء بالعهد والوفاء بالعهد وإن ظهر في بعض صوره مجحفًا بالمسلمين مفوتا لهم بعض الفرص السانحة فإنه بركة في جهدهم المبذول وإن قل .

كما أنه تطبيق لمكارم الأخلاق العالية ، حيث يرسم لهم صورة صادقة مشرقة أمام الناس ، فيكون ذلك سببا في تقوية الدعوة الإسلامية ، وذلك في جذب الناس إلى الدخول إلى الإسلام .

* * *

---

(١) المستدرك ٣/ ٢٠١ - ٢٠٢

٥١ من أشعار الدعوة والجهاد

(نماذج من أشعار المسلمين في بدر)

قال حسان بن ثابت رضي الله عنه بعد أبيات له كما ذكر ابن إسحاق :

إن كنت كاذبةَ الذي حدَّثتني
فنجوت مَنْجَى الحارث بن هشام(١)

ترك الأحبَّة أن يُقاتلَ دونهُمْ
ونجا برأس طمرَّة (٢) ولجام

تذر العنَاجيج الجياد بقفرة
مرَّ الدَّموك بمُحْصَد ورجام(٣)

مَلأتْ به الفرْجَين فارْمَدَّت به
وثوى أحبَّتُه بشرّ مقام(٤)

وبنُو أبيه ورَهْطهُ في مَعْرك
نصر الإلهُ به ذوي الإسلام

طَحَنَتْهُمُ ، واللهُ يُنْفذُ أمرهَ
حربٌ يُشبُّ سعيرُها بضرام

(١) إنما ذكر الحارث بن هشام فقط مع أن الذين فروا من المعركة من قريش كثير لكونه من سادتهم وقد أسلم يوم الفتح وحسن إسلامه وكان له بلاء مشكور يوم اليرموك وغيره رضي الله عنه .

(٢) أي فرس سريع الجري .

(٣) العناجيج الخيل النجيبة ، والدَّموك البكرة التي يُستقى بها من البئر ، والمُحْصَد الحبل الذي يربط به الدلو ، والرِّجام الحجر الذي يربط بالدلو ليثقله حتى يسرع بالنزول ، والمعنى أن الفرس التي نجا عليها الحارث أسرع من ذلك .

(٤) الفرجين ما بين يدي الفرس ورجليها وارمدَّت أي أسرعت .

لولا الإلهُ وجَريْها لَتركْنه
جَزَرَ السباع ودُسْنه بحَوامى(١)

من بين مأسور يشد وثاقه
صقرٌ إذا لاقى الأسنة حامى

ومجدَّل لايستجيب لدعوة
حتى تزول شوامخُ الأعلام(٢)

بالعار والذلّ المُبيَّن إذ رأى
بيض السُّيوف تَسُوق كلَّ هُمَام

بيدَىْ أغرَّ إذا انتمى لم يُخزه
نسب القصار سَمَيْدع مقدام(٣)

بيض إذا لاقت حديداً صَمَّمَتْ
كالبرق تحت ظلال كل غمام

قال ابن إسحاق : وقال حسَّان أيضًا :

فما نخشى بحول الله قوما
وإن كثروا وأجمعت الزحوف

إذا ما ألَّبُوا جمعا علينا
كفانا حدهم ربٌّ رؤف

---

(١) الحوامي جمع حامية وهي جوانب الحافر .

(٢) المجدل المطروح على الجدالة وهي الأرض والشوامخ الأعالي والأعلام الجبال .

(٣) السميدع السَّيد ، وهذه التعليقات مع تعليقات أخرى مستفادة من هامش سيرة ابن هشام للشيخ الهراس رحمه الله تعالى .

سمونا يوم بدر بالعوالي
سراعا ما تُضَعْضِعُنا حتوف(1)
فلم تُرَ عُصبة في الناس أنكى
لمن عادَوا إذا لقحت كَشوف(2)
ولكنا توكلنا ، وقُلنا
مآثِرُنا ومعقلنا السُّيوف
لقيناهم بها لما سمونا
ونحنُ عُصابةٌ وهُمُ ألوف(3)

قال ابن إسحاق : وقال كعب بن مالك في يوم بدر :

ألا هل أتى غسان في نأي دارها
وأخُبَرُ شيء بالأمور عليمها
بأن قد رمتنا عن قسيٍّ عداوة
مَعدٌّ معًا جُهالها وحليمها
لأنا عبدنا الله لم نرج غيره
رجاء الجنان إذا أتانا زعيمها(4)

---

(1) الحتوف : جمع حتف وهو الموت .

(2) أنكى أي أشد نكاية وإثخانا في العدو . والكشوف بفتح الكاف الناقة التي يقع عليها الفحل من غير اشتهاء منها .

(3) هذا محمول على المبالغة لأن جيش قريش ما كان يزيد على الألف .

(4) أي ضامنها وهو النبي صلى الله عليه وسلم لأنه ضمن لهم الجنة بالجهاد .

نبيّ له في قومه إرثُ عزة
وأعراقُ صدق هذَّبتْها أرومها (١)

فساروا وسرنا فالتقينا كأننا
أسود لقاء لا يُرَجَّى كليمها(٢)

ضربناهُمُ حتى هوى في مكَرِّنا
لمنخر سوء من لُؤَيٍّ عظيمها

فولَّوا ودسناهم ببيض صوارم
سواءٌ علينا حلفها وصَميمها (٣)

قال ابن إسحاق : وقال كعب بن مالك أيضًا :

لعمر أبيكما يابْنَيْ لُؤَيّ
على زَهْو لديكُم وانتخاء

لَمَا حامت فوارسكم ببدر
ولا صبروا به عند اللقاء(٤)

وردناه بنور الله يجلو
دُجى الظلماء عنا والغطاء

رسولُ الله يَقْدُمُنا بأمر
منَ امر الله أُحْكِمَ بالقضاء

---

(١) أرُومها أي أصولها .

(٢) أي جريحها أي لا يرجى أن يشفى من جراحه .

(٣) أي من كان من صميم قريش ومن كان حليفا لهم ، والبيض الصوارم السيوف القاطعة .

(٤) لما حامت أي لم تمنع فوارسكم جيشكم .

فـــمـــا ظفـــرت فـــوارسكم ببـــدر
ومـــا رجـــعـــوا إليكم بالســـواء
فـــلا تعـــجل أبا ســـفـــيـــان وارقب
جـــيـــاد الخـــيل تطلعُ من كـــداء
بنصـــر الله روحُ القـــدس فـــيـــهـــا
ومـــيكالٌ ، فـــيـــاطيب الملاء[1] [2]

وبعد : فهذه نماذج من أشعار المسلمين التي قالوها بمناسبة انتصارهم المؤزر يوم بدر ، والشعر له مكانة عالية عند العرب ، فهو يرفع أقواما ويخفض آخرين ، ويُشعل الحروب ويطفئها .

وقد كان النبي ﷺ يحب من شعراء أصحابه أن يغيظوا الأعداء بشعرهم كما ستأتي نماذج لذلك في مواقف لاحقة بإذن الله تعالى .

* * *

(١) أي ما أطيب الملأ الذين يقودهم جبريل وميكائيل عليهما السلام .
(٢) سيرة ابن هشام ٢/ ٤٥٨ ٤٧٠ .

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة